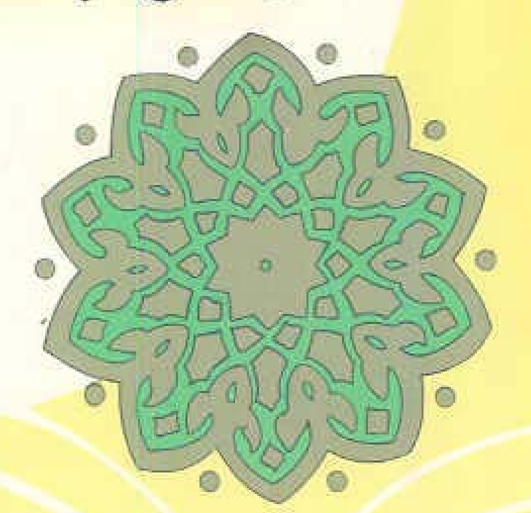
دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
بالمملكة المغربية

- خطوة حاسمة في نشوء الدولة بالمغرب.
- المولى إدريس الأزهر شاعراً والحركة الأدبية أيام الأدارسة.
- موقع المغرب في التاريخ.
- لماذا فشل النظام الإشتراكي.
- نظرة الإسلام إلى المال.



...د 274 رمضان / أبريل 1989

الثمن : 4 دراهم.

دعوة الحق

شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط . المملكة المغربية



أسسها :
جلالة المغفور لـه
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير :
الهاتف : 623.60

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

*

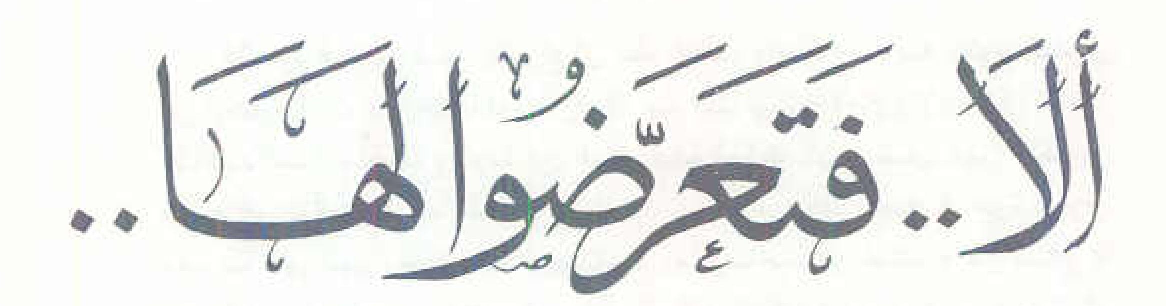
الاشتراكات : في المملكة المغربية : 70 درهماً
في العالم : 80 درهماً

الحساب البريدي : رقم 55-485 . الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3

بسم الله الرحمن الرحيم



«إن لربكم في أيام دهركم نفحات، فتعرضوا لها، لعله أن تصيبكم نفحةٌ منها، فلا تشقون بعدها أبداً».

وليست هذه النفحات الربانية إلا تلك التي تنزل من حظيرة القدس، وتهبط من الملأ الأعلى، وتهب من عبير الجنة، فترطب القلوب اليابسة الجافة، وتلين الأكباد القاسية، في أيام ميزها الله بسمات وخصائص، فتعظم وتسمو، وتتفتح فيها أبواب السماء.

ومن تلك الأيام الغر البيض التي أشار إليها حديث رسول الله ﷺ شهر رمضان المعظم الذي تغل فيه الشياطين عن الأذى، وتكف المشاعر عن الشهوة، فهو طهور للنفس، وروح للقلب، وجلاء للمشاعر.

إن أيام شهر رمضان نبع فياض لا يني يتدفق بأكرم معاني الإعداد والتكوين، ومدرسة راقية لتطهير الروح، وإعلان سلطان الإرادة، والتغلب على العادات اليومية المألوفة المطردة، حتى تتمثل للصائمين الصابرين المخبتين حياة الصحراء التي كان يعيش في جوها النضالي، ومناخها البطولي خيار المسلمين الأوائل الذين ارتفعوا إلى الله بأرواحهم، واستعانوا به دون سواه في معارك التوجيه، وكفاح العقيدة، وجهاد النفس..

وليس هناك شهر كريم. يذكي خمود العزم، ويحرك ساكن الشوق إلى ملكوت الله، ويبعث الإرادة التواقة إلى المعرفة والحياة الفكرية والروحية التي تعتبر مناط التقدم عند الأمم والشعوب كشهر رمضان المعظم الذي يلهم المسلمين الصائمين معاني سامية في دنيا الإنسانية، ويوحي من بواعث العزة والكرامة، وما تشهد أيامه من منابع الخير، وعوارف الفضل، ومرابع النور، ونفحات الرب العظيم.

إنه شهر النفحات الإلاهية.. ومن أجل تلك النفحات التي يجليها ربنا في أيام دهرنا، أن العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه يتحد في عبادة واحدة، ترمز

وتشير إلى ما يجب أن يكون عليه هذا العالم الإسلامي الفسيح من الوقوف صفاً واحداً لتقوية الجانب، وتأكيد العزة التي جاء بها الإسلام، ونادى بها الرسول الكريم، وتثبيت الإنسية الإسلامية الكاملة التي كادت تذوب في مادية العصر الجافة، وتضيع بين الأقنعة المستوردة الزائفة.

☆ ☆ ☆

فالصوم فريضة تسمو بالروح إلى عالم اللطف والصفاء، غايته تطهير النفوس من أوضار المادة، وأدران الذنوب، وهدفه بث الطأنينة والأمن والإيمان في القلب، وتأكيد أسباب المحبة والمودة بين أفراد المجتمع لذلك كان رمضان شهراً لتكوين الروح الصابرة، وعصياناً للنفس في طاعة الله، وحرماناً للجسم في مبرة الروح، ومدرسة على تحمل الجهاد بمشاقه ومصاعبه وما يصاحبه من استغناء عن الكثير مما ألف الإنسان ملازمته واعتاده من ملاذ الحياة وطيباتها بما يربي فيها هذا الركن الإسلامي العظيم من وعي كامل لمعنى العبادة، وفهم عميق لما يتصل بها من مدلولات الصبر والمصابرة والجهاد.

لقد كان شهر رمضان المعظم، وما زال، شهر النفحات الإلاهية والأسرار الربانية، حيث تحفل أيامه الغر، ولياليه البيض بخصائص كريمة حافلة بالحركة والالتزام، والذكر والعبادة والخشوع؛ فليله كله قرآن وتهجد ونسك، وصلاة وقيام.. إنه شهر نزول القرآن وشهر الصبر والجهاد فقد خصه الله بمعركة حاسمة في تاريخ البشرية هي معركة «بدر» يوم الفرقان التي كانت فرقانا بين الحق والباطل، كما جعل الله منه وعاء زمنيا لركن من أركان الإسلام وفريضة من أعظم فرائضه وهي صيام أيامه التي تعتبر بحق «مدرسة الثلاثين» يتلقى فيها المسلم الصائم المومن دروساً في الشفقة والرحمة والتواضع والمحبة والصفاء والسلام، فيصم أذنه عن اللغو، ويصد هواه عن السوء، ويكف لسانه عن الفحش، ويغض بصره عن المنكر، وتلك، لعمري أخلاق عالية رفيعة من مستلزمات التعرض لنفحات ربنا في أيام الله..

☆ ☆ ☆

كان شهر رمضان لدى أسلافنا العظام مناسبة طيبة يتعرضون فيها لنفحات الله فيستقبلونه، فطاما لشهواتهم، ولجاما لغرائزهم فيجدون فيه شهرا للجهاد المسلح ضد الظلم والشرك، والضلال والطغيان، وقد هبت فيه النفحات الربانية على المسلمين مما حصلوا فيه من الفتوحات والانتصارات..

ففي أيامه تمت أعظم حوادث الإسلام... وفيها تغير وجه التاريخ بانتصار المسلمين في جميع المعارك التي خاضوها، وتعرضوا فيه لنفحات الله فانتصروا في معركة «بدر الكبرى» التي كانت مطلع الأيام ورفعة الصلاة والصيام، وفرقاناً بين الحق والباطل بهذا المدلول الشامل الواسع الدقيق العميق على أبعاد وآماد، حيث

تحولت النظريات المجردة إلى عمل وحقيقة، والكلمة الواعية إلى حركة ونضال، والشك الحائر إلى وعي وإيمان، والنفور إلى طاعة واستقامة، فكانت التضحيات.. وكان البذل والإيثار، وكان الارتفاع عن أدران التراب، وأوضار المادة والشهوات..

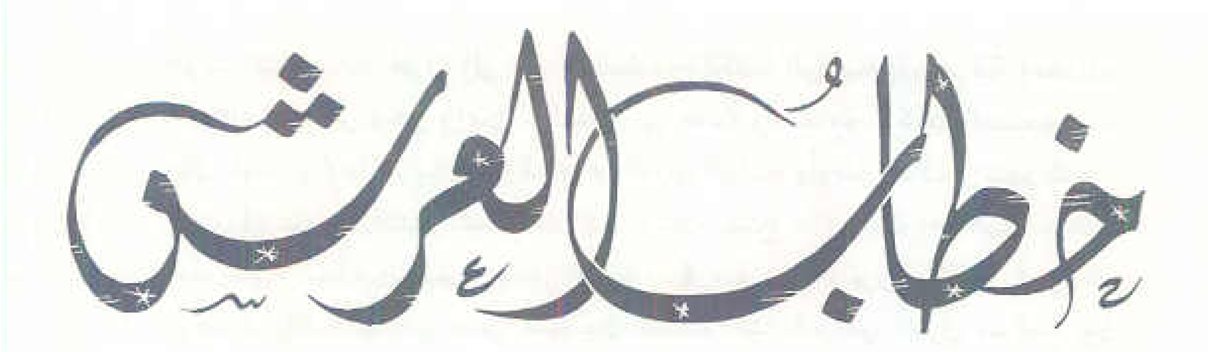
وفي أيام هذا الشهر المعظم علا مجد الإسلام بفتح مكة حيث حل فيها سيدنا محمد عليه السلام منصوراً ظافر الأعلام، كما خذل فيه الروم والفرس في وقعتي اليرموك والقادسية، وحقق المسلمون انتصارا ساحقا على التترفي موقعة عين جالوت، واندحر الصليبيون الغزاة على يد القائد العظيم المسلم، صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين..

☆ ☆ ☆

وبهذا التجلي، والتعرض لنفحات الله التي يصيب بها من يشاء من عباده، كان المسلمون الأولون الماهدون في الصدر الأول وفجر الإسلام يغمر قلوبهم الإيمان بمبادئهم العليا، وقيمهم المثلى، فلا يشقون أبداً، فينطلقون في مواكب النصر إلى مواطن الجهاد والنضال، ويسترخصون أرواحهم في سبيل المبدأ والعقيدة حتى سقطوا في ساحة الجهاد، مثخنين بجراحهم، شهداء بدمائهم، فأعطوا لكلمة الحق، معنى القوة، ولكلمة القوة، معنى الحياة، ووهبوا لأمتهم، بفضل تعرضهم لنفحات الله، وثباتهم وعقيدتهم، الحياة الرائعة، وكتب لهم النصر المؤزر على الكثرة الكاثرة التي خلت قلوبها من أي مبدأ أو عقيدة أو إيمان...

ألا، فلنتعرض في أيام دهرنا، وفي هذا الشهر المبارك العظيم لنفحات الله، بتطهير القلب، وتزكيته عن الخبث والكدورة، الحاصلة من الأخلاق المذمومة، حتى لانشقى، ولنتقبل شهر رمضان بالبشر والرضى، والغبطة والشكر، فإنه مدرسة يتلقى الصائم فيها دروسا بليغة في التعاون والتآزر، والتواصل والتعاطف والتزوار، ويجد في نفسه وازعا يحمله على أن يحبو إخوانه المعوزين الذين برّحت بهم الفاقة مايسدون به الرمق، ويبعث في نفوسهم المحبة والرحمة والإخاء..

دعوة الحق



ترأس صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني الذي كان محفوفاً بصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد يوم الجمعة 3 مارس 1989م برحاب القصر الملكي بمراكش حفل استقبال تقبل خلاله جلالته التهاني والتبريك بمناسبة عيد العرش.

وبعد تحية العلم على نغمات النشيد الوطني التي أداها صاحب الجلالة من المنصة الشرفية قام صاحب الجلالة بتوشيح السيد محمد الفاسي عضو أكاديمية المملكة المغربية بالحمالة الكبرى من وسام العرش ثم وشح جلالته السيد ألبير راس متصرف مدير عام الأمن العام البلجيكي بالحمالة الكبرى بالوسام العلوي.

وإثر ذلك تقدم للسلام على جلالة الملك وتهنئته عدد من سامي الشخصيات الأجنبية ومن بينها على الخصوص الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية السعودي والأمير عبد الله الفيصل ووفد أمريكي هام يضم من بين أعضائه الجنرال ولترز والجنرال طوماس ريتشارد مساعد القوات الأمريكية بأوربا ووزير الدولة الأمين العام للحكومة في الغابون ووزير الصحة الغابوني.

كما قدم التهاني لصاحب الجلالة العديد من الشخصيات من بينها وزراء العمل العرب وممثلو أرباب العمل والعمال في الوطن العربي والفائز بجائزة المغرب للكتاب والأمراء وأصهار جلالة الملك وأعضاء الحكومة يتقدمهم الوزير الأول ورئيس مجلس النواب وأعضاء السلك الدبلوماسي المعتمد بالرباط وكبار ضباط القيادة العليا للقوات المسلحة الملكية ورؤساء الأحزاب السياسية.

كما تقدم للسلام على جلالته النواب والمنتخبون المحليون وعامل صاحب الجلالة على إقليم مراكش وباشا المدينة ورئيسا المجلسين البلدي والإقليمي ورجال السلطة المحلية ورؤساء المصالح الإقليمية وعدد من سامي الشخصيات المدنية والعسكرية.

وفي نهاية هذا الحفل الكبير سلم السيد أحمد عصمان رئيس مجلس النواب لصاحب الجلالة رسالة رفعها المجلس لجلالته في أعقاب الجلسة الاستثنائية التي تدارس وصادق خلالها من حيث المبدأ على معاهدة اتحاد المغرب العربي تبريكا وتهنئة للعاهل الكريم.

كما سلم السيد أحمد عصمان بنفس المناسبة لجلالة الملك أربع رسائل رفعها مجلس النواب إلى باقي قادة دول اتحاد المغرب العربي والتمس من جلالته أن يسلمها للقادة المغاربيين.

ثم وجه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني إثر ذلك خطابا ساميا إلى شعبه الوفي بمناسبة الذكرى الثامنة والعشرين لتربع جلالته على عرش أسلافه المنعمين.

وفيما يلي النص الكامل لخطاب العرش :

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

□ عيد العرش...
عيد الوفاء الثابت :

شعبي العزيز..

توافي طلعة عيدنا الوطني هذا وتحل بيننا وضاءة مشرقة كما تحل كل عام بصاحبها الفرح والاستبشار ويستحثها الشوق والانتظار ذلك أن عيدنا هذا وإن كان عيد الإشادة بشباب تاريخنا المتجدد فإنه عيد الإشادة بجملة من المعاني السامية وطائفة من القيم المثلى. فهو عيد الوفاء الثابت الذي دأبنا كما دأبت عليه شعبي العزيز وعيد الإخلاص المتين المتبادل بيننا وبينك وعيد المحبة العميقة المكينة التي شاءت إرادة الله المنعم المتفضل أن تجعلها منطلقا مشتركا لما

أقمناه نحن وأنت من صروح وأعليناه من بنيان ومددناه من وسائل وأسباب. وإن من فضائله انه يذكي في نفوسنا الاعتزاز بما تيسر لبلادنا من عصور لامعات وبما كتبه أجدادنا على امتداد الأحقاب والقرون من صفحات مشرقات. وإذا كنا نزهى في هذا اليوم المبارك المرموق بما تلقيناه من تراث حضاري ثرى فاخر تضافر على توفيره كفاح طويل وجهاد بطولي مديد وتفكير واسع عميق فإننا نزهى إلى ذلك بتراثنا الحديث الذي هو وليد نضالنا الدؤوب وجهادنا الموصول صيانة لكرامتنا ودفاعا عن سيادتنا وتحريرا لأرضنا واسترجاعا لاستقلالنا وتوحيدا لترابنا وحفظا لقيمنا المقدسة وسعيا حثيثا في سبيل صنع الغد الهني الأفضل والمستقبل الرخي الأمثل. وبين التراثين تراثنا القديم وتراثنا الحديث تماثل وتشابه مردهما إلى ما يطبع من استرسال واستمرار سلوك أجيالنا المتعاقبة ومواقفها من الأحداث ومصالح البلاد العليا.

لقد من الله علينا وعليك شعبي العزيز، بأن أرسخ في ضمائرنا رعاية ما قلدنا من واجبات ووكل إلينا من مسؤوليات. فلم نخل لا نحن ولا أنت بما فرضه علينا بموجب البيعة من أحكام وشروط بل سرنا نحن وأنت بحمد الله على النهج الواضح والطريق المستقيم احتراما لما نص عليه ميثاق البيعة من التزامات وأوجبه من فروض وتبعات نهضنا ولله الحمد والمنة بما ألقى إلينا من أعباء والحماسة تحرك الإرادات وحب البلاد يشحذ العزائم. فما أكثر ما واجهنا من تحديات وذللنا من عقبات وحققنا من مطامح وأهداف وكسبنا في الزمن القصير من معارك ومكاسب.

ولقد كان من عناية الله بنا وبك شعبي العزيز وتوفيقه لنا ولك أن عزز احترامنا للالتزامات المفروضة بما وثقه بين مشاعرنا ومشاعرك من وشائج وأواصر حتى صرنا نصدر فيما نتخذه من مبادرات ونقفه من مواقف وننجزه من أعمال لا عن حكم الالتزام المجرد فحسب ولكن عن حكم ذلك المزيج الذي يلتقي فيه ويتحد عامل الواجب وعامل الامتزاج ويضفى على الأداء البعد العاطفي الذي يخلق الاستخفاف بالعقبات والاستهانة بالصعاب ويجرى حرارة الحماسة في شرايين الاقدام على الممارسات.

وهكذا شعبي العزيز كتب الله لنا أن تتحد الإرادات وتتوافق المقاصد والغايات وتجتمع كلمة الراعي والرعية على ما فيه خير البلاد والعباد وصلاح الجماعات والأفراد.

وبفضل ما أنار الله لعقولنا من مسالك وأوضح لبصائرنا من مناهج أخذنا أنفسنا بانتشال البلاد من السير الوئيد الذي طبع خطى المغرب الحديث طوال العقود الأولى من القرن العشرين وأمسكنا بزمام الوطن العزيز إمساك الحريص على تدارك مافات وتلافى النقص وعلى مواكبة الركب الحضاري ومسايرة الأقطار المندمجة في حركة التطور المعاصر. وفي ظرف الأعوام الثلاثين الماضية تمت الطفرة المباركة التي صرفنا من أجلها جهودا مختلفة دائبة وبلغت بلادنا في ميادين التجهيز والتكوين والتربية والتثقيف ومزاولة الحقوق الخاصة والعامة وممارسة الديمقراطية وبصورة عامة في سائر ساحات المعاصرة والحداثة حظا جاذبا للأنظار مما قصدنا إليه من المرامي والأغراض. كل هذا تهيأ لنا وتيسر والحمد لله دون أن تصاب شخصيتنا بسوء أو مكروه بل جعلنا من أهدافنا الأساسية أن تبرز ملامح هذه الشخصية في أبهى مظاهرها وأن يحاط

تراثنا الحضاري على اختلاف وجوهه وأشكاله بأكبر عناية وأجل رعاية.

هدفنا أن يصبح بلدنا بلدا لامعا متألقا.

إن هدفنا الأسمى شعبي العزيز أن يصبح بلدنا بين أقطار الدنيا بلدا لامعا متألقا في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية وهو هدف إن لم نكن أدركناه كله فقد أدركنا منه جملة صالحة ونصيبا ملحوظاً.

شعبي العزيز..

إن المرحلة الحالية التي يجتازها المغرب كان افضاؤنا إليها بما واليناه من تفكير وواصلناه من تخطيط وواظبنا عليه من إنجاز وتدبير وتوافقنا عليه من تكاثف وتآزر واتحاد. ولن تكون وسيلتنا إلى استكمال الطريق وأداتنا التي لاغنى عنها إلا ما خبرناه وجربناه وكان لاصطناعه العائدة الحسنة والأثر الحميد، فالتفكير الذي هو فريضة إسلامية لا يتصور أي عمل جاد يرجى من ورائه خير كثير إلا صادرا عنه منبعثا من جذوة إشعاعه. فعلينا أن نؤسس أعمالنا على قاعدة التفكير الصحيح الذي ننتهي إلى سلامته منفردين أو مجتمعين بعد المناقشة والتمحيص وعلى التاجر والعامل والصانع ورجال الأعمال وعلى المثقفين ورجال الفكر والعلماء وعلى الذين وكلنا إلى عهدتهم مهام التأطير والتسيير والتصريف والتدبير عليهم جميعا أن يسهموا كل واحد في الحقل الذي يهمه ويعنيه بما رزقه الله من مهارة وذكاء وأتاح له من معرفة وخبرة وتجربة في إغناء أهدافنا على اختلاف أحجامها وابتكار أهداف ومطامح جديدة. واعتقادنا متين إن المواهب والملكات والطاقات أن تيسر استجماعها وتسنى على النحو الأحسن الأكمل توظيفها في الوجوه المطلوبة وللغايات المخطوبة فإن صبحها لا يلبث أن يسفر عن المصير المشرق الذي تنشده الرغائب وتشرئب نحوه الآمال. وليس على الله بعزيز أن يكتب الظفر والنجاح بجهودنا الطامحة إلى طي المراحل الواحدة بعد الأخرى وإلى تحقيق اقتراب لبلادنا يتوالى أكبر وأوسع بتوالي الأيام والأعوام من أقطار ركب الطليعة الحضارية وإلى انتقال بلادنا حالا بعد حال في سلم الارتقاء لتلتحق إن شاء الله في نهاية المطاف بهدف الطليعة وتلازمها سائرة وفق وثيرة سيرها لاتتأخر ولا تتخلف.

□ نبذل قصارى جهودنا لتكون برامج تعليمنا صالحة للحال

شعبي العزيز..

تمر السنوات تباعا الواحدة تلو الأخرى ولكن الشعوب العاملة المجدة لا ترى بينها تشابها أو تماثلا. والشعب المغربي ولله الحمد أحد هذه الشعوب العاملة المجدة، إنه يتابع عمله الدائب الشجاع وسيره المتبصر في طريق التقدم والرقي وذلك على الصعيدين الداخلي والخارجي معا..

لقد منيت بلادنا بجفاف استمر أكثر من أربع سنين متوالية، ولكن الله من علينا بعد هذه المدة العصيبة فنشر رحمته وأرسل السماء علينا مدرارا. ولم يفاجئ هذا العطاء فلاحنا الحازم البعيد النظر، فقد كان أعد له عدته واتخذ جميع التدابير الضرورية للاستفادة الكاملة من هذه النعمة العظمى. وهكذا جاءت المحاصيل وكان لأمطار الخير أطيب الآثار على حقولنا ومزارعنا.

وفي المجال الاقتصادي والمالي بصورة أعم انتهجنا شعبي العزيز سياسة أتاحت لنا أن نرمي من جهة ماليتنا على أسس سليمة ليس من السهل تناولها بالطعن والتجريح وأن نفتح من جهة أخرى

آفاقا مليئة بالبشائر والآمال لجميع الذين يشاركون في ازدهار المغرب واضعين ثقتهم في مصيرنا.

ولكن ليس هناك أي ازدهار حقيقي أو نمو حقيقي بدون تكوين الفرد ولذا فإن تربية رعايانا كان لها باتصال مقام بين اهتماماتنا ذات الأولوية.

□ صيانة قيم الإسلام الأصيلة، وقيم لغتنا :

إننا لنبذل شعبي العزيز دون انقطاع قصارى جهودنا لتكون برامج تعليمنا مضبوطة صالحة للحال مطابقة لتطور العلم وتطور المعرفة. إلا أن هناك عنصرا قارا لايخلو منه معانا، ألا وهو صيانة قيم الإسلام الأصيلة وقيم لغتنا وجميع ما تتألف منه هويتنا.

ولا ريب أن المواطن المغربي الذي تتعزز شخصيته على هذا النحو يكون مسلحا مهيئا لامتلاك ناصية لغات أخرى تتيح له توسيع معارفه ومتابعة تطور العصر الحديث دون أن يتعرض للاستلاب. وهذا التطور الذي هو مستمر يؤدي بنا إلى مضاعفة أعمال البحث العلمي وتقوية الجهود الهادفة إلى تكوين الباحثين.

□ تسخير العلم لصالح النمو الاقتصادي والاجتماعي.

بيد أننا لا نعتزم الاقتصار على البحث الأساسي الذي لا سبيل إلى إنكار أهميته. ذلك أننا نجتهد دون كلل أو ملل لتكون هناك صلة وثيقة بين البحث وبين الذين يطبقون نتائجه في المجال العملي وسنحدث لهذه الغاية خلية يتلاقى فيها للتفكير والعمل باحثون ومقاولون وذلك لتسخير العلم بصورة مباشرة لصالح النمو الاقتصادي والاجتماعي. وإننا لنأمل من وراء ذلك تقوية نسيجنا الصناعي وبالتالي تيسير أسباب ثروة أعظم. وهذه الثروة هي الشرط الأساسي لإيجاد مناصب الشغل في سوق العمل.

وليس بخاف عليك شعبي العزيز أن مؤسساتنا تكتسب كل يوم قوة إلى قوة وتتعزز باستمرار وتسير في طريق التحسن سيرا يطرد ويتوالى.

ففي الصعيد الوطني قام مجلس النواب بأعمال تشرف ديمقراطيتنا الفتية.

وتقديرا للرسالة الدستورية قر عزمنا أن يتوافر لمجلس النواب الفعالية التشريعية المناسبة لعبقريتنا الوطنية، وأن يحافظ على العادات الموروثة والمزاج المغربي الغيور على المقدسات والمتفاني في حب الوطن.

وقد مثل مجلس النواب الأمة أحسن تمثيل وخطا خطوا سديدا نحو توطيد الحوار على كل المستويات وخاصة في تفاعلاته مع السلطة التنفيذية ومراقبة سيرها وأعمالها.

إننا نعتز بما تم تحت قبة البرلمان من أخذ ورد وتعبير عن الرأي الشجاع ودفاعا عن وجهات النظر وتعلق بالمصلحة العامة.

إن المؤسسات الدستورية في اعتقادنا تعني الفضيلة التي أنعم الله بها علينا لنشكره سبحانه وتعالى على التكريم الذي خص به الإنسان كما تعني العمل اليومي الهادف إلى تربية الأجيال.

□ سير ثابت في طريق اللامركزية

ولقد تجلى ذلك من مجلسنا النيابي في المنتديات العالمية وفي المؤتمرات الدولية فرنا أنه شرف المغرب وأسمع صوته وأكد وحدة الأمة من أقصاها إلى أقصاها والتحام الأحزاب السياسية والمنظمات النقابية والطبقات الشعبية كافة كلما

كان هناك خطر على الحقوق والمكتسبات أو مس بالمقدسات أو محاولة للنيل من الوحدة الترابية.

وفي الصعيد الجهوي والمحلي - شعبي العزيز - نتابع العمل الذي شرعنا فيه والهادف إلى تحقيق اللامركزية.

إن سيرنا - شعبي العزيز - في طريق اللامركزية سير ثابت بفضل التدابير المتلاحقة المتخذة تقوية للبنيات وترقية للوسائل. لقد أدخلت على الجماعات المحلية تغييرات عميقة أدرك كل مواطن في كل أجزاء التراب الوطني أبعادها وآثارها.

إن التدابير الجديدة القاضية بمنح الجماعات المحلية قسطا من محصل الضريبة على القيمة المضافة والمتعلقة بإحداث بنك لتنمية الجماعات المحلية والخاصة بالتقسيم الجماعي كل هذه التدابير سيترتب عليها في السنين المقبلة تحولات ستعرفها الجماعات المحلية.

وهكذا فإن بلادنا تحقق هدفا هو بالنسبة لأقطار ذات تقاليد بلدية عريقة ما زال في طور الأمنيات.

□ تقسيم جماعي جديد لوثبة رقي جديدة

وبفضل نظم التوزيع التي تؤثر التوزيع العادل للمنتوج الوطني فإن مجموع جماعات مملكتنا ستتوافر له موارد ستقوي دوره وتسمح له بنشر فوائد النمو حتى في المناطق النائية من المملكة.

لقد أصدرنا - شعبي العزيز - أوامرنا قصد مباشرة تقسيم جماعي جديد ليتسنى للديمقراطية المحلية المغربية أن تحقق وثبة إسهام ورقي جديد.

□ مراجعة نظام الأُجور :

شعبي العزيز..

يسرنا كثيرا أن نزف قبل الفراغ من شؤوننا الداخلية إلى موظفينا بشرى ستبتهج لها قلوبهم وقلوب أفراد أسرهم. ذلك أن حكومتنا تنفيذا لأوامرنا قد وضعت اللمسات الأخيرة فيما يتصل بعملية مراجعة نظام الأُجور الخاصة بمختلف فئات الموظفين المدنيين والعسكريين. وعلى هذا فسيتم خلال السنة الحالية وفي ابتداء السنة المقبلة تنفيذ الفصل الأخير من هذه العملية.

وسيستفيد من هذا الإجراء إن شاء الله أطر ومستخدمو المؤسسات العمومية في ظروف مماثلة لما تقرر بالنسبة لموظفي الدولة والجماعات المحلية.

وبالإضافة إلى ما تقدم فقد تم في مستهل السنة الجارية تحديد معالم الإصلاح الذي سيعرفه نظام معاشات التقاعد في الوظيفة العمومية بشقيه المتعلقين بالموظفين المدنيين من جهة والعسكريين من جهة ثانية وذلك بعد دراسة معمقة استغرقت وقتا غير قصير.

شعبي العزيز..

إن اهتمامنا بكل ما يتصل بالشؤون الداخلية لا ينسينا ما التزمنا به نحو الخارج، بل الأمر على نقيض ذلك.

فبلادنا بما حباها الله به من موقع جغرافي وبما يشهد به تاريخها المديد كانت باستمرار متفتحة على غيرها من الأقطار ولم تسلك في وقت من الأوقات سياسة تقوم على العزلة والانطواء على النفس.

وقد كانت السنة الفارطة الدليل الساطع على ما أظهره المغرب من إرادة التقارب والتعاون الدولي. فقررنا نحن والرئيس الشاذلي بنجديد بعد اتفاق تم بيننا وبينه أن نعيد من جديد العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر والمغرب متجاوزين بذلك ما هو عارض وطارىء على الرغم مما يمكن أن يكون له من حجم ومكتفين متمسكين بما هو جوهري.

وكان هذا القرار الأساسي ذا أهمية قصوى، فقد كان العنصر الذي انطلق بفضله مسلسل مبارك سعيد لم تقتصر عائدته الحسنة على بلدينا وإنما امتدت إلى منطقتنا وإلى أبعد منها ونعني بذلك مجموع العالم العربي.

□ انسحابنا من منظمة الوحدة الإفريقية لم يكن معناه قطع صلاتنا بإفريقيا.

فقد كان من نتائج ربط علاقاتنا الدبلوماسية من جديد مع شقيقتنا الجزائر أن أتاح لنا هذا الربط، السفر إلى عاصمة الجزائر حيث كان مقررا عقد قمة عربية تكرس أعمالها على وجه الخصوص لدراسة الوسائل والطرق الخليقة بإعطاء الانتفاضة في الأراضي العربية المحتلة كامل مفعولها.

وقد كانت هذه القمة الأولى مناسبة سنحت لرؤساء دول المنطقة الخمسة فاستغلوا وجودهم في عاصمة الجزائر في وقت واحد وعقدوا قمة ثانية قرروا خلالها بالإجماع إنشاء اتحاد المغرب العربي.

واستقبل المغرب من جهته عقب ذلك مؤتمر رؤساء دول فرنسا والقارة الإفريقية.

□ لم نقطع الصلة بإفريقيا :

علمك محيط ـ شعبي العزيز ـ اننا انسحبنا من منظمة الوحدة الإفريقية لأسباب اعتبرناها مسيئة ومضرة بالقانون والعدالة. ولكن انسحابنا هذا لم يكن معناه قطع صلاتنا بإفريقيا.

لقد كان المغرب دائم الانتساب إلى إفريقيا وفي نيته أن يظل منتسبا إليها. ولذا فإن انسحابنا من منظمة الوحدة الإفريقية لم يكن له أي أثر سلبي على علاقتنا بالأقطار الإفريقية بل كان الأمر على العكس من ذلك فلم يكن تعاوننا مع هذه الأقطار في وقت من الأوقات أكثر عمقا ولا أوفر خصبا وأوضح دليل على ذلك ما اتسم به مؤتمر رؤساء دول فرنسا والقارة الإفريقية من نجاح ظاهر.

وقد كان هذا النجاح في آن واحد نجاح إفريقيا ونجاح فرنسا التي كانت ممثلة برئيس جمهوريتها صديقنا السيد فرانسوا ميتران.

وكان من حسن حظنا أن تيسر لقاء استقبلنا خلاله في مدينة يفران شقيقنا فخامة الرئيس السيد الشاذلي بنجديد الذي زار بلادنا زيارة ود وصداقة. وفي أثناء هذه الزيارة تناولنا جميع المواضيع التي نهتم بها اهتماما مشتركا واستعرضنا جميع المشاكل التي تواجه بلدينا. كل هذا بروح الأخوة والمودة التي هي سمة من سمات الرئيس والتي كانت الطابع الذي مافتئ يطبع علاقتنا منذ أقدم بداية. وكان من آثار هذا الاتصال أن تعززت إرادتنا المشتركة تعميق وتنويع تعاوننا لصالح شعبينا الشقيقين وإيصال هذا التعاون إلى أبعد حد ممكن. وان تصميمنا على التقارب وعلى انتهاج سياسة تسمح باستخدام مجموع إمكاناتنا استخداما يعود بأفضل عائدة على مصالحنا.

□ قررنا أن نصادق على معاهدة الحدود لسنة 1972

وهكذا وبانتصار حتميات الجغرافيا والتاريخ فإن العلائق بين الجزائر والمغرب ستصبح من جديد علائق إخاء ووفاق متبادل وتفاهم وحسن جوار.

إن الأوقات الطويلة التي قضيناها نحن والرئيس الشاذلي بنجديد على انفراد كانت أوقاتا خصبة وأتاحت لكل واحد منا أن يحدق احداقا أحسن باهتماماتنا معالجا لها تارة في إطار علاقتنا المتبادلة وتارة في أفق أرحب لايشتمل على مستقبل ومصير بلدينا فحسب ولكن يشتمل أيضاً على مستقبل ومصير مجمل منطقتنا.

ولما انتهت مدة إقامة ضيفنا الكبير ببلادنا فكرنا وكان تفكيرنا حاسما أن بناء المغرب العربي يقتضي حتميا في آن واحد تنقية علاقات كل بلد مع كل واحد وتنقية علاقاته مع الأقطار الأخرى.

□ اتفاقية الحدود مع الجزائر..

لقد وقع المغرب والجزائر سنة 1972 معاهدة تعيين حدودهما المشتركة. وقد نفذت الجزائر هذه المعاهدة وصادقت عليها أما المغرب فإن الظروف الماضية قضت بأن يتوقف فلم يصادق لغاية الآن على معاهدة 1972 وإن كان شارك في عمليات تشخيص رسم الحدود.

إننا نعيش اليوم زمنا يختلف اختلافا كبيرا عن الزمن السالف، إن مستقبل منطقتنا مستهدف وليس لأحد الحق أن يعرضه للخطر، لقد فكرنا مليا وادخلنا في الحساب وأخذنا بعين الاعتبار جميع العناصر المنصوص عليها آنفا وقررنا أن نصادق على معاهدة الحدود التي وقعها المغرب والجزائر سنة 1972..

وهكذا فإننا لم نهمل من جهتنا أي شيء لتكتمل مؤهلات ميلاد مغربنا الكبير. وعلى الفور عقب لقاء يفرن كانت القمة المغاربية التي انعقدت بمدينة مراكش. وهذا قدر لهذه المدينة التي كانت عاصمة الموحدين أولئك الذين ما زالت أصداؤهم تتردد طول شوارع مدينة جنوبنا الحمراء وعلى امتداد أسوارها.

المغرب العربي طالما تحدث عنه أباؤنا، لقد كان العلم يبدو لنا من قبيل الأوهام في تلك الأعوام الخاليات إلا أن المسافة المؤدية إلى التحرر من ربقة الاستعمار كانت تلوح لنا طويلة ولم يكن يلمع آنذاك أي وميض نور في طريق النفق.

ثم جاء جيلنا الذي ناضل والذي جاهد من أجل استقلال أقطارنا الوطني، فما لبث هذا الحلم أن أصبح مطمحا كنا نرى وجوب تحويله إلى حقيقة تلبية لرغائب وآمال شعوبنا التي اجتمعت في هذا الشأن كلمتها واتحد مطلبها.

وقاد الله خطانا ورسم لنا ما كان علينا أن نسلكه من طريق. إن ما كان لكل واحد منا من استعداد حسن واضح بين وما كنا جميعا نعلمه من أدق حساسيات شعوبنا كل هذا يسر لنا نحن ورؤساء الدول المجتمعين بمراكش إحداث وتأسيس اتحاد المغرب العربي.

وإننا لموقنون بأن المجموعة التي تم ميلادها ستعرف كيف تواجه تحديات الحياة العصرية وستتيح للشعوب المتحدة المنضوية تحت لوائها بلوغ مستوى النمو والرقي الذي بلغته الدول المصنعة.

□ كان جلالة محمد الخامس الفاتح لأبواب الأمل

إننا لا نقصد بعملنا هذا إلى إحداث سوق كبيرة أو كيان اقتصادي موحد فحسب ولكن طموحنا يترامى إلى إيجاد وحدة مصير لشعوب

منطقتنا تؤمن للجميع السلم والاستقرار والمستقبل المشرق والمزدهر.

شعبي العزيز..

لايمر احتفالنا بعيد العرش بعيد وطننا العزيز دون أن تشاركنا فيه وتستحوذ على المشاعر والخواطر روح والدنا جلالة محمد الخامس نور الله ضريحه وهي مشاركة قوية تعيد إلى ذاكرتنا طائفة من الصور والأفكار وخاصة ما كان لاحتفاله بعيد العرش من مغزى كبير ومعان متعددة سامية وأثر بعيد في النفوس.

لقد كان الشعب يعلم حق العلم ما كان يبذله عاهله رحمه الله من جهود متواصلة ويعانيه من مشاق متلاحقة في سبيل إسعاد شعبه، لقد كان يعلم أن هذه الجهود وهذه المشاق لم تكن تستهدف سوى شيء واحد وهو أن تتمتع البلاد بما كانت تتوق إليه النفوس كافة من سيادة لايقيدها قيد ومن حرية كاملة مطلقة واستقلال يعيد إلى أصحاب البلاد حقوقهم المسلوبة تامة غير منقوصة.

لقد كان جلالة محمد الخامس طيب الله ثراه الزعيم القائد والمناضل الرائد والملقن المقتدر المربي الماهر والفاتح لأبواب الأمل بعد انغلاقها، وكان المنارة المشعة فحاول الاستعمار أن يعاقبه أقصى عقاب وينتقم منه أشد انتقام فأبعده عن وطنه وأحبائه وأعزائه، فتجرع رحمة الله عليه مرارة المنفى والاغتراب وصبر على المكروه وصمد محتملا للامتحان ثابتا في الموطن الشاق العسير بعزم لا يفل ولا ينثني وإيمان لا يكرم به الخالق الباريء إلا الصفوة من عباده.

وكافأ الله سبحانه وتعالى كفاحه وجهاده وإصراره ومصابرته أحسن مكافأة وأسنى مجازاة فرده إلى أرض آبائه وأجداده وإلى شعبه المخلص الوفي مظفرا منصورا مكللا بتاج الحرية والاستقلال متبوئا أعز وأعظم عرش : عرش المهج والقلوب.

أجزل الله لجلالة والدنا محمد الخامس الأجر والثواب وعامله بعظيم كرمه وإحسانه وبوأه دار الخلد في فسيح جناته ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾.

□ تحية تقدير وإكبار لقواتنا المسلحة الملكية.

شعبي العزيز..

نجعل كل عام من هذا اليوم المبارك السعيد يوم عيدنا الوطني مناسبة نتوجه فيها بخواطرنا وعواطفنا إلى قواتنا المسلحة الملكية وقوات الدرك والأمن والقوات المساعدة المرابطة في صحرائنا، لقد عودتنا قواتنا هذه أن تضطلع بالأعباء الموكولة إليها أكمل اضطلاع وأحسنه كما عودتنا أن نراها مؤدية للواجبات ناهضة بالمسؤوليات لا تتهيب المسالك الوعرة ولا تحجم أمام المصاعب أو المكاره. من أجل هذا كله استحقت قواتنا المسلحة المرابطة في صحرائنا كامل رضانا وعظيم إعزازنا. وإننا إذ نجدد لها في هذا اليوم الأغر آيات تقديرنا وإكبارنا ونؤكد لها ارتياحنا لقيامها بالواجب واطمئناننا إلى حزمها وسهرها ليسعدنا ـ شعبي العزيز ـ أن نعرب لها باسمك عما لها في قلبك من محبة راسخة وعما تكنه لها من إعجاب وتجلة واحترام. إن قواتنا المسلحة التي هي مناط اعتزازنا وافتخارنا لجديرة اليوم كما كانت جديرة بالأمس بالإشادة الضافية والثناء السابغ والتنويه المتجدد.

نسأل الله أن يديم على قواتنا نعمة عونه وتعزيزه وأن يتغمد بواسع الرحمة والغفران شهداءنا الأبرار الذين استرخصوا التضحيات وجادوا بأرواحهم في ساحة الشرف ويحلهم أعلى المنازل والدرجات في جنات النعيم.

شعبي العزيز..

لقد اتجهت جهودنا منذ أنعم الله علينا بنعمة الاستقلال إلى نقل بلدنا عبر أطوار متعددة من الوضع الذي كانت عليه يوم تسلمنا مقاليد تصريف شؤوننا إلى الوضع الذي هي عليه الآن.

وكان فضل الله علينا عظيما فقد وفقنا إلى تلبية الكثير من الرغائب والمطالب ويسر لنا تحقيق ما كان يجيش به قلبنا وقلوب شعبنا من آمال وطموح. وها هو بلدنا يتبوأ الآن بحمد الله مقاما محمودا من صميم الزمن الحاضر.

وإذا كانت مساعينا ـ شعبي العزيز ـ قد انتهت بنا إلى إضفاء الحداثة على مغربنا وإذا كان حرصنا شديدا على مشاركة ركب الطليعة وعلى مسايرتنا للغرب وتقلبنا فيما يتقلب فيه من شؤون اقتصادية وفكرية وعلمية وثقافية فإن هذا لا يعني بحال من الأحوال أننا نهدر في سبيل إقبالنا على الغرب واتصالنا بحضارته أعز ما تقوم عليه شخصيتنا وخصوصياتنا من قيم روحية وأخلاقية وأصالة ومقدسات.

□ سنظل قائمين بحفظ تراثنا الديني

لقد أتى علينا حين من الدهر كانت حضارتنا الإسلامية المزدهرة عنوانا للحداثة وكان الفكر الإسلامي وعرفان العلماء المسلمين نبراسا وقادا تستنير وتهتدي به الأفكار والألباب. يومذاك كنا ننقل فلسفة اليونان وعلوم الأقدمين ونشرحها ونضيف إليها من فيض عبقريتنا ونشيعها في أنحاء أوربا التي كانت صادية إلى حياض ومناهل العرب والمسلمين.

وسنظل بحول الله قائمين بحفظ تراثنا الديني حامين لحوزة أصالتنا جادين في صيانة ذخائر هويتنا وشخصيتنا. وسيظل أبناؤنا وأبناء أبنائنا بعون الله جنودا مجندين لتحصين ما نعتز به من قيم وللدفاع عن هذه القيم التي آمن بها السلف الصالح من آبائنا وأجدادنا.

نسأل الله ـ شعبي العزيز ـ أن يبقي بلدنا معقلا حصينا من معاقل الإسلام يجعل إشعاعه الديني والحضاري إشعاعا يتوالى امتداده واتساعه كما نسأله أن يكلأنا من المكاره والمخاطر ويقود خطانا على محجة توفيقه وهدايته ويمدنا بسنده وعونه لتحقيق ما نبتغيه للوطن والمواطنين من هناء لاينضب معينه ولا يغيض، وخير عميم لايتضاءل سببه ولا يريم.

اللهم إني متصرف على إرادتك، متمسك بكتابك العزيز وسنة رسولك، ملتزم بهديك وشريعتك، معترف بسابغ نعمتك وإحسانك. فزدني اللهم من كريم عوارفك وآلائك، بتوفيقي لأقصد السبل وأقوم المسالك وأعني على ما أوليتني وأيدني فيما قلدتني واجعل خطاي مصروفة إلى مرضاتك وجهودي مقصورة على ما فيه مجد وطني وسؤدد شعبي.

اللهم أدم الآصرة الواصلة بيني وبين شعبي صحيحة الأركان وثيقة البنيان لاتتبدل ولا تحول على تجرم الأعوام ومر الزمان. فبك اللهم التسديد والتأييد ومنك اللهم التوفيق والتيسير وما لنا من دونك من ولي ولا نصير.

﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا﴾ صدق الله العظيم.

الدعوة إلى الإسلام
طبيعتها والقائم بها

للدكتور توفيق محمد شاهين

طبيعة الدعوة إلى الإسلام في القرآن الكريم :

- دعا رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ إلى الحق وهو دين الله تعالى طوال حياته في رسالته.

ونهج في سبيل الدعوة منهج الحجة الواضحة، والحكمة في الاقناع، وعدم إيذاء المعارضين له، ولا إلى لغوهم وعبثهم... اكتفاء بوضوح الحق في ذاته، أمام العقل الإنساني الذي يحترم نفسه ولا يميل إلى الهوى، ولا إلى عصبية فكرية ولا جاه زعامة وشرف أسرة أو طبقة أو نيل مصلحة فردية.

- وعاش الرسول ﷺ للدعوة إلى الحق متجردا عن زينة الدنيا، وفي صبر على المكاره والشدائد، حتى نجح في أداء رسالته.

- وجنب رسالته الإكراه، والرهبة، والخوف... فتوفرت لها المشيئة الخالصة والإرادة الحرة لمن يؤمن بها.

- وترك للمؤمن أن يلتزم بمبادئ الدعوة عن اختيار، وأن يراقب نفسه في سلوكه وتصرفاته في حياته وحياة من حوله بالتزام من نفسه وضميره، لا بإلزام خارجي، ليكون إنسانيا في أمة إسلامية، يسود فيها احترام الإنسان، وكرامته، وحريته، في إطار المثل الإنسانية العليا ولا ينزل عن هذا المستوى.

- ومن هنا لا يكون الدين الإسلامي موقوتا بزمن، ولا محدودا بمكان، وليس لقبيلة، أو جماعة أو أسرة أو كتلة من البشر، وإنما يهدف إلى الوحدة في العالم الإسلامي، ويرتبط بالإنسانية أينما وجدت وكانت.

- وما جاء في القرآن الكريم تحت باب الدعوة إلى الله تعالى يكون حينئذ شاهدا على أن :

- □ الإسلام هو دين الله،
- □ والقرآن هو كتاب الله،
- □ ومحمد هو رسول الله وخاتم النبيين،
- □ وأن رسالته إلى الناس أجمعين إلى يوم الدين.

وفي إيجاز نذكر نبذة عن معنى الدين أو الرسالة، وعن كتاب الرسالة المقدس، وعن رسولها الأمين، حتى لا يكون هناك لبس في تحديد المفاهيم، ولا تكون هناك حساسية في ذكر الإسلام ونبي الإسلام... ونعرف دعوة الإسلام في طبيعتها، والداعية في صفاته وأخلاقه.

وفي إطار موضوعنا سنذكر الإطار الذي أحاط به القرآن نبي الإسلام، كقدوة للدعاة، في هديه، وخلقه، وعمله، ودعوته، لتكون نبراسا للدعاة في حياتهم، وللدعوة في حركتها حتى تؤتي ثمارها طيبة مباركة للإنسانية كلها.

وستجد أن الدعوة إلى الإسلام حضارية في طريقها، وإنسانية في مبادئها. وأن حملتها أصحاب مثل عليا يرتقون بإنسانياتهم إلى أعلى مستوى ومؤمنون إيمانا كاملا بما يدعون إليه، ابتغاء وجه الله تعالى، وخير الإنسانية.

أ - مفهوم الدين في نظر المسلمين :

الدين في نظر المسلمين هو الإسلام، لأنه دين الأنبياء جميعا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - كما ورد في القرآن الكريم.

ومن هنا فإن المسلمين يؤمنون برسالات الله ورسله أجمعين، على نحو ما تحكيه الآية الكريمة : **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله﴾** (البقرة : 285).

وأصول الأديان السماوية في نظر المسلمين واحدة، يؤمنون بها، كما يقول القرآن الكريم : **﴿قولوا : آمنا بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى ابراهيم، واسماعيل، واسحق، ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسى، وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون﴾** (البقرة : 136).

□ والدين للبشر ضرورة، ومن يقول بأن العقل لا يحتاج إلى الدين، إنما هو مخرف أو معتوه، أو مغرور.

ب - والقرآن الكريم في نظر المسلمين :

هو كتاب الله تعالى، ووحيه إلى نبيه خاتم الأنبياء محمد ﷺ وهو الهادي للتي هي أقوم، يبشر من تبعه بالخير، وينذر من خالفه وعارضه بعدم السعادة والسكينة في الدنيا والآخرة.

تكفل الله سبحانه بحفظه، **﴿إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون﴾** (الحجر : 9). فقد حفظه المؤمنون به وغيرهم على السواء - بحفظ الله - من الزيادة والنقصان، والتغيير والخلط...الخ.

والقرآن ليس غريبا على الكتب السابقة التي أوحاها الله سبحانه إلى رسله السابقين، بل هو الوثيقة المقدسة الجامعة لأصول وحي الله في الكتب السابقة إلى الأنبياء والرسل، يقول القرآن الكريم واصفا نفسه :

﴿وإنه لكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك» (فصلت : 41، 43).

فيه تفصيل لحياة المعاش والمعاد، ليس في غيره، وفيه ضمان صلاح حال الحياة والأحياء وصفه الله تعالى بقوله :

﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمومنين﴾ الإسراء : 82).

ولا يستغنى عن الرحمة إلا شقي، ولا يرفض الشفاء إلا معتوه.

وهو معجزة الرسول الكبرى، والآية الباقية إلى يوم الدين.

جـ - نبي الإسلام في نظر المسلمين :

محمد بن عبد الله هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو بشر غير أنه أوحى إليه القرآن من الله تعالى، بواسطة جبريل عليه السلام : **﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي﴾** (الكهف : 11).

﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾ (الأعراف : 158).

أرسله الله سبحانه إلى الناس جميعا : **﴿شاهدا، ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا﴾** (الأحزاب : 45، 46).

وهو ليس غريبا عن حاملي ومبلغي رسل الله جميعا، ممن سبقه : **﴿قل : ما كنت بدعا من الرسل﴾** (الأحقاف : 9).

فهو إنسان التقت في شخصه أمجاد النبوات جميعها، وجهودها المباركة، لتزكية البشر وقيادتهم إلى الحق وإلى

صراط مستقيم، بما أوحاه الله إليه، وأمره بتبليغه، يقول سبحانه : ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، إلا إلى الله تصير الأمور﴾ (الشورى : 52، 53).

د - المسلمون حملة رسالة كبرى وعليهم تبليغها :

أتم الله سبحانه النعمة على المسلمين، بإكمال الدين، وإتمام النعمة، وارتضاء الإسلام دينا لهم، ووكل إليهم أمر الدعوة إلى الحق ولن يقوم بذلك عنهم، «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»، وقال تعالى : ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، لعلهم يحذرون﴾ (التوبة : 122) ﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾.

والناس محتاجون لرزق الله لبقاء أجسامهم، ومحتاجون إلى هداية الله لتزكية أرواحهم ومهما كانوا علماء، وأذكياء، وعباقرة فهم في حاجة إلى وحي الله الذي : ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ (الملك : 14). فهم بحاجة إلى الدين حاجتهم إلى ما يحفظ حياتهم، بحاجة إلى حاجات الجسد، وتلبية أشواق الروح، وقد وازن الدين بين الجسد ومطالب الروح، ولم تطغ فيه ناحية على أخرى.

وما جنى العالم بانفصاله وبعده عن الدين قرابة قرن الآن إلا القلق والحروب والدمار وخواء الروح، وجلب الشر على أنفسهم وعلى غيرهم.

والحضارة المادية بطغيانها وعدم بصيرتها أشقت العالم، وقطعت أواصره وروابطه وعاشت شطر الحقيقة، وأكمل الشيطان الشطر الثاني : فالحرية في الغرب سادت وزادت، وضمان ضروريات الحياة في الشرق كفلت، وأشواق الروح تكمن في بلاد الإسلام الذي تخلف أهله... والإسلام جامع لذلك كله، ولكن أهمله أهله وتركوه، وافترى عليه أعداؤه وعادوه.

والآن علينا أن نعرف دعوة الإسلام كدعوة حق في طبيعته، ونعرف - بالتالي - واجبات الداعي إليه وصفاته من ثنايا القرآن الكريم : ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ (ق : 37).

ثانيا :

صفات الداعي إلى الإسلام في ضوء القرآن الكريم :

1 - الداعي إلى الإسلام إنسان :

الرسول ﷺ وهو صاحب دعوة إلى الحق، أعلن أنه بشر، وأنه لا يرتقي فوق مستوى الإنسان، ورسالته أن يبلغ عن الله تعالى ما يوحيه إليه بأمانة وإخلاص ودقة، يقول الله سبحانه :

﴿قل : لا أقول لكم عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول لكم إني ملك، إن أتبع إلا ما يوحي إلي﴾ (الأنعام : 50).

ومعنى هذا أنه قد تجرد من كل العواطف الذاتية، والأهواء والميول، من زينة الدنيا وجاهها... وهو بذلك يكون قد تفوق في مستوى الإنسانية، وأصبح ذا شأن عظيم فيه، ولكنه لا يخرج بهذا التفوق عن طبيعة الإنسان.

فتميز الداعي على غيره إنما في أنه له من الخصائص والصفات أكثر من غيره، بما يهيئ لدعوته النجاح بسبب الصبر، والإيمان، والتضحية، والثبات... وليس هو فوق مستوى الإنسان ولا يطلب منه أو له أن يكون فوق مستوى الإنسان، لأنه إنسان فيه روح وله بدن، فإذا ادعى اعتبارا لنفسه زائدا في التقدير أو الاحترام أو التقديس، أو أنه يملك الأرزاق، ويعلم الغيب ويغفر الذنوب، ويمنح الغفران... فإنه يسقط وتسقط دعوته معه.

فالإنسان دائما إنسان يرتفع في مستوى الإنسانية، وينخفض في مستواها، ولكنه لا ينتقل إلى طبيعة أخرى. وتطوره ذاتي - أي داخل الذات البشرية - وتقديره إنما يحصل عليه في المستوى الإنساني فقط.

2 ـ الداعي إلى الإسلام يلتزم بدعوته :

لا بد أن تتوفر في الداعي إلى الحق مجاهدة نفسية، وترويض لسلوكه ومبادئه، وضبط النفس ليكون القدوة الحسنة، لتكون فيه طبيعة، وحتى ترى القيم العليا والمبادئ الرفيعة التي تشكل كيان الدعوة إلى الحق فيه سلوكا وأخلاقا ومعاملة.

وقد تتبع القرآن الكريم ميول الرسول ﷺ ومواقفه، وعواطفه الداخلية، ويطلب منه إعلان ما يؤخذ عليه منها، فالقرآن يعلن ـ في عتاب ـ ميول الرسول والمؤمنين معه للمعارضين لدعوة الإسلام إلى درجة الكفر، واليأس من إيمانهم، ويسجل الوحي ذلك في قوله تعالى : **﴿ما كان للنبي والذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين، ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾** (التوبة : 113).

ويعترض القرآن على أصحاب الدعوة الركون إلى المعارضين لقوتهم، أو لصلتهم بهم، لأن الدعوة حينئذ لا تكون غاية، وقد يشك الناس في الإيمان بها، ويؤدي ذلك إلى فشلها يقول القرآن الكريم :

﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر، يوادون من حاد الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو عشيرتهم﴾ (المجادلة : 22).
فأصحاب الدعوة يؤاخذون ويوجهون إلى الصواب والأولى، إن هم مالوا عنها ولو متأولين : فلا مجال للميول والعواطف الشخصية في الدعوة إلى الحق، حتى يستقيم أمرها.

فلا بد إذن من أن يروض الداعي إلى الحق نفسه على سلوك الطريق السوي والتزامه وحده، وأن يصارح المؤمنين بالأخطاء، التي تقع، وتجنب وقوعها مستقبلا، وتوفير الثقة فيما بينهم، وللحيلولة دون الظنون والشائعات، فيسلم المجتمع، وتنجح الدعوة إلى الحق، فضلا عن كونه قدوة حسنة، يقول الله تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون... كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون﴾** (الصف : 2، 3).

3 ـ الوقوف بجانب المخلص للدعوة :

فعلى الداعي أن يلتزم الوقوف جنبا إلى جنب مع المخلصين في إيمانهم بالحق، ولا يقف مع آخرين يعارضون الدعوة ويتبعون أهواءهم، ويغلقون قلوبهم دون الإيمان بالله تعالى، يقول القرآن الكريم :

﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا، واتبع هواه، وكان أمره فرطا وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر﴾ (الكهف : 28، 29).

فمن شأن الداعي التودد إلى المخلصين، واحتمال حتى ما يكون جارحا للإحساس والشعور منهم، وأن يشاركهم سراءهم وضراءهم، لأنهم مع الله، ومشغولون بذكره، ويريدون ثوابه ووجهه، ولا يريدون زينة الحياة الدنيا، وإنما أن تسرى هداية الله ورسالته في حياتهم وحياة الآخرين معهم من إخوانهم.

وحين يقف الداعية هذا الموقف يكتسب قوة من أتباعه إلى الله، ويتحقق أن دعوته ليست إكراها وإلزاما، وأن القرآن إنما يقنن للمجتمع الإنساني في المستوى الرفيع.

ومن هنا نفهم سر معاتبة القرآن الكريم، للرسول ﷺ في شأن الصحابي الكفيف عبد الله بن أم مكتوم، حين جاء يطلب التفقه في العلم، فأعرض عنه الرسول، لانشغاله بأشراف قريش المشركين، وكان النبي يحدثهم رجاء أن يؤمنوا فيكسب الإسلام أنصارا أقوياء، وكان عبد الله بن أم مكتوم أولى بالترحيب والعناية به، لقوة إيمانه وإخلاصه، وكان الشك والضعف الذي تملك أشراف قريش فكان من حقهم الإهمال، ولذا جاء العتاب في قوله تعالى :

﴿عبس وتولى، أن جاءه الأعمى، وما يدريك لعله يزكى، أو يذكر فتنفعه الذكرى. أما من استغنى فأنت له تصدى، وما عليك ألا يزكى. وأما من جاءك يسعى، وهو يخشى، فأنت عنه تلهى. كلا إنها تذكرة﴾ (عبس : 1، 11).

4 - المحن تزيد الداعي إلى الحق ثباتا وصبرا :

طريق الدعوة غير مفروش بالورود، وعلى الداعي إلى الحق أن يتحمل الشدائد ويثبت في مواجهة المحن، وأن يعلم يقينا أن دعوة الحق قوية بنفسها، وعليه - بالتالي - أن يثبت ويقوى هو ومن معه صابرين، معتمدين على الله القوى القادر، وستكون النصرة لهم - بفضل الله تعالى - مهما كانوا ضعفاء، ومهما كان خصوم الدعوة إلى الحق أقوياء، ولنأخذ مثلا من الماضي ليكون عبرة للحاضر والمستقبل :

تجمع كفار مكة وأحزابهم حول المدينة - في غزوة الخندق - في الخارج لحصار المسلمين وروج يهود المدينة - من داخلها - شائعات السوء، لتحطيم المجتمع الإسلامي في أول نشأته مع ضعفه وقلة إمكاناته. وتحصن المسلمون داخل المدينة بحفر الخندق، وتحملوا الجوع وواجهوا التهديد، وقابلوا التحدي... وفي نفس الوقت ظلوا مستمرين على الحفاظ على إيمانهم وعدم الاستسلام للأعداء، والسير في طريق دعوة الحق، مع الاعتماد على الله سبحانه وطلب المعونة منه، والدفاع الذاتي بالاستعداد وحفر الخندق حول المدينة...

وزادت هذه الشدة المؤمنين إيمانا وتسليما، وأظهرت حقيقة النفاق والخداع، وطردت يهود المدينة، وأورثت المؤمنين أرض «خيبر»، بفضل الله تعالى، وبسبب صبرهم وثباتهم كدعاة حق له قوته في ذاتيته، ولهم قوة في أنفسهم، وعاشت الدعوة، وأصبح لها تاريخ وأمة، ولم تمت ولن تموت بعد ذلك أبدا إن شاء الله، (راجع سورة الأحزاب : 9، 27).

فرسالة الإسلام يجب أن تكون هدفا في الحياة وغاية، والقائمون بها لا تهن عزائمهم ولا تضعف نفوسهم، ولا يستسلمون في مواطن الشدة، ويجب أن يكون إيمانهم بالرسالة لذاتها، وتقدير للمبادئ التي تمثلها وتحملها.

وفضل الدعوة على الداعي إلى الحق خلود ذكره بعد موته خلود ذكرى ونموذج ومثال يقتدى به، وله في حياته التوقير والاحترام. وفضل الداعي إلى دعوة الحق هو في الإيمان بها والعمل على نشرها، وتحمل الأذى في سبيلها، يقول القرآن الكريم :

«وكأين من نبي قتل معه ربيون كثير، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين. وما كان قولهم إلا أن قالوا : **ربنا اغفر لنا ذنوبنا، واسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين** (آل عمران : 146، 147).

☆ ☆ ☆

5 - الداعي إلى دعوة الحق : عالم يحتاج إلى مزيد من العلم والثقافة والمعرفة :

على الداعية إلى الإسلام أن يفهم تعاليم الإسلام وروحه فهما صحيحا عميقا من منابعه الأولى : القرآن والسنة المطهرة، والسيرة النبوية، والمؤلفات الإسلامية القيمة والمسئولة، حتى تتكون الفكرة السليمة عن التصور الصحيح للإسلام وعقائده وتشريعاته وأخلاقه وأهدافه... وبذلك يتأثر الداعية ويؤثر في الناس.

وهنا يتطلب اعداد برامج مدروسة واعية، ومعاهد على مستوى رفيع لاعداد الداعية في صغره وشبابه، مع رعاية وعناية فائقة، ليؤتي الثمرة المرجوة، على اتجاه سليم، وإحاطة شمولية، يقول القرآن الكريم : **﴿وقل رب زدني علما﴾** (طه : 114)، ويقول سبحانه : **﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾** (البقرة : 282)، ويقول سبحانه : **﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾** (يوسف : 76).

وما لم يكن الداعية مثقفا ثقافة شاملة ومتنوعة، فلن يكون موصلا جيدا، ولا مؤثرا في سامعيه وقارئيه. ومهما فهم التلميذ واستوعب ما قاله أستاذه، فقد بقيت للأستاذ شمولية الفهم، وبعد الرؤية، والمعرفة العميقة بأصول المدروس.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل...

أوتاوا كندا : **د. توفيق محمد شاهين**

الواقعيّة في الفكر الإسلامي

للأستاذ أحمد الكتاني

إن الذي تسمح له الظروف وتواتيه الفرص للبحث، ويقتفي آفاق الفكر الإسلامي منطلقا من مصادره الأصيلة لا مما يروج في أدمغة قوم اختلط عليهم الحابل بالنابل، يتبين له بوضوح، أن الإسلام في حقيقته ووجوده الفعلي، ثورة عارمة ضد كل تخلف، وتغيير كامل شامل أطاح بأوضاع الإنسان الفاسدة، ليحل محلها ما يلائم الإنسان شخصيا واجتماعيا وماديا في إطار إسلامي، وأن ممارسة الإسلام تستوعب تحولا مستمرا من صور العبادة وأشكالها البارزة إلى آثارها المتميزة بالإيجابية، ومن الانحصار في قوقعة المثالية الخيالية، إلى اقتحام معترك الحياة الواقعية، والارتماء في زحمتها والاستفادة من تجاربها الناجحة، بل التدين في جوهره تحول دائم من الجمود إلى الحركة، ومن التقليد إلى الأصالة، ومن الغباء إلى الإنتاج، ومن الكسل إلى استمرارية النشاط والحركة، ومن الاحساس بالملل والسآمة إلى تغطية الفراغ بمباهج الحياة والاستمتاع بها، وهذا يعني أن التدين لا يكاد يستقر في ذهن الإنسان ويهيمن على أعماقه حتى يحفزه إلى الشعور القوى بفعالية التدين الإيجابية، وواقعيته في مختلف الأطوار، وتباين الفترات، ومهما طهرت العقيدة وشرفت الأحاسيس، فلا يعتد بها ما لم تفرغ في حركة مستمرة وكفاح متواصل ومسيرة طويلة، لأن الإنسان خليفة الله في أرضه، وهو قادر على بناء هذا الكون العظيم، وتعميره واستخراج ما فيه من مقومات الحياة، وروافدها، وأن مجرد إحساس الإنسان بعظمة دوره في الخلافة عن ربه، ليهيئه إلى العمل الصالح، والإنتاج المثمر، كما أن شعوره بعبء الخلافة يدفع بعجلة السير نحو التقدم والازدهار.

ويؤكد له أن وجوده في هذا الكون ليس عبثا قال تعالى : ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون**﴾ وإنما وجوده قدر مقدور يكمن في ممارسة العمل النافع الذي يسعد الإنسانية جمعاء قال تعالى : ﴿**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾.

واشتراط الإيمان بالعمل الصالح، يبرز قيمة العمل الصالح، بل يثبت للعمل الصالح وجوده، ولابد من العمل الصالح لتكون للإيمان ثمرته، بل لتثبت للإيمان حقيقته، غير أن مفهوم العمل الصالح يختلف لدى بعض يهرفون بما لا يعرفون، حيث يقصرونه على الشعائر الدينية، والتعبد بالذكر، ويخطئون في مفهوم قوله تعالى : ﴿**وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون**﴾، متغافلين على أن العمل

الصالح هو غير رسوم العبادة المجردة، وغير أشكالها المعتادة، والذين يفهمون ذلك يضعون الإسلام في مكان ضيق لا يتسع لكافة الناس، ويحصرون تعاليمه في إطار لم يأذن به الله، ويسلخونه عن واقع الحياة، وبذلك يوهمون الناس بسلبية المتدينين في نظام هذا الوجود.

وإظهار القيمة العمل وطابعه المتميز في الإسلام على الرسوم والأشكال، أذكر بالآية الكريمة : ﴿**إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين**﴾، وإنما ذكرت بهذه الآية الكريمة، لأبين أن مراكز العبادة في الإسلام هي مراكز إشعاع وإبداع، فلا غرو إذا كانت العبادة ذات دلالة إيجابية، وكان العمل شموليا، وأن ذلك ليرتد بدءا وختاما إلى الشخص نفسه عند ما يقبل على العبادة في مكان ما، أما العبادة فمقصودة لغايات أبعد من شكلها، وأما المراكز فترمز إلى تلك العبادة التي هي وسيلة للصلاح والقرب من الله تعالى.

لقد وصف الله تعالى بناة المساجد بأوصاف نبيلة، ذات أبعاد ودلالات، وصفهم بالإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وخشية الله، أي التقوى، هذا هو المقياس في عمارة المساجد.

فالإيمان بالله يعني تحرر البشرية من كل عبودية لأية سيطرة وأي سلطان، إلى عبودية الله التي تشد البشرية إلى مثلها العليا، فيعيش الناس جميعا في حظيرة المساواة يعبدون ربا واحدا ويتعاملون بشريعته، وقد وحدوا اتجاههم وعرفوا غايتهم، وخلصوا أنفسهم من كل فوضى، فالإنسان بدون إيمان بخالقه يتيه في الضلال والجهالة، وتتخطفه الغواية، لا يعرف لنفسه قصدا واضحا ولا غاية معينة، ولا يعرف الملاذ الذي يعصمه من العواصف لأنه لا يعرف نقطة التحول والارتكاز، ليتجمع حولها في محاولة الاتفاق على نفسه.

والإيمان باليوم الآخر يوحي بأن على الإنسان أن يؤمن بأن لهذه الحياة الدنيا ساعة تنتهي إليها لتحل محلها حياة أخرى يبعث الله خلالها الخلائق بعثا، وبأن حياة الإنسان على هذه الأرض ليست سدى ولا فوضى، فيتبع الإنسان هواه، دون مبالاة بالمعايير الخلقية، وإنما الحياة الدنيا لها ارتباط وثيق بالحياة الأخرى، وأن الخير ليس هو الشر. وإقامة الصلاة تعود صاحبها كثيرا من المزايا، وتطهر النفس من النقائص، وتؤهل المصلي لمناجاة الله تعالى. وإيتاء الزكاة كضريبة اجتماعية جعلها الله في أموال الأغنياء للفقراء بحكم أنه هو صاحب المال، وهو الذي ملكه للفرد بعقد منه، والتقوى هي امتثال الأوامر اجتناب النواهي، وهي أساس الخير وحائل بين الشر، قال ابن العربي : لم يتكرر لفظ في القرآن مثلما تكرر لفظ (التقوى) اهتماما بشأنها).

تلك الأوصاف هي القاعدة في استحقاق عمارة المساجد، فالعبادة تعبير عن العقائد، فإذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة، وممارسة الشعائر وعمارة المساجد ليست بذات بال، مالم تعمر القلوب بالاعتقاد الإيماني الصحيح، وبالعمل الواقع الصريح، وبالتجرد لله في العمل والعبادة على السواء، ومن ثم قال الله تعالى : ﴿**أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله**﴾.

ومن سماحة الإسلام أنه لم يشترط في قبول الصلاة، كونها في المسجد قال تعالى : ﴿**ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله، إن الله واسع عليم**﴾. وقال ﷺ : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأي ما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل.

ولقائل أن يقول : لماذا بادر ﷺ وهو في هجرته إلى المدينة ببناء مسجد جامع في (قباء) ؟

ثم لماذا بنى مسجده بالمدينة بعد أن دخلها ؟ ثم استمر في بناء المساجد ؟، والحث على بنائها ؟

والجواب أن المسجد عند عدم وجوده لا يعتبر شرطا للعبادة وصحتها، لكن أهميته تبرز متى وجد وتيسر، إذ كان المسجد فوق أنه معبد، مدرسة دينية تعنى بتحفيظ القرآن الكريم ومدارسة قواعد الدين، قال تعالى : ﴿**في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له**

فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ أمر القارئين بأن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا، وثبت أيضا أنه ﷺ قال : وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفت بهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده.

وكان المسجد مدرسة دنيوية تعنى بالتعليم والإرشاد واعداد الشخص وتوجيهه وجهة صالحة : فقد روى أنه ﷺ أمر عبد الله بن سعيد بن العاص - وكان خطاطا - بأن يعلم في المسجد النبوي الكتابة والخط لأبناء المسلمين، وأنه خرج ذات يوم إلى المسجد فرآى مجلسين في أحدهما قوم يدعون الله تعالى ويعبدونه، ويرغبون إليه، وفي الثاني آخرون يعلمون الناس، فقال ﷺ : أما هؤلاء فيسألون الله عز وجل فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيعلمون الناس وإنما بعثت معلما، وأنا منهم ثم عدل إليهم وجلس معهم.

وكما كان المسجد مدرسة للتربية والتعليم. فإنه كان أيضا مؤسسة للاجتماع والتنظيم والقضاء وإصلاح ذات البين، ولكي نتبين مفهوم الواقعية في (الفكر الإسلامي) أرى من الضروري أن ننظر إلى ملكوت الله نظرة فاحصة، وإلى ذات الإنسان الذي يرتبط به كثير من ذلك الملكوت العظيم : فالإنسان يتميز بتركيبه الخاص وحسن تقويمه وقدرته على ممارسة ما يؤهله للحياة الراضية، قال تعالى : **﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا﴾**.

ولا شك أن لهذه الآيات الكريمة، إيحاآت لا تخفى : فالإنسان مخلوق لغاية، ومشدود إلى محور، ومزود بالمعرفة، فمسؤول عنها ومحاسب، وأنه خلق ليبتلى ويجتاز الابتلاء، فهو إذن في فترة ابتلاء وامتحان يقضيها على الأرض، لا في فترة كسل وإهمال.

والنظر في ملكوت الله أهاب بالعلماء إلى اكتشاف ما يحمل على الاندهاش ويدعو إلى العجب، ويطلق اللسان بقول الله الكريم : **﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾** ولقد بلغ من عناية القرآن الكريم بتوجيه الأنظار والعقول إلى الكون أن تجاوزت آياته الكونية عدد سوره، ومن هذه الآيات قوله تعالى : **﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾** في السموات مجرات ونجوم وأشباه النجوم وشهب وكواكب وفيها الملائكة، ولمنافع النجوم وعظم خلقها ودلالتها على قدرة الله العظيمة وحكمته البالغة ورحمته بالناس، أقسم الله بمواقعها فقال تعالى : **﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾**. كما أقسم بالنجم الثاقب، وأقسم بالنجم إذا هوى، وفي هذه الأقسام المتعددة، تنبيه للعقول، وتوجيه للأنظار إلى مواقع النجوم، وهي اما مساقطها وغروبها واما منازلها، فإن كان المراد المعنى الأول، فللدلالة على وجود مؤثر يحركها بقدرته العظيمة وهو ثابت لا يتغير، وذلك هو الله تعالى كما استدل ابراهيم عليه السلام بأن أفول الكوكب وغروبه يجعله لا يصلح للربوبية، لأن من صفات الربوبية وجود مؤثر لا يزول أبدا، وإذا كان المراد بمواقع النجوم هو منازلها ومجاريها، فإن المسافات التي بينها بعيدة جدا يبلغ تباعدها حد الخيال، وكمثال : أن أقرب مجموعات النجوم التي تكون طريق (التبانة) في مجرتنا القريبة منا، يصل إلينا ضوؤها في بضع سنين، وهناك كثير من النجوم في طريق (التبانة) يبعد عنا بمسافات يقطعها الضوء في نحو ألف سنة ضوئية، وليس طريق (التبانة) إلا جزاء صغيرا من القرص العظيم الذي يكون مجرتنا وتنتشر النجوم وتتعدد في الفضاء الواسع الهائل، وتقبل إلينا أضواؤها خافتة لشدة بعدها منا، وتتخللها غازات ملتهبة، كما تتوهج فيها نجوم براقة ونجوم فوق البراقة.

من هنا يتبين سبب أقسام الله بمواقع النجوم، وسبب التنبيه على أن القسم بمواقعها قسم عظيم من الخالق، لا يعقله إلا العالمون، الذين يعلمون مواقع النجوم ويعلمون أن الله قد سخرها للناس ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر،

قال تعالى : ﴿**وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر**﴾.

هذا بالنسبة إلى السماء، أما بالنسبة إلى الأرض، فإن الله يقول : ﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق**﴾ والسير في الأرض يفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة التي لم تألفها العين ولم يملها القلب، وهي لفتة عميقة إلى حقيقة دقيقة، وأن الإنسان ليعيش في المكان الذي ألفه، فلا يكاد ينتبه إلى شيء من مشاهده أو عجائبه حتى إذا سار في الأرض، وتنقل وساح، استيقظ حسه وقلبه إلى كل مشهد وإلى كل مظهر في الأرض الجديدة، مما كان يمر على مثله أو أروع منه، في موطنه دون التفات ولا انتباه، وربما عاد إلى موطنه بحس جديد وروح جديد ليبحث ويسأل ويتأمل، ويعجب بما لم يكن يهتم به قبل تنقلاته، وعادت مشاهد وطنه وعجائبها تنطلق له بعد ما كان غافلا عن حديثها أو كانت لا تفصح له بشيء ولا تناجيه.

ولكيلا يحيلنا القرآن على مصادرنا البشرية المحدودة وحدها، وهي غير كافية ولا وافية، يعرض علينا نموذجا من نماذج هذا الخلق الأول مشفوعا بالأرقام، مقرونا بذكر الأيام لميلاد الأرض وجبالها الراسيات، وما فيها من المعادن والخيرات والأقوات، ثم للسموات السبع الطباق، وهي دخان وغاز وغبار، قال تعالى : ﴿**قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا. ذلك رب العلمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها. قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها. وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم**﴾.

وما هذه الأيام المذكورة الا من أيام الله التي لا يعلم مداها الا الله تعالى، فهي إذن لا تقاس بأيام الأرض، وأقرب ما نستطيع تصوره أن الأيام هي الأزمان التي مرت بها الأرض طورا بعد طور، حتى استقرت وصلبت وأصبحت صالحة للحياة التي نعلمها، وقد قدر العلماء عمر الأرض بنحو ألفي مليون سنة من سنوات أرضنا، إلا أنه مما لا شك فيه أن أيام الله مهما يبلغ طولها ومداها، ليست تحديدا للزمان، فالله تعالى لا يحده زمان ولا مكان، ولكنها عناية بالدراسة المعمقة من حساب وأعداد ومقادير، وما هو في إطار ذلك.

وإشارة القرآن الكريم إلى الأعداد والحساب والمقادير، فتح للمسلمين مسالك البحث والتنقيب، وأعدهم إلى عملية النظرة كيلا يمروا على آيات الله غافلين، كما أعدتهم للمساهمة في بناء حضارة الإنسان، فأنجزوا ما يحتاج تدوينه إلى أسفار، ولعل ما خلفه الفكر الإسلامي من تراث حضاري مجيد في مختلف القطاعات، لمما ساعد إنسان القرن العشرين على قطع أشواط بعيدة في عالم الحضارة والتقدم، ما كان له أن يقطعها لولا عنايته بالرياضيات المشار إليها في القرآن الكريم.

وكما كانت واقعية الإنسان في نفسه مستوحاة من علمية النظرة القرآنية، كانت واقعيته أيضا مستوحاة بدورها من طبيعة هذه النظرة ذاتها، خاصة في مجالات التطبيق بعد التنظير عند تحديد العلاقة بين الإنسان وخالقه، الكبير المتعال، أن هذه العلاقة تقوم باعتبار تعامل الإنسان مع خالقه الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، والذي خلق كل شيء فقدره تقديرا، والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

وهكذا تكون علاقة الإنسان الواقعي بالحقيقة الإلهية، علاقة واقعية إيجابية، تستقطب كل عوامل الحركة والتأثير، والفاعلية المنتجة، في هذه الحياة بتوازن واعتدال، لا يطغى جانب على جانب مصداقا لقوله تعالى : ﴿**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك. ولا تبغ الفساد في الأرض. إن الله لا يحب المفسدين**﴾.

وهكذا هو المنهج الإلهي يحقق التعادل والتناسق في حياة الإنسان ويتيحه السمو الروحي المستمر من خلال

حياته الطبيعية المتعادلة، التي لا حرمان فيها ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة، وفي قوله تعالى : ﴿**وأحسن كما أحسن الله إليك**﴾ تتجلى علاقة الإنسان بمجتمعه وهي علاقة واقعية، لأنها مستمدة من واقعيته ذاته، ومن واقعية شعوره بماله من حقوق طبيعية، ومن واقعية علاقته بخالقه، فالإنسان لا يمكنه أن يعيش معزولا عن الآخرين، لأنه مدني بطبعه : فهو يعيش لأسرته ولقومه ولبني جنسه، الذين هم البشر جميعا، قال ﷺ : «خير الناس أنفعهم للناس».

ولكي يشهد الوسط للإنسان شهادة عملية بواقعيته الإيجابية الفعالة، فإنه لا مناص من أن ينصرف بمجموع طاقاته ليلائم بين حياته الشخصية، وما يتوفر عليه من حركات وتصرفات وسلوك، وفي هذا الإطار بالذات يشعر الإنسان بكرامته المجسمة في تحكمه في هذا الكون المدهش، لإسعاد بني الإنسان جميعا، ويتذكر حينئذ أن الله قد سخر له الكون كله ومنحه القدرة على الانتفاع بما فيه قال تعالى : ﴿**وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه**﴾. فالكل مسخر للإنسان إما مباشرة وإما بموافقة ناموسه لحياة البشر ومصالحهم، وقال تعالى : ﴿**وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره. وسخر لكم الأنهار. وسخر لكم الشمس والقمر دائبين. وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه. وإن تعدوا وإن نعمة الله لا تحصوها، إن الإنسان لظلوم كفار**﴾.

فالله تعالى جعل نواميس هذا الكون ملائمة لفطرة الإنسان وطاقاته، ولو اختلفت فطرته وتركيبه عن نواميس هذا الكون، ما استطاع الحياة على الأرض، فضلا على الانتفاع بها وبما فيها، وقوله تعالى : ﴿**إن الإنسان لظلوم كفار**﴾ يوحي بأن على الإنسان أن يربط هذا الكون بين الإيمان الصادق، وبين الجهاد في الحياة بأشمل معاني الجهاد، قال تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا في الله حق جهاده**﴾. والجهاد الذي انتدب الله له هذه الأمة يشمل جهاد الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ويشمل جهاد النفس وجهاد الشر والفساد بجميع أشكاله وأنواعه وصوره.

وستبقى الأمة الإسلامية حيث بوأها الله ما تمسكت بالمنهج الرباني وطبقته في حياتها الواقعية، حتى إذا زاغت، وتخلت عن مكانتها، ردها الله عن مكان القيادة إلى مكان التابع في ذيل القافلة، ولن تزال كذلك إلى أن تعود إلى الجادة في الواقعية تعبدا وسلوكا وعملا.

الرباط : أحمد الكتاني



لقد نالت السياسة المالية من الشارع الحكيم حظا وافرا من العناية والرعاية، وأولاها العلماء قدرا كبيرا من الإيضاح والبيان، ليكون المسلمون سائرين في معاملاتهم على بينة من أمرهم، وهم يمارسون تبادل المنافع فيما بينهم في هذه الحياة، فلم تكل الشريعة هذا الموضوع الخطير لرأي الناس يصرفون فيه أمورهم كيفما شاءوا، وكيفما تشاؤه لهم أهواؤهم، ولكنها حددت لهم أحكامه ووضحت طريقه ومنهاجه، فأحكمته بالنصوص، وحاطته بسياج من القوانين التي ينبغي أن يسير الناس على هديها، كي لا يظلموا أو يظلموا... وإذ وقفت الشريعة الإسلامية من المال هذا الموقف، فلما له من الأهمية في نظر الإسلام وحياة المسلمين، فعلى المال تتوقف مصالح الناس، وبالمال يدبرون شؤون حياتهم في دنياهم، وبه تنتظم أمورهم، وتقضى حوائجهم، وترعى مصالحهم، وبسببه تكثر النزاعات والخصومات بينهم، ولأهميته وعظيم منفعته وقدره، تولى الله أمره بنفسه، فبين قيمته، وأبرز خطورته، وحث على طلبه، وأوصى بحفظه وعدم تبذيره أو احتكاره، أو الإسراف فيه، أو البخل به، يدلك على هذا الاهتمام وهذه الرعاية، أن الله ذكره في محكم كتابه في تسع وثلاثين سورة، بدءا بسورة البقرة لدى قوله تعالى : ﴿**ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات**﴾[1]، وانتهاء بسورة المسد، عند قوله تعالى : ﴿**ما أغنى عنه ماله وما كسب**﴾[2]، ولقد تكررت كلمة «المال» في كتاب الله ستا وثمانين مرة، كلها بلفظ صريح، إفرادا وجمعا ومصدرا، وإذا أضفنا إليها ما ذكر فيه بما يدل عليه فيما عالج من غنائم الحرب، والترغيب في الإنفاق والحث على التجارة، والنهي عن الربا، والأمر بالزكاة وغير ذلك، اتضح لنا مقدار حرص الشريعة على هذا العنصر الحيوي والخطير، الذي تقوم عليه مصالح الناس جميعا، فإذا علمنا بعد ذلك أن الله أضاف المال إلى نفسه تنويها به وتشريفا له في قوله تعالى : ﴿**وآتوهم من مال الله الذي آتاكم**﴾[3] ازددنا يقينا بمدى حرص الشريعة على الاهتمام بالمال وشأنه، ولهذا لا نعجب إذا رأينا علماء الإسلام يعتبرون المال من الضروريات الخمس، الواجب مراعاتها في كل الأحوال، وعدوه مقصدا من أهم مقاصد الشريعة، لكن، ومع هذا الاهتمام البالغ بالمال، فإن الإسلام ينظر إليه على أنه مجرد وسيلة لا غاية، وأن المال في حد ذاته ليس خيرا بإطلاق، ولا شرا بإطلاق، وإنما هو أداة

1) سورة البقرة آية : 155.
2) سورة المسد آية : 2.
3) سورة النور آية : 3.

خاضعة لمشيئة الإنسان، إن سخره في طريق الخير وسبل النفع، وأدى فيه حق الله وحق العباد فهو خير كله، وإن هو سلك به مسلك الإثم والفساد فهو شر لا خير فيه... وهكذا يجد المتتبع لتعاليم الإسلام، الواردة في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ أن الشريعة الإسلامية تناولت شؤون المال بالتنظيم والتوجيه فبينت طرق كسبه، وتنميته واستثماره، والمحافظة عليه، وكيفية إنفاقه، ففيما يتصل بطرق اكتساب المال، نجد القرآن يأمر بتحصيله عن طريق التجارة والصناعة والزراعة، وهي المصادر الطبيعية لتحصيل الأموال، والأسس القوية التي تقوم عليها كل الحضارات، ويجد القارئ لكتاب الله، إشارات واضحة وصريحة، إلى جمل من الصناعات على اختلاف أنواعها كما يجد فيه الحث على طلب التجارة، وممارسة الزراعة في غيرما آية، ثم جاءت السنة لتؤكد هذا الأمر، وتوضحه وتفصل فيه، وهناك أحاديث تفوق الحصر، جميعها تشيد بأهمية هذه العناصر الثلاثة وترفع من قدرها، وتعلي من شأنها، وتحث الناس على العناية بها، والاهتمام بأمرها ومن ثم ذهب فقهاء الإسلام، إلى أن هذه الأمور الثلاثة هي من فرض الكفاية، بحيث لو تركها كل الناس لأثموا جميعا، إذ كانت مصالح الناس لا تقوم إلا عليها وبها...

على أن الإسلام لا يكتفي فقط بالحث على تحصيل المال، والتأكيد على طلبه، ولكنه يوجه الأنظار إلى تنميته واستثماره، ويرشد إلى المحافظة عليه، وعدم إضاعته في أمور غير مشروعة...

وقد اعتاد فقهاؤنا وهم يتحدثون عن المال أن يعبروا بالأموال أو الخراج بدلا من كلمة الاقتصاد التي أصبحت تشكل المصطلح السائد في عالمنا اليوم، وهكذا رأينا فقهاء الشريعة إذا أرادوا البحث في السياسة المالية استقلالا، بحثوا المال تحت هذين المصطلحين، وسموا مؤلفاتهم بذلك، ولا شك أنهم أثروا في ذلك المصطلح القرآني، كما بحثوه بشكل عام في بعض الأبواب الفقهية، كباب القراض، والمساقاة، والزكاة، والمزارعة، والشركات، والبيوع، والنكاح، والخلع، والنفقة والحضانة، والصرف، والحوالة، والشفعة، والقسمة، والمعاوضة، والإقالة، والسلم والكراء، والإجارة، والجعل، والعارية، والقرض، والعتق، والوصية، والفلس، والغصب والاغتصاب، والإرث، والدماء والحدود.

ولنقصر حديثنا في هذا العرض القصير على القراض من حيث أهميته في ترويج المال واستثماره وتنميته، ودوره في تحقيق التكافل الاجتماعي في المجتمع الإسلامي وسنرى من خلال ذلك كيف أن الإسلام حرص على تطبيق سياسة المال في المجتمع الإسلامي...

لكن قبل ذلك، لابد من تحديد القراض لغة وعرفا، وإقامة الدليل على مشروعيته نقلا وعقلا. فالقراض في أصل اللغة مأخوذ من القرض في الأرض بمعنى قطعها بالسير فيها[4] وقد قارضت فلانا قراضا دفعت إليه مالا ليتجر فيه ومنه حديث الزهري «لا تصلح مقارضة من طعمته الحرام» (يعني القراض)، واشتق القراض من القرض بمعنى القطع، لأن المالك قطع قطعة من مال ليعمل فيه بجزء من الربح، والعامل قطع لرب المال جزءا من الربح الحاصل بسعيه فالمفاعلة على بابها...

وكما يقال له القراض، يقال له المضاربة، لأن القراض والمضاربة بمعنى واحد إلا أن القراض لغة أهل الحجاز، والمضاربة لغة أهل العراق...

إذا ثبت هذا لغة، وهو ما أقره اللغويون، فإن هذه المعاملة تنعقد بلفظ المضاربة والقراض، لأنهما لفظان موضوعان لها، أو بما يؤدي معناها، لأن القصد هو المعنى، فجاز بما دل عليه، كلفظ التمليك في البيع، غير أن المالكية لا يعبرون إلا بالقراض، وغيرهم يعبرون بالقراض تارة، وبالمضاربة تارة أخرى وأما عند الفقهاء : فهو عقد بين اثنين يتضمن أن يدفع أحدهما للآخر مالا يملكه ليتجر فيه بجزء شائع معلوم من الربح، كالنصف أو الثلث أو نحوهما، بشرائط مخصوصة، وهذا المعنى الفقهي يطابق المعنى اللغوي، إلا أنه مقيد بالشروط التي تجعل العقد صحيحا أو فاسدا في نظر الشرع...

---

4) القاموس 593/3 واللسان 217/7.

وللقراض شبه بالمساقاة والمزارعة، لأن هذين الأخيرين عبارة عن عقد بين اثنين تكون الأرض أو الشجر من جانب أحدهما، والعمل من الجانب الآخر، ولكل من الجانبين نصيب مما تحصل من الثمر، وكذلك القراض، فإنه عقد يتضمن أن يكون المال من جانب، والعمل من جانب آخر، ولكل منهما نصيب من الربح، فثلاثتها تشترك في جنس المعقود وهو الربح، يستوي فيها جميعها الشريكان في المغنم والمغرم إن أخذ هذا أخذ ذاك، وإن حرم هذا حرم ذاك، ورب المال يسمى المقارض (بالكسر) والعامل يسمى مقارض (بالفتح) ويقال للعامل في المضاربة مضارب. والأصل في القراض، على ما ذهب إليه كثير من أهل العلم، أنه شرع بالإجماع لا بالنص لكن هناك من يرى جوازه من القرآن والسنة، مستدلا على ذلك بقوله تعالى : **﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾**[5] وبقوله تعالى : **﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾**[6] وبحديث : «ثلاثة فيهن البركة، البيع إلى أجل والمقارضة، وأخلاط البر والشعير للبيت لا للبيع»[7] غير أن الجمهور ينازع في هذه الأدلة ولا يراها صريحة في المعنى المراد، ونحن إذا تخطينا هذه الأدلة وضربنا صفحا عن آراء الفقهاء من حيث دلالتها على المراد أو عدمه، واتجهنا إلى الواقع والممارسة التاريخية، لوجدنا أن القراض كان مشهورا بين العرب في الجاهلية، لا سيما عند القرشين، فإن الأغلب عليهم كانت هي التجارة، وكان أصحاب الأموال يدفعونها إلى العمال ليتاجروا فيها، ورسول الله ﷺ ممن مارسوا هذا النوع من المعاملة، روى ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق أن خديجة بنت خويلد كانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه، بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوما تجارا فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظيم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرا وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة حتى قدم الشام[8]، والمعروف تاريخيا أن العير التي خرج فيها أبو سفيان كان أكثرها مضاربة، فلما جاء الإسلام أقر رسول الله ﷺ هذه المعاملة التي كانت شائعة، كما أن الصحابة كانوا يسافرون بمال غيرهم مقارضة، ولم ينههم عن ذلك رسول الله ﷺ، فقد كان حكيم بن حزام إذا أعطى مالا لشخص مقارضة اشترط عليه أن لا يجعل ماله في كبد رطبة، ولا يحمله في بحر، ولا ينزل به بطن سيل، فإذا فعل شيئا من ذلك كان ضامنا، وكذلك كان العباس عم النبي ﷺ يشترط ذلك في المقارضة، وثبت أنه دفع ما شرط إلى رسول الله ﷺ فأقره، وبإقراره ﷺ لهذا الأمر صار سنة ثابتة، لأن السنة كما نعلم هي أقواله وأفعاله وإقراره[9].

ثم إن الفقهاء ليستدلون لجوازها أيضا بالأثر المروي عن عمر بن الخطاب مع ولديه كما هو ثابت في الموطأ والذي سنذكره بعد قليل، وروى ابن قدامة في المغني[10] أن عمر بن الخطاب أعطى رجلا مال يتيم مضاربة يعمل به في العراق، وكان الإمام أحمد يقيس القراض على المساقاة والمزارعة، لثبوتها بالنص، فيجعلها أصلا يقاس عليه، وإن خالف في ذلك من خالف، وقياس كل منهما على الآخر فإن قيل إن الربح في القراض ليس من عين الأصل، بل الأصل يذهب ويجيء بدله فالمال جعل بنفس العمل بخلاف الثمر والزرع، فإنه من نفس الأصل... قلنا هذا القرض شكلي غير مؤثر، إذ أننا نعلم ضرورة أن المال المستفاد إنما حصل بمجموع منفعة بدن العامل، ومنفعة رأس مال المالك، ولهذا يرد إلى رب المال رأس ماله، ويقتسمان الربح، كما أن العامل يبقى بنفسه التي هي نظير رأس المال، وليس إضافة الربح إلى عمل بدن هذا بأولى من إضافته منفعة مال هذا، وعلى هذا، فالذين قالوا إن القراض والمساقاة والمزارعة على خلاف القياس ظنوا أن هذه العقود من جنس الإجارة لأنها بعوض والإجارة يشترط فيها العلم

5) البقرة 198.

6) المزمل 20.

7) رواه ابن ماجة وابن عساكر وأخرجه السيوطي في الجامع الصغير.

8) سيرة ابن هشام 203/1.

9) انظر فتاوي شيخ الإمام ابن تيمية 195/19.

بـالعـوض والمعـوض، فلمـا رأوا العمـل في هـذا المعنى غير معلوم، والربح فيها غير معلوم، قـالوا إنها تخالف القيـاس، وهـذا القـول فيــه نظر، إذ هــذه العقـود هي من جنس الشركات، لا من جنس المعاوضـات الخاصة التي يشترط فيهـا العلم بـالعـوضين، والمشـاركــات جنس غير جنس المعاوضات وإن كان فيها شبه[12]...

ومن تدبر الأصول، تبين لـه أن المسـاقات والمزارعة والقراض هي أقرب العـدل من الإجـارة، فـإن الإجـارة مخـاطرة، والمسـتـأجر قـد ينتفع وقـد لا ينتفع بخلاف المسـاقات والمزارعة والقراض، فإن الشريكين يشتركـان في الغنم والغرم فليس فيها من المخاطرة من أحد الجانبين ما في المؤاجرة[13].

وهكذا نرى أن القراض أقره الفقهاء اتباعا لما ورد فيه من إقرار الرسول له أولا، ومما جاء فيه عن الصحابة ثـانيـا، وعليه فإن ما ذهب إليه الجمهور من أن القراض ثابت فقط بـالإجمـاع فيـه عنـدي نظر، والصواب أنـه مشروع بـالنص والإجماع كليهما، يقول الحفيد ابن رشد في البداية[14].

«لا خلاف بين المسلمين في جـواز القراض وأنـه ممـا كـان في الجـاهليـة فـأقره الإسـلام» وأول قراض وقـع في الإسـلام هـو قراض عبـد اللـه وعبيـد اللـه ابني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وحاصل ما ورد في ذلك، كما رواه مالك في الموطأ قال «خرج عبد اللـه وعبيـد اللـه ابنـا عمر ابن الخطاب في جيش إلى العراق، فلمـا قفلا مرا على أبي موسى الأشعري وهـو أمير البصرة فرحب بهمـا وسهـل، ثم قال : لو أقدر لكما على انفعكما بـه لفعلت، ثم قـال : بلى هاهنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المومنين فأسلفكماه فتبتاعان به متـاعـا من متـاع العراق ثم تبيعـانـه بـالمدينـة فتؤديـان رأس المـال إلى أمير المومنين ويكـون الربح لكمـا. فقـالا وددنـا ذلـك، ففعـل وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال فلما قدما باعا فـأربحـا فلمـا دفعـا ذلـك إلى عمر قـال أكـل الجيش أسلفـه مثـل مـا أسلفكمـا ؟ قـالا : لا، فقـال عمر بن الخطـاب ابنـا أمير المومنين فـأسلفكمـا، أديـا المـال وربحـه، فـأما عبد اللـه فـكت، وأمـا عبيـد اللـه فقـال : مـا ينبغي لـك يـا أمير المومنين هـذا، لو نقص هـذا المـال أو هلـك لضمنـاه، فقـال عمر : أدياه، فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله، فقال رجل من جلسـاء عمر يـا أمير المـومنين لـو جعلتـه قراضـا، فقـال عمر : قد جعلته قراضا فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحـه، وأخذ عبد الله وعبيد الله ابنـا عمر بن الخطـاب نصف ربح المال[15] وإنما فعل عمر ذلك لأن المضاربة كـانت معروفـة بينهم والعهـد بـالرسول قريب ولم يحـدث في عهـد عمر مـا يمكن أن يغير ما كان على عهد رسول اللـه ﷺ، والقراض يقوم على أركان خمسة هي :

1 ـ رأس المال، ويشترط فيه أن يكون نقـدا معينـا معلوما مسلما.

2 ـ العمـل، ويشترط فيــه أن يكــون تجــارة غير مضيقة بالتعيين والتوقيت.

3 ـ الربح، ويشترط فيــه أن يكــون مخصــوصــا بالعاقدين مشتركا معلوما بالجزئية لا بالتقدير.

4 ـ الصيغـة : بـأن يقـول رب المـال قـارضتـك أو ضاربتك أو عاملتـك على أن الربح بيننـا، فيقـول المقـارض قبلت.

5 ـ العـاقـدان : ويشترط فيهمـا مـا يشترط في الوكيل والموكل[16].

أمـا أحكـام القراض وشرائطـه وفسخـه والتنـازع فيـه، والصحيح منه والفاسد وغيرها من التفصيلات فذاك شيء لا يتسع له هذا الحديث، وهو على كل حال مبسوط في كتب الفروع...

☆ ☆ ☆

10) المغني 26/5.

11) فتاوي ـ ابن تيمية 101/29.

12) المصدر 506/20.

13) المصدر 356/20.

14) بداية المجتهد 195/2.

15) الموطأ 173/2.

16) انظر الوجيز للغزالي 221/2.

والحكمة في مشروعية القراض : هي حاجة الناس إليه، ذلك بأن النقد لا ينمى إلا بالتجارة، وليس كل من يملك يحسن التجارة، ولا كل من يحسن التجارة ليتوافر على المال، لذلك احتاج الناس إلى هذا النوع من المعاملة رفقا لهم، وتيسيرا عليهم، وهي مستثناة من الإجارة المجهولة والغرر، وما استثنيت من الأصل العام إلا لكونها ثبتت فيها مصلحة معتبرة في نظر الشارع، وكل معاملة ثبتت فيها مصلحة فهي معتبرة، ولا شك أن القراض ثبتت فيه المصلحة من حيث إنه الوسيلة المقبولة شرعا لاستثمار الأموال وتنميتها، وتنشيط الحركة التجارية ورواجها بين أفراد الأمة، إذ الفرد في المجتمع لا يستطيع أن يعيش وحده، ولا يستطيع أن يقوم بمفرده بما تحتاج إليه الجماعة، فإن كان مع شخص مال ولكنه عاجز عن تنميته واستثماره، وإلى جانبه شخص لا مال له، وهو قادر على استثمار المال لو وجده، أفلا يكون من الخير لهما في هذه الحالة أن ينتفعا معا هذا بماله، وهذا بعمله ؟...

لا شك في أن الشريعة تبارك هذا التعاون المحمود، وهذا التشارك المفيد، بل الشأن فيها أن ترغب فيه وتحث عليه، لأن نفع هذه المعاملة لا يقتصر على المتقارضين، بل يتعدى النفع إلى بقية أفراد المجتمع...

☆ ☆ ☆

إن النقود هي الوسيلة الكفيلة بإشباع حاجات الإنسان، بل هي ضرورة من ضرورات المجتمع، والإسلام يدعو المسلمين لأن يعملوا على زيادة الإنتاج ليتمع المجتمع الإسلامي بالخيرات التي أنعم الله بها عليهم، وهم مأمورون بالعمل، فإن لم يجدوه تعين على الدولة أن توجده لهم، وعليها نفقتهم حتى تيسر لهم عملا يرتزقون منه، والنظام الإسلامي بحكم قواعده ومنطقه لا يعرف البطالة ولا يقرها، ولا تختفي البطالة إلا حين تنطلق عجلة الإنتاج، وتوجه الأموال الفائضة عن الاستهلاك إلى الاستثمار، بدل اكتنازها وتجميدها، فالإسلام يوصي بتحريك المال ودورانه، واكتنازه تجميد له، وحجب لمنفعته، وذلك شيء يحاربه الإسلام ويمقته أشد المقت

ولقد أوجب الإسلام على المسلم أن يعمل على تنمية ما أنعم الله به عليه من نعم المال حتى لو كان هذا المال وديعة لديه، فقد ثبت أن رسول الله ﷺ أمر الأوصياء أن يروجوا أموال القاصرين حتى لا تاكلها الزكاة، وفي هذا يقول عليه السلام : «اتجروا في أموال اليتامى لا تاكلها الزكاة».

فمن امتنع عن استثمار ماله والحال أن المسلمين في حاجة إلى ثمرة ذلك المال وجب على الحاكم أن يعهد به إلى غيره، ومن البديهي أن المال كلما زادت سرعة تداوله من يد إلى يد كلما زادت فعاليته، وزادت الخدمة التي يؤديها، وحيث إن حاجة الإنسان إلى طلب المعاش لا يكاد يحد، وحيث إن المال هو الوسيلة الوحيدة للحصول على هذه الحاجيات، فإنه بمقدار زيادة النقود وسرعتها وانتقالها بمقدار ما يحصل الناس على إشباع رغباتهم واستجابة طلبهم، فلا بد إذن من أن تظل الأموال في التداول، حتى تتم عملية المبادلة النفعية بين الأفراد، وكل تأخر في سرعة النقد، وكل اكتناز له، معناه تأخر عملية المبادلة، وبالتالي تعطيل الإنتاج وجمود الثروة، وانكماش الاقتصاد، مما يترتب على ذلك تعطيل الدور الذي يقوم به المال.

☆ ☆ ☆

فائدة القراض : إن عقد القراض كان وما يزال وسيظل يعتبر من المعاملات المهمة في ميدان الاستثمار وتنمية الأموال، وإذا كان قد أدى دورا إيجابيا في تحريك الأموال وتنشيط الحركة الاقتصادية، وحقق للمسلم الروجان المادي في العصور المتقدمة، فإن علماء الإسلام اليوم ينتظرون من هذه المعاملة أن تقوم بدور أكثر فاعلية وإيجابية من السابق، ذلك أن رؤوس الأموال التي كانت توضع تحت تصرف المقارضين في القديم كانت ضئيلة الأهمية، محدودة القدر، أما اليوم وقد راجت السيولة النقدية بين الناس، وتوافر لديهم الفائض المالي وبفعل تطور أساليب استغلال الموارد الطبيعية بفضل التقدم الحضاري والتطور التكنولوجي، وظهرت فكرة إنشاء البنوك

الإسلامية، فإن الفقهاء يفكرون اليوم في تطبيق نظام القراض عليها كنظام قانوني إسلامي يحكم العلاقات بين المودعين ورجال الأعمال كما أنهم يتجهون في أبحاثهم إلى تطوير عقد القراض باستبعاد بعض الشروط التي اشترطها الفقهاء القدامى في صحة هذا العقد، إذ لاحظوا أن ما درج عليه الأقدمون من اعتبار هذه الشروط إن هو إلا تضييق على الناس، وتحجير على حرية التصرف في المعاملات، فلا معنى للتقيد بالشرط الذي اشترطوه بأن لا ينعقد القرض إلا على صورة محددة هي مشاركة صاحب المال مع صاحب العمل في تجارة، ولا معنى لأن يمنع الناس من المقارضة في المجال الصناعي، ولا معنى لاشتراط أن يكون العقد خاليا من شرط الأجل، فلا معنى للتقيد بهذه الشروط، بل ينبغي أن تتخلص منها جميعها إذا أردنا لهذه المعاملة أن تقوم بالدور الفاعل الذي ينتظر منها، لأن هذه الشروط التي اشترطها الأقدمون، إن هي إلا اجتهادات فقهية، ولا نص عليها من كتاب ولا من سنة، فإذا كانت تناسب العصر الذي اشترطت فيه واعتبرت لمصلحة في عصرهم فإن مصلحة الناس اليوم تقتضي غير ما شرطوه، والظن بهم أن لو تقدم الزمان بأولئك الفقهاء إلى عصرنا هذا لعلهم كانوا يغيرون رأيهم، لأن هذه الشروط نشأت عن عمل اجتهادي، والقاعدة المقررة : أن الأحكام المبنية على مراعاة الظروف الزمانية وأحوال الناس، تتغير بتغير الأزمان والعادات والأحوال، تطبيقا للقاعدة القائلة «لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان وهكذا يرى الفقهاء المعاصرون أن القراض لا معنى لأن يبقى مقصورا فقط على التجارة، بل ينبغي أن يطبق في عقود أعمال تجارية وزراعية وصناعية وعقارية ومهنية، وأن يكون للشريكين الحق في تقديم المال والعمل، ولا معنى للتقيد بما قاله القدامى من أن القراض كان على عهد رسول الله ﷺ في صورة واحدة فلا ينبغي أن نتوسع فيها، فهذا تحجير لا مبرر له، وتضييق على الناس لا ضرورة له، والشأن في المعاملات أن يتوسع فيها، ويلتمس للناس الرخص في شأنها، إذ الأصل في الأشياء الإباحة لا التجريح، فكل وجوه الاستثمار مباحة ما دام لم يرد فيها نص يحرم.

☆ ☆ ☆

إن نظام القراض يعتبر في عصرنا الحالي من أهم الوسائل التي ينبغي أن تتجه إليها المؤسسات المالية وأموال الخواص الفائضة لاستثمار ما لديها من أموال وهو الحل الإسلامي الصحيح الذي ينبغي للمسلمين أن يحتكموا إليه، ويسيروا في معاملاتهم على وفقه، بدل الاحتكام إلى نظام الربا المطبق في العالم الإسلامي، وهو أمر مجمع على تحريمه كتابا وسنة بجميع صوره وأشكاله، فلا معنى لأن نترك المعاملة المشروعة التي أقرها رسول الله ﷺ وأجمع عليها السلف الصالح من هذه الأمة، ونركب الطرق المحرمة، وإذا كنا لا نطمع في أن تتكرم الدول الإسلامية على الأفراد بأن تقرضهم القرض الحسن كما أمر الله، فلا أقل من أن تمنحهم المال قراضا يعود بالنفع عليها وعليهم إنه لأمر مؤسف أن نرى التعامل الربوي طبق عالم الإسلام اليوم، ولا يخجل المسؤولون عن اقتصادياته من المناداة بأنه الحل الوحيد للرواج الاقتصادي وتحقيق التنمية الاقتصادية، وكأني بهؤلاء يومنون بأن لا علاقة بين المال والدين ويعتقدون بأن المال شيء والدين شيء آخر، والإسلام يرفض هذه الثنائية، إنه لمن الخطأ أن ننظر إلى الإسلام هذه النظرة، فالإسلام وحدة متكاملة لا يقبل التجزئ، يجب على المسلمين أن يلتزموا بالمفهوم العام للحياة كما ينتظمها المذهب الإسلامي، وكل تعامل خارج هذا النطاق لا يقره الإسلام مهما حاول المتعلقون بالماديات أن يوجدوا المبررات والأسباب لتحليل ما حرمه الله، فالاقتصاد الإسلامي جزء من العقيدة لا يقبل الانفصال عنها، هذا ما نومن به، ويومن به كل مسلم مشفق على دينه، يهمه أن تسير أمور المسلمين في هذه الحياة وفق النظام الرباني الذي ارتضاه الله لهم شرعة ومنهاجا والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الرباط : عمر الجيدي

الزّحف الحضاريّ الإسلامي

للدكتور محمد كمال شبانة

كانت سياسة العالم عند نشأة الدولة الإسلامية موزعة بين دولتين كبيرتين، ملكتا مصير العالم، وتحكمتا في شؤونه، إحداهما دولة الروم صاحبة النفوذ في أوربا الجنوبية، وفي جزء كبير من الشرق الأدنى وشمال إفريقية. هذه الدولة كانت قد حطمتها الحروب والمصادمات مع دولة الفرس، وهي ثانية الدولتين، وكان له نفوذ كبير في آسيا، وكانت بدورها تشهد نهايتها. وكانت أوربا في ذلك الوقت أسوأ حالاً من دولتي الفرس والروم؛ لأنها كانت فريسة لقبائل من الهمج الذين كانت أمورهم فوضى، وكان الأوربيون يعانون من الانقسامات التي نشرت الدمار في كل مكان، ولم يكترثوا بشيء من المبادئ القومية، ويقال: إن الوطنية أو الدين أو الاستقلال أو الأمة أو غير ذلك من المثل العليا التي تحرص عليها الشعوب المتمدنة لم تكن ذات معنى ثابت في أذهانهم، وربما كانت خيالاً بعيد التحقيق.

وفي الوقت الذي أبدع فيه الإسلام كثيراً من المثل العليا التي اهتدى بها الشعب العربي كانت الأمم ذات الحضارة السالفة قد فقدت مثلها العليا، فلم يبق لحب الوطن أو للأمجاد الدينية أثر في نفوس أبنائها الذين غلبت عليهم مصالحهم الذاتية، وشغلتهم عن كل شيء.

لم يلبث الإسلام أن منح العرب مصالح مشتركة، وآمالاً متماثلة، ووجه جهودهم نحو هدف واحد، مما أدى إلى تجانسهم الروحي في وقت كانت أركان العالم فيه متداعية، وفوق ذلك كانت أمة العرب تتمتع بصفات حربية ممتازة، ولم ينقصها ما يحتاجه الفاتحون من الشجاعة وحب القتال، فقد خبروا ذلك منذ كانوا يمارسون الحروب القبلية، ثم ازدادوا بالإسلام حبا في الشهادة، أملاً في الجنة التي وعدوا بها.

قوبل الدين الإسلامي في انتشاره بالكثير من ضروب المقاومة والتعويق، شأن أي مبادئ جديدة تقدمية تعمل على أن تحل محل تقاليد متوارثة ومثل بالية، وقد كتب للدين الإسلامي أن يخرج من كل معارك المقاومة والتعويق منتصراً، ولم يكن الدين الإسلامي في انتصاره مدينا للزحف البشري المدعم بالقوة الحربية - كما ذهب إليه بعض الدارسين - بل إن الباحث المنصف يرى أن المثل العالية والمبادئ الإنسانية الرفيعة - التي نادى بها الإسلام، وعمل على تطبيقها في المجتمعات التي افتتحها - كانت هي العوامل الحاسمة التي حققت الانتصار.

انتشر الإسلام وبسط سيادته على مناطق شاسعة بالدعوة، وبالدعوة وحدها اعتنقت الشعوب - التي قهرت

1) راجع في هذا بالتفصيل «تاريخ الحضارة والفكر الإسلامي» للدكتور أبو زيد شلبي (ط 2. القاهرة).

العرب كالأتراك والمغول ـ الإسلام، وبالدعوة انتشر الإسلام في الهند وغيرها من الأقطار التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل، وبالدعوة ما انفك عدد المسلمين يزيد يوما بعد يوم.

حينما اتصل العرب ـ منذ الوقائع الأولى ـ بسكان البلاد المجاورة وجدوهم على استعداد لتقبلهم؛ لأنهم كانوا يأملون فيهم العدل، ثم إن قادة المسلمين أحجموا تماماً عن حمل أي فرد بالقوة على الإسلام، ولكن جعلوا حسن السياسة رائداً لهم، وابتعدوا عن الالتجاء إلى السيف، وأعلنوا احترامهم لديانات الشعوب وعاداتهم، مكتفين في مقابل حماية هذه الشعوب بضريبة مالية لاتقارن في بساطتها بالضرائب التي كانت تدفع للسادة السابقين، والتزم العرب بالشروط التي عقدوها مع المغوليين، وتمكنوا بحسن سياستهم من حمل الكثيرين على اعتناق الإسلام عن عقيدة واقتناع، وتعلم لغة الدين الجديد.

ظل نفوذ العرب الديني واللغوي ثابتاً في البلاد التي افتتحوها حتى بعد أن نزعت سيادتهم السياسية منها، ورسخ النفوذ الديني بخاصة في الأقطار التي فتحوها رسوخاً لم يستطع فاتح أن يزعزعه.

الحضارة العربية والإسلام

تعني الحضارة عموماً تقصي مظاهرها المادية والمعنوية، تلك المظاهر التي يتألف من مجموعها تاريخ الأمة، ومدى ما بلغته حضارياً باعتبار مستوى الأمم الأخرى المعاصرة، ولن يكون بلوغها هذا المستوى فجأة أو قفزة واحدة، وإنما تبلغ ذلك على مدى الأجيال التي تتوالى، ويتكفل كل جيل منها بما تفرضه ضرورات الحياة نحو مستقبل أفضل، وعليه فالحضارة سلسلة متصلة الحلقات، كل منها ثمرة لسابقتها، وهذا مانلحظه جليا في حضارة الأمة العربية منذ القدم، حتى جاء الإسلام فكان نقطة ارتكاز لتطور حضاري جديد، وذا تأثير على جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعلى سبيل المثال ـ لا الحصر طبعاً ـ هذه الجوانب.

نرى الإسلام من الوجهة السياسية قد دعا إلى حرية الرأي والشورى، وحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ومن **الوجهة الاجتماعية** نراه قد حارب التعصب للجنس أو العقيدة، ونادى بالمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات، وبحرية العقيدة في ظل القانون، كما حارب استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، وبالنسبة لقسيم المجتمع وهو المرأة نراه يضعها حيث أهلتها الطبيعة، موصياً بشأنها أيما إيصاء، منظماً للعلاقة بينها وبين الرجل. ومن **الوجهة الاقتصادية** نرى الإسلام يحترم الملكيات العامة لصالح المجموع، ولم يفته أن ينبه على الالتزامات الواجبة على الإنسان نحو فئات معينة في المجتمع، كما وضع نظاماً محدداً ودقيقاً للميراث، موضحاً كافة مستحقيه.. إلى غير ذلك.

وهكذا نلمس بوضوح وجلاء أن مثل هذه القوانين وتلك المبادئ قد صاغت الأمة العربية في تقويم ما بعده تقويم، وأهلتها لدور حضاري عشنا على تراثه، واستقى من نبعه غير العرب كما سنرى في هذا العرض. لكن لامناص من القول أن بعض هذه المبادئ قد كان لدى العرب، تبعا لما قررناه من نظرية التطور الحضاري قبل الإسلام في صورة اتجاهات أو تقاليد، فإن نسبناها إلى الإسلام فإنما لأنها ـ أي هذه المبادئ ـ قد اكتسبت في هذا الدين طابعاً خاصاً، وتميزت بروح جديدة.

قلنا إن العالم آنئذ كانت تتنازعه دولتان لهما حجمهما ووزنهما، تتحكمان في شؤونه، أولاهما : دولة الفرس ذات النفوذ العظيم في آسيا، وذات النزاع الطويل المدى مع دولة الروم وهي الدولة الأخرى، التي بسطت نفوذها في أوربا الجنوبية، وفي مساحة عظيمة من الشرق الأدنى والشمال الإفريقي، وكلا الدولتين كانت تسودهما علاقات سيئة للغاية، بحيث قد نالت الحروب الطاحنة من كليهما بفعل الاحتكاكات المباشرة. ولم تكن أوربا عامة حينئذ بأحسن حالاً، إذ كانت تعاني من عوامل انتشار الفوضى والانقسامات المذهبية ففقدت تلك الأمم مثلها العليا، وسادت بينهما المبادئ الذاتية والأنانية.

في الوقت الذي منح الإسلام فيه أهله المثل العليا، والأهداف السامية، تجانس روح وحب أوطان ووحدة كفاح، وقد نمى كل هذا لدى العرب استعداد فطرى لما تنشده النفس البشرية نحو سعادتها في الدارين، مروءة وشجاعة، وفروسية بلورها الإسلام، فأضحت حبا في أن ينال أصحابها شرف الشهادة، أملاً في جنات عدن، «وعد الله، لايخلف الله وعده».

ولم تكن الطريق أمام الدعوة الإسلامية مفروشة بالورود والرياحين، شأن أي دعوة تقدمية في مثل تلك الظروف العالمية، والتقاليد البالية المتوارثة، وهكذا كان لابد للإسلام من معوقات ومصادامات، ومع هذا فقد عقد الله للوائه النصر المبين. وغنى عن البيان أن ديناً يبشر بمثل هذه المبادئ الرفيعة السامية لصالح البشرية جمعاء ـ لجدير به أن يحقق الانتصار المنشود على المدى البعيد، لاسيما وأن تطبيقه لتلك المبادئ بين المجتمعات التي فتحها كان رائده الأول، ومن هذا المنطلق نستنتج ضعف بل بطلان نظرية بعض المستشرقين، تلك التي تقول : إن الدين الإسلامي مدين لانتصاراته بالزحف البشري المدعم بقوة السلاح.

لقد أدى الرسول ﷺ دوره كمؤسس للدولة الإسلامية في الجزيرة العربية. وكانت الوحدة السياسية بين ربوع الجزيرة نتيجة حتمية للوحدة الدينية التي غرس الرسول بذورها فأنبتها الله نباتاً حسناً، وتعهدها الخلفاء الراشدون بما أوتوا من حكمة الرأي، ورباطة الجأش والقدوة المثلى، بحيث لم تبزغ شمس القرن السابع الميلادي إلا وقد نشأت في العالم دولة عظيمة لأول مرة في التاريخ، حاملة لواء حضارة إنسانية فريدة، وأقبل البشر يدخلون في دين الله أفواجاً، واتسعت رقعة الأمبراطورية الإسلامية فشملت بقاعاً فسيحة الأرجاء، مترامية الأطراف، تجمعها وحدة الدين واللغة والهدف، وفي ظل هذه الوحدة خفق لواء الحضارة العربية في طول البلاد وعرض الأقطار ما يقرب من تسعة قرون، كان العرب والمستعربون خلالها يبذلون قصارى جهدهم في سبيل إسعاد الإنسانية قاطبة.

فخلال القرن الأول... استطاع الخلفاء الراشدون فتح أقاليم فارس وسوريا والعراق ومصر، وشارفت جيوش الخليفة عثمان أقاليم الهند، ثم جاء معاوية مؤسس دولة بني أمية واتخذ من دمشق عاصمة، ومن هذه البقعة بالشام زحفت جيوشه إلى إفريقيا الشمالية، وتمكن بأسطوله من الاستيلاء على عدد من جزر البحر المتوسط، وتبعه خلفاؤه من بعده لتصل جيوشهم حدود الصين، كما تم لهم فتح إسبانيا، التي ظلت دولة الإسلام بها نحواً من ثمانية قرون، كما توغلوا في جنوبي فرنسا، ولم يثنهم عن متابعة الفتوح في أوربا إلا نداء الخليفة في دمشق بإيقاف الزحف، لسبب أو لآخر...

ويأتي القرن الثاني... لنجد العرب قد صرفوا هممهم إلى تنظيم وتنسيق الدولة، وأضحت بغداد عاصمة الخلافة العباسية التي أنشأها الخليفة المنصور عام 762م، وفي هذه الفترة بلغت الفتوحات أوجها، ولا سيما بعد أن فتح المسلمون شطراً لابأس به من آسيا، واتجهت الجهود العباسية وخاصة في العصر الأول ـ إلى الارتقاء بمركز العرب الحضاري، وهكذا نرى العلوم والفنون والآداب وقد ازدهرت أيما ازدهار في عصري الرشيد والمأمون، ثم ما لبثت بعدهما روابط الأمة الإسلامية تنحل عراها، وتجلى هذا في استقلال الأقطار الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، وإن ظلت الحضارة العربية في مسيرتها، وتنافست الشعوب الإسلامية في سبيل ازدهارها.

ويأتي القرن الثالث... ليشهد تطورات هامة، لعل أبرزها أن الخضوع المفروض للسلطة المركزية في المدينة أو دمشق أو بغداد قد أصابه انسلاخ عن هذه المركزية، وأضحى العمال يستولون على السلطة، ومن ثم يستقلون بالأقاليم التي يهيمنون عليها. فمن هذه الظواهر قيام الدولة الأموية الجديدة في الأندلس (أوائل العقد الخامس من القرن الثاني الهجري / منتصف الثامن الميلادي). وماتلا ذلك شمال الجزيرة، من ظهور الحسن بن زيد على الشاطئ الجنوبي لبحر قزوين، وتأسيسه دولة علوية هناك، وفي الجنوب كانت حركة الدعى العلوى صاحب الزنج، الذي

قاد حركة قوامها طبقة العبيد الكادحين، فكانت ثورة مدمرة، ظهرت بادئ ذي بدء بالبصرة، وسرعان ما استولت على البلاد المجاورة. أما في مصر فقد استقل أحمد بن طولون بحكمها، بعد صراع عنيف مع الخليفة الموفق بالله العباسي، ويكاد يكون القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)... امتدادا للانقسامات التي أصابت العالم الإسلامي، بحيث فقدت بغداد مركزها القيادي، وتلقفت الراية القاهرة لتكون قاعدة الإسلام، ومنطلقا له. وفي ثنايا القرن الخامس (الحادي عشر الميلادي) يأتي الأتراك السلاجقة لينتزعوا السلطة من خلفاء بني العباس، وتدور رحى الحرب الصليبية، فتتضاعف المحن على الشرق الإسلامي خاصة، ويتقلص جسم الإسلام في بعض مناطقه، لاسيما في صقلية والأندلس.

وخلال القرنين السادس والسابع (الثاني عشر والثالث عشر الميلادي)... يتمكن المسلمون من طرد الصليبيين بعد صراع مرير، ولكن سرعان ماداهم المسلمين خطر المغول، بعد أن استولوا على بغداد (عام 656 هـ/1258م) وبذا سقطت الخلافة العباسية، بعد أن عمرت نحوا من خمسة قرون.

وفي القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي)... يدخل المغول في صراع عنيف للاستئثار بالسلطة في المشرق العربي، ويتميز القرن التاسع (الخامس عشر الميلادي)، بانحسار دولة الإسلام عن الأندلس، بعد أن عمرت به نحو ثمانية قرون، وذلك بسقوط غرناطة بالتسليم في يد الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا (2 يناير 1492م).

هذا، وينبغي ألا يغرب عن أفكارنا أن هذه الحركات الاستقلالية في العالم الإسلامي، وتلك التطورات السياسية في هذا القطر أو ذاك، إنما هي على المدى البعيد تعبير جَلِيّ عن الأحاسيس القومية والإقليمية؛ فمن المعلوم أن الإسلام انتشر انتشاراً قوياً وسريعاً على مسافات جد فسيحة واسعة، وبسط سلطانه بمبادئه على أقوام ذوي عراقة حضارية مشهورة كالفرس والمصريين، فوجد هؤلاء وأولئك في قومياتهم - إبان خضوعها للسلطة المركزية في دمشق ثم في بغداد - متنفسا في الحركات الاستقلالية التي تهت في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وما تلاه، ومن الإنصاف القول هنا بأن هذه الحركات كانت خيراً وبركة من الوجهة الحضارية لا أكثر؛ فقد أضرمت نيران التنافس بين البيئات الإسلامية فكراً وإنتاجاً في شتى ألوان المعرفة، ذلك التنافس الذي بشر بالنهضة العربية الشاملة عندما بلغت الدولة أوجها في هذا المجال الإنساني، ولا أدل على ذلك من تلك الحضارة التي ظلت ماثلة للعيان، ومرتعا خصباً للدراسات العالمية.

القاهرة - د. محمد كمال شبانة

المولى إدريس الأزهر شاعرا

الحركة الأدبية أيام الأدارسة

للأستاذ محمد الفاسي

إن كتب التاريخ المتداولة لا تتعرض للحياة الأدبية بالمغرب في القرون الأولى بعد الفتح الإسلامي ولولا أن كاتبا أندلسيا حافظ لنا على أسماء بعض الشعراء من المغرب الأقصى في العصور الأولى مع بعض مقطعاتهم لكنا مضطرين لمسايرة من يعتقدون أن المغرب لم يشاطر في الحركة الأدبية العربية مدة هذه العصور وهذا الكاتب هو أبو عبيد البكري الجغرافي الأندلسي الكبير مؤلف كتاب المسالك والممالك.[1]

وإن من ينظر بإمعان في كتاب المسالك والممالك للبكري وقد ألف في عصر قريب من القرون التي نبحث فيها الآن يظهر له المغرب خصوصا في قسمه الشمالي في مظهر لم تعودنا إياه كتب التاريخ الأخرى من استفحال العمران وكثرة المدائن وانتشار الأدب فيها. وإن العجب ليستولي على المرء عندما يرى أن مؤرخينا وإن كانوا نقلوا بكثرة عن كتاب المسالك والممالك فإنهم أغفلوا نقل أسماء الشعراء الذين ورد ذكرهم عند البكري كما أهملوا نقل المقطعات الشعرية التي أوردها لهم.

وقبل التعرض لهؤلاء الشعراء يتعين علينا أن نتكلم على أول شاعر عرفه المغرب وهو المولى إدريس الثاني رضي الله عنه وإنه ليس من الصدف أن يكون أول مغربي قال شعرا عربيا هو المولى إدريس الثاني وإنما ذلك نتيجة ابتداء انتشار العربية وآدابها بين المغاربة بمجرد الفتح الإسلامي إذ لولا ذلك لما أمكن للمولى إدريس الثاني الذي ولد بالمغرب من أم مغربية بربرية في وسط البرابرة أن يثقف تثقيفا عربيا كاملا يمكنه من قرض الشعر ومخاطبة أحد الأمراء البرابرة بالشعر. وقصة هذه الأبيات الشهيرة التي يوردها كل المؤرخين أن إبراهيم بن الأغلب عامل هارون الرشيد على إفريقية كان يناهض الدولة الإدريسية الفتية ويسعى في إثارة الفتن ضدها وكان من جملة الأمراء البرابرة الذين حاول ابن الأغلب استمالتهم

1) ولد البكري سنة 432 هـ «1040م». وشب بقرطبة ثمّ استوطن المرية عند أميرها محمد بن معن وتوفي سنة 487 هـ. «1094م» وله مؤلفات أثنى عليها مترجموه وقد ضاع جلها إلا أن أهمها على ما يظهر وهو كتاب المسالك والممالك لا تزال جل أجزائه موجودة وطبع بعضها من ذلك الجزء المتعلق بإفريقيا الشمالية والسودان، وقد نشره دي سلان بباريس سنة 1852 - وموضوع المسالك والممالك وصف ما كان معروفا من العالم عند المسلمين على عهد مولفه. ومما يجدر التنبيه إليه أن البكري لم يغادر قط جزيرة الأندلس ورغم ذلك فإن كتابه من أصدق المصادر وذلك أنه اعتمد في تأليفه على وثائق مهمة وفي ما يرجع للمغرب يظهر أنه استعمل التقارير التي كان يوجهها للمنصور بن أبي عامر أعوانه وعيونه الذين كانوا منبثين بنواحي المغرب، وقد أطلع عليها بقرطبة حيث قضى أيام شبابه والسنين العشر الأخيرة من حياته. وقد اعتمد كتاب المسالك والممالك كل من جاء بعد البكري وإن كان كثير من المؤرخين لايذكرونه.

بهلول بن عبد الواحد المدغري، فقد استهواه بالمال فمال إليه وبايع الرشيد. فلما بلغ ذلك مولانا إدريس رضي الله عنه كتب له هذه الأبيات : قال ابن الأبار في كتابه القيم الحلة السّيَراء فيمن قال الشعر من الأمراء ومن شعر إدريس بن إدريس يخاطب البهلول بن عبد الواحد المدغري ذاهبا إلى مراجعة طاعته ومحذرا مكر إبراهيم بن الاغلب وهو الذي كان أفسده عليه حتى قاتله البهلول :

أبهلول قد جشمت نفسك خطة
تبدّلت فيها ضلة برشاد
أضلك إبراهيم من بعد داره
فأصبحت منقادا بغير قياد
كأنك لم تسمع بمكر ابن أغلب
وما قد رمى بالكيد كل بلاد
ومن دون ما منتك نفسك خاليا
ومناك إبراهيم خرط قتاد

وقال أيضاً ابن الأبار بعد هذا :

وكتب (أي المولى إدريس بن إدريس رضي الله عنهما) إلى إبراهيم ابن الأغلب يدعوه إلى طاعته أو الكف عن ناحيته ويذكره قرابته من رسول الله ﷺ وفي أسفل كتابه :

أذكر إبراهيم حق محمد
وعترته والحق خير مقول
وأدعوه للأمر الذي فيه رشده
وما هو لولا رأيه بجهول
فإن آثر الدنيا فإن أمامه
زلازل يوم للعقاب طويل

وأورد له أيضا هذه الأبيات مقدما لها بقوله : وله يتشوق لأهل بيته :

لو مال صبري بصبر الناس كلهم
لضل في روعتي أو ضل في جزعي
وما أريع إلى يأس ليسليني
إلا تحول بي يأس إلى طمع
وكيف يصبر مطوي هضائمه.[2]
على وساوس همٌّ غير منقطع
إذا الهموم توافت بعد هجعته
كرّت عليه بكأس مرّة الجُرع
بان الأحبّة واستبدلت بعدهم
هما مقيما وشملا غير مجتمع
كأنني حين يُجري الهم ذكرهم
على ضميري مخبول من الفزع
تأوى همومي إذا حركت ذكرهم
إلى جوانح جسم دائم الولع

وهذه القطع الثلاث تدل دلالة واضحة على أنها ليست شعر من لم يعان النظم إلا في ظروف قليلة بل عليها طابع الإحسان والإجادة فأولاها تعبير عن النفس العالية وعن الشهامة العربية القرشية فإنه يتجلى في قوله للبهلول :

ومن دون مامنتك نفسك خاليا
ومناك إبراهيم خرط قتاد

☆ ☆ ☆

تلك الشجاعة التي عرف بها المولى إدريس الثاني والتي ساعدته على تدويخ أكثر أقطار المغربين الأوسط والأقصى حتى دانت له جميعها وثبت فيها دعائم الإسلام والعروبة، وفي القطعة الثانية تظهر عبقريته السياسية إذ يحاول أخذ ابن الأغلب بالتي هي أحسن وذلك بوعظه وتنبيهه إلى حق النبي عليه السلام وعترته الكريمة ويحذره عواقب الإساءة إليهم فيقول :

فإن آثر الدنيا فإن أمامه
زلازل يوم للعقاب طويل

2) الهضائم جمع هضيمة، أي البطن الخميص الضامر.

وأما القطعة الثالثة فهي آية في وصف العواطف الدفينة عواطف الشوق إلى الأحبة وما ينتج في النفس من هم بعد فراقهم.

وكأن المؤرخين المغاربة تعمدوا تناسي كل هذه الأبيات ما عدى التي خاطب بها بهلولاً ليعلمونا أنهم سيعاملون بالإهمال كل أثر أدبي مغربي.

وينسب أيضاً للمولى إدريس بيتان وقد نسبهما له البكري وغيرها وهما :

أليس أبونا هاشم شد أزره
وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب

فلسنا نمل الحرب حتى تملنا
ولا نتشكى ما يؤول إلى النصب

وزاد ابن القاضي في جذوة الاقتباس بيتا ثالثا وهو :

ولكننا أهل الحقائق والنهى
إذا طار أرواح الكماة من الرعب

إنه يقال أيضاً إنما تمثل بهما وليسا له.

وقد وردت هذه الأبيات في كتاب الاكتفا لأبي الربيع الكلاعي منسوبة المتوفى سنة 634.

ونسبهما ابن الأبار في الحلة السّيَراء للمولى إدريس الأول ابن عبد الله رضي الله عنه.

وللمولى إدريس الثاني أيضاً خطب حافظ لنا المؤرخون على اثنتين منها أولاهما الخطبة التي ألقاها بعد مبايعته وقد أوردها صاحب الجذوة قال : «ولما بويع صعد المنبر وخطب الناس في ذلك اليوم فقال : الحمد لله أحمده وأستغفره وأستعين به وأتوكل عليه وأعوذ به من شر نفسي من شر كل ذي شر وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلى الثقلين بشيراً ونذيرا وسراجا منيرا ﷺ وعلى أهل بيته الطاهرين الذين أذهب عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً - أيها الناس إنا قد ولينا - هذا الأمر الذي يضاعف فيه للمحسنين الأجر وللمسيئين الوزر ونحن والحمد لله على طريق قصد فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا فإن الذي تطلبونه من الحق إنما تجدونه عندنا ثم دعا الناس إلى بيعته وحضهم على التمسك بطاعته فعجب الناس من فصاحته وبيانه وقوة جأشه على صغر سنه».

وخطبته الثانية لم يبق منها إلا ختامها وهي خطبة ألقاها يوم جمعة بعد الانتهاء من بناء سور فاس قال صاحب الأنيس المطرب بروض القرطاس : «وذكر ابن غالب في تاريخه أن الإمام إدريس رضي الله عنه لما فرغ من بناء المدينة وحضرت الجمعة صعد المنبر وخطب الناس ثم رفع يده في آخر خطبته فقال :

«اللهم إنك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة وإنما أردت ببنائها أن تعبد بها ويتلى بها كتابك وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك ﷺ ما بقيت الدنيا اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأعنهم عليه واكفهم مؤونة أعدائهم وأدرّ عليهم الأرزاق وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق والنفاق إنك على كل شيء قدير» فأمن الناس على دعائه.

وحافظ المؤرخون لنا أيضا على دعاء قصير دعا به الله عند ابتداء العمل في حفر أساس المدينة قال كما نقله صاحب الجذوة : «اللهم اجعلها دار علم وفقه يتلى فيها كتابك وتقام بها حدودك واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتهم ثم قال :

«بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» ثم أخذ المِعْوَل بيده وابتدأ بحفر الأساس وتبعه الفعلة في ذلك».

☆ ☆ ☆

هذه النماذج من شعر المولى إدريس الثاني ونثره تدل على أن بذور الثقافة العربية التي بذرت في أول الفتح الإسلامي وبعده قد أنبتت نباتا حسنا وأتت أكلها طيبا وإن لم يصلنا منه إلا هذا النزر اليسير ومما يؤيد هذا النظر أن الأمير المغربي البربري بهلولا المدغري المذكور آنفا كان يقول الشعر أيضا فقد قال عنه ابن الأبار في الحلة السيراء ما يلي : كان رئيسا في قومه وهو قام بأمر ادريس بن ادريس الحسني صاحب المغرب ثم تغير عليه وفارقه

ورجع إلى ابراهيم بن الأغلب عند ظهوره على إفريقية وذلك بتطلف إبراهيم في إفساد ما بينه وبين ادريس فجرت بينهما مكاتبات كان في بعضها مما كتبه البهلول إلى إبراهيم :

لئن كنت تدعوني إلى الحق ناصحا
لتكشف عن قلبي ضير خلاف

لقدما أتانا عنك أنك ناصح
لمن نال بالصلح الخلافة كافي

وأنك محمود النقائب عندهم
تزين ما تاتي لهم بعفاف

فعجل علي رد رأيي فإنني
أردّ الهوى للحق حين يوافي

☆ ☆ ☆

فإذا كان البرابرة الأقحاح بلغ من استعرابهم أيام المولى إدريس أن قرضوا الشعر فبالأحرى من كان من المغاربة له اتصال متين بالعرب كما كان منهم أحد أبويه عربيا.

ثم إن الجيل الذي جاء بعد المولى إدريس الثاني كان فيه شعراء ذكر منهم ابن الأبار في حلته الأمير القاسم ابن إدريس.

وكان القاسم واليا على البصرة وطنجة وما والاهما نيابة عن أخيه الأمير محمد وقد كان قسم المملكة المغربية بين إخوانه اتباعا لإشارة جدته السيدة كنزة. فلما ثار عليه أخوه عيسى صاحب شالة وتامسنة (الشاوية الحالية) أمر أخاه القاسم هذا أن يتوجه إليه ليقمع ثورته فامتنع فأمر أخاه الأمير عمر بن إدريس صاحب غمارة بذلك فتوجه إلى عيسى فهزمه ثم قصد القاسم الذي عصى أمر أخيه صاحب فاس فهزمه أيضاً وتغلب على ما كان بيده فتزهد إذاك القاسم وبنى مسجدا على شاطئ البحر بأصيلا واعتكف به.

وقد ذكر ابن الأبار في الحلة السيراء أنه لما أمره أخوه بالتوجه إلى عيسى «أبى وكتب إليه معتذرا من توقفه عما أمره به قائلا :

واترك عيسى على رأيه
يعالج في الغرب هما وكربا

ولو كان قلبي على قلبه
لكنت له في القرابة قلبا

وإن أحدث الدهر من ريبة
شقاقا علينا وأحدث حربا

فإني أرى البعد سترا لنا
يجدد شوقا لدينا وحبا

ولم نجن قطعا لأرحامنا
نلاقي به آخر الدهر عتبا

وتبقى العداوة في عقبنا
وأكرم به حين نعقب عقبا

وأوفق من ذاك جوب الفلا
ة وقطع المخارم نقبا فنقبا

☆ ☆ ☆

ولم يحفظ لنا التاريخ من آثار الأمير القاسم إلا هذه الأبيات ولا يعقل أن تكون هي كل ما قاله من الشعر. وإنما قد ضاع شعره كما ضاع شعر والده ومن قال الشعر من إخوته ومن أدباء هذه الدولة الإدريسية.

☆ ☆ ☆

أما الشعراء الذين ذكرهم البكري في كتابه المسالك والممالك فأقدمهم هو محمد بن السهري. وإننا لانعرف عنه إلا ما ورد في هذا الكتاب. وهو أنه كان معاصرا للأمير

القاسم ابن إدريس وعليه فقد كان حيا في أوائل القرن الثالث الهجري وقد أورد له البكري ثلاثة أبيات في هجاء الأمير القاسم بن إدريس.

وينبغي هنا أن ننبه أننا حينما نؤرخ للاداب لاتعنينا أحوال الشعراء والأدباء المذهبية أو السياسية ولا تهمنا اعتقاداتهم ومشاربهم.

وإنما الذي يهمنا هو أن نستنتج من هو هذا الشاعر وأين كان يقطن. فيظهر لأول وهلة أنه كان بفاس بدليل هجائه للقاسم الذي لم يطع أمر أخيه صاحب فاس وبدليل أنه يقول له عش بطنجة فلا نحسدك عليها أي لأننا في مدينة أجمل وأعظم وهي مهد الخلافة التي منيت نفسك بها.

☆ ☆ ☆

ومن الشعراء الذين ذكرهم البكري أيضا : إبراهيم بن أيوب النكوري ذكره استطرادا عند كلامه على مدينة نكور. وإني لم أتوصل لتحديد الزمان الذي كان يعيش فيه هذا الشاعر إلا أنه في الغالب يكون ذلك أيام ازدهار هذه المدينة أي في أواخر القرن الثالث الهجري. وقد أورد له البكري أربعة أبيات يظهر أنها كانت ضمن قصيدة مدح بها أحد الأمراء بالمغرب وقد وفد عليه من بلده نكور قال :

أيـــا أملي الـــذي أبغي وســؤلي
ودنيــــاي التي أرجـــو وديني

أأحرم من يمينـــــــك ري نفسي
ورزق الخلـــق في تلـــك اليمين

ويحجب عن جبينـــك لحـــظ طرفي
ونــــــور الأرض من ذاك الجبين

وقـــد جبت المهـــامـــه من نكـور
إليـــك بكـل نـــاجيـــة أمـون

ولم يكن إبراهيم النكوري هذا الشاعر الوحيد بتلك العاصمة الريفية فقد كان بنو منصور يولون الأدب اهتمامهم وكانوا أنفسهم يميلون للأدب ويشتغلون بالعلم. فمن ذلك أنهم ذكروا عن الأمير عبد الرحمن بن سعيد بن إدريس أنه كان له إلمام كبير بالفقه علىمذهب الإمام مالك رضي الله عنه وأنه حج أربع مرات ويستفاد من كلام البكري أنه كان لآل صالح هؤلاء (وهم بنو منصور) شعراء رسميون لم يذكر لنا منهم إلا واحدا ولم يورد اسمه وإنما قال عنه إنه كان من شعراء الأندلس من أهل طليطلة... وكان شاعر آل صالح في ذلك العصر. «فلا شك أنه كان لهم في أعصار أخرى شعراء من أهل نكور كإبراهيم بن أيوب الذي حفظ لنا اسمه صدفة.

ووجود شاعر أندلسي من طليطلة في بلاط أمراء نكور يدل على مكانة هذه الإمارة أيام ازدهار المدنية الأندلسية على عهد الأمويين. ومما يدل كذلك على أهمية نكوران عبيد الله الشيعي تاقت نفسه لفتحها فكتب إلى سعيد بن صالح يدعوه إلى الدخول في طاعته كما كتب لأمراء المغرب الآخرين وختم كتابه لسعيد بأبيات كثيرة على ما يقول البكري منها :

فـــإن تستقيمـــوا استقم لصـــلاحكم
وإن تعـــدلـوا عني أرى قتلكم عـــدلا

وأعلـــوا بسيفي قـــاهرا لسيـــوفكم
وادخلهـــا عفـــوا وأمـلأهـــا قتـــلا

فكان من جواب شاعر آل صالح المذكور :

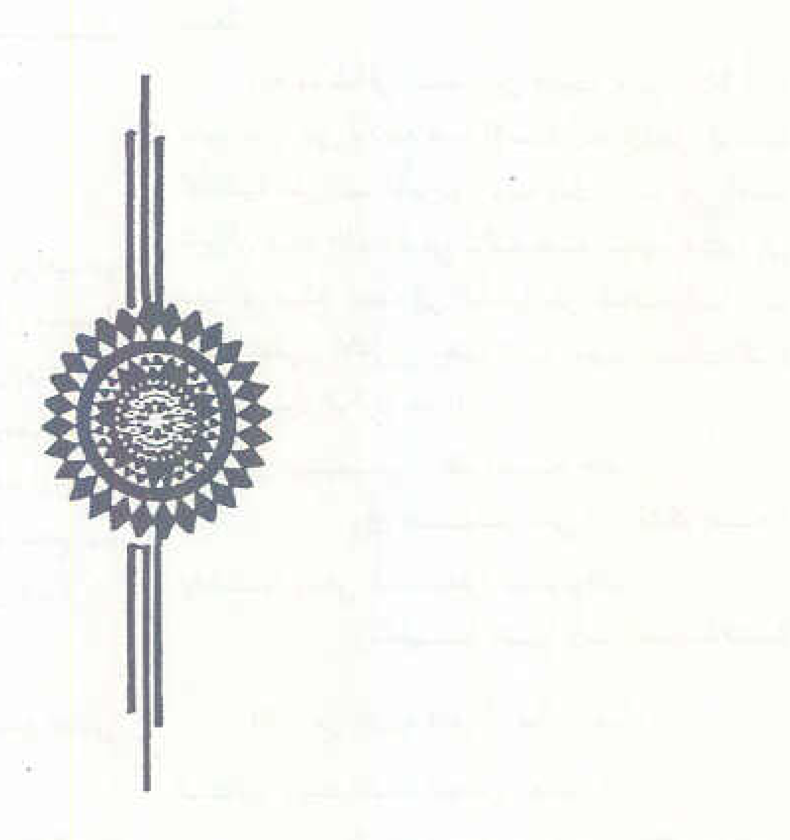
كـــذبت وبيت اللـــه لاتحسن العـــدلا
ولا علم الرحمن من قـولـــك الفصـــلا

فمـــا كنت إلا جـــاهـلا ومنـــافقـــا
تمثـل للجهـــال في السنـــة المثلى

وهمتنـــا العليـــا لـــدين محمـــد
وقـــد جعـل الرحمن همتـــك السفلى

ونرى من كـل مـا تقـدم أن الشعر كـان لـه دور كبير حتى في الحياة السياسية وإن كل المكـاتبات بين الملوك والأمراء والرؤسـاء تختم بشعر من نظم الأمير نفســه أو من نظم شعرائه الرسميين وكل هذا يدل على أن الحيـاة الأدبيـة لم تكن ما يتبادر للباحث عندما يرى كتب التاريخ بمعنـاه العام خالية من هـذا النشـاط الـذي يظهر جليـا من كتـاب الحلـة السيراء في مـا يرجـع للمولى إدريس وأبنـائـه وفي كتاب المسالك للبكري في مـا ذكرتـه. ولا يعقل أن يكون هؤلاء الشعراء ومنهم من لا نعرف حتى اسمه لم ينتجـوا في حياتهم إلا هذه النتف التي طاولت الزمان بالمصادفة. فـإذا لا زال باب الأمل مفتوحا في الوصول إلى معرفـة أكثر ممـا نعرف عن الحياة الأدبية بالمغرب الأقصى في القرون الأولى لتاريخه الإسلامي.

الرباط : محمد الفاسي





تعددت في السنوات الأخيرة البحوث عن الدولة المغربية، عن نشأتها، عن نمطها، عن قاعدتها الأرضية والبشرية، عن دورها عن الصنف الذي تدخل فيه، حسب النظريات الحديثة. وهو اهتمام جدير بكل تنويه، لا سيما إذا علمنا أن الموضوع لم يحظ بأي التفات جاد ومجدد منذ ابن خلدون، صحيح أن هنالك مؤلفين انكبوا على موضوع الإمامة والخلافة، لكن لا ليبحثوا فيها بحثا حرا كما فعل ابن خلدون، وإنما ليرددوا ما هو معروف عند الماوردي وغيره من المؤلفين في السياسة الشرعية.

إلا أن تناول هذا الموضوع، لكي يصل إلى الهدف المنشود يجب أن يجتنب الشطط والتسرع وأن لا يتعسف في استعمال القياس والمقارنة، فالدولة المغربية لم تنشأ كما نشأت الدولة عند اليونان أو عند الرومان أو عند الجرمان وغيرهم من شعوب أروبا بالتي انصبت عليها الأبحاث بكثرة هائلة والتي كثيرا ما يتخذ منها بعض المؤلفين عندنا مرجعا يستندون إليه. بل إنها نشأت في ظروف خاصة بها لا يمكن التعرف عليها إلا بمراجعة تاريخية دقيقة ومتأنية.

☆ ☆ ☆

والعامل الأول في نشأتها ـ وهذا على، ما أعتقد، واقع تاريخي لا ينازع فيه منازع ـ هو دخول الإسلام إلى المغرب. لقد بدأت فكرة الدولة، أول ما بدأت، على شكل الولاية التي استحدثها الأمويون لإدارة الأقاليم العديدة التي أصبحت تضمها المملكة الإسلامية الواسعة الأطراف. والولاية في ذلك العهد، الذي لم تكن فيه وسائل الاتصال والمراقبة متوفرة وسهلة، كانت بمثابة إمارة مستقلة. وكان الوالي، الذي ربما حمل لقب الأمير، يتمتع بثقة الخليفة وينال منه كامل التفويض. والذي كان يضمن تبعية الأول للثاني وولاءه له هو سلطة الإسلام المعنوية على عموم المسلمين، فلم يكن يعقل ولا يقبل أن يخرج الوالي عن طاعة الخليفة، فموسى بن نصير، برغم ما ناله من سطوة ومجد، لم يتردد في التخلي عن منصبه حينما غضب عليه الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك وأمره بالعودة إلى دمشق حيث نزل به أسوأ العقاب.

فالمغرب استأنس بفكرة الدولة عن طريق أولئك الولاة الذين كان أولهم هو موسى بن نصير. ما هي مظاهر ذلك الاستئناس ؟

ـ التوحيد السياسي المتجلى في الخضوع لسلطة واحدة. فالوالي لم يكن ينظر إلى القبائل بقدر ما كان

ينظر إلى البقعة الأرضية التي تنسحب عليها سلطته والتي يقرر فيها نفس الأحكام ويجرى فيها نفس القواعد والإجراءات الإدارية.

- التمييز بين دار الإسلام ودار الحرب. وهذا مفهوم سياسي كان على درجة كبيرة من الأهمية في تلك الخطوات الأولى نحو إنشاء الدولة، فهو يشعر الخاضعين بامتيازهم وبشرف انتمائهم، فيخولهم حقوق المواطنة الإسلامية ويفسح لهم المجال للتجند في مشروع الفتوح الإسلامية. وهذا ما حصل، بالضبط، بالنسبة لبرابرة المغرب حينما نودي عليهم للمشاركة في فتح إسبانيا. فلبوا النداء بحماس وشجاعة.

- التعبير عن الخضوع والولاء عن طريق الجبايات وغيرها من الفروض العامة، بحيث يشعر الفرد أن هنالك رابطة قوية تربطه بجهاز منزه وعال هو الدولة.

- الإسلام كعقيدة وشريعة أعاد تشكيل العقليات السائدة وأحدث فيها تحولات جذرية واتجه بها إلى التوحيد الفكري وإلى إيجاد تطلعات جماعية.

لكن الولاة لم يستطيعوا، كما هو معلوم، المحافظة على المثل الأعلى الإسلامي وصدرت منهم انحرافات وتعسفات أدت بالبربر إلى التذمر والتشكي. ولا أدل على رغبتهم في الاستمرار على الولاء والطاعة من كونهم حاولوا في مساعيهم الأولى أن يتجاوزوا سلطة الوالي ليعرضوا قضيتهم على الخليفة ذاته. وقد أوردت المصادر أحداثا تدل على أن ثورة البربر لم تكن قضية عرقية أو رغبة في بث فوضى وسلوك طريق العصيان، وإنما هي ثورة من أجل الدفاع عن حقوقهم وكرامتهم، طبقا لما استقوه من تعاليم الإسلام، أي انهم كانوا في الواقع كانوا يسعون إلى أن تكون الدولة الحاكمة لهم دولة القانون والنظام.

فمن الشهادات التي نقلها الطبري عن رواة معاصرين أن أهل المغرب، منذ فتحت بلادهم «ما زالوا من أسمع أهل البلدان وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك، أحسن أمة إسلاما وطاعة». وأن خروجهم عن الطاعة فيما بعد إنما نشأ عن تأثير أهل الفرق عليهم، أي تأثير الخوارج، على الخصوص، الذين وردوا إلى المغرب من العراق لينشروا دعوتهم في الأقاليم البعيدة، ولم يستمع البرابرة لأول وهلة للخروج عن الطاعة والثورة على الخلافة، بل اعترضوا على الدعاة القادمين إليهم بقولهم : «إنا لا نخالف الأئمة بما تجنى العمال، ولا نحمل ذلك عليهم» فقال لهم الدعاة : «إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك». فقالوا لهم : «لا نقبل ذلك حتى نبورهم» أي حتى نجربهم.

وحينئذ تألف وفد صغير من رجال البربر على رأسهم ميسرة الذي سيظلمه المؤرخون حين نعتوه بالحقير، مع أن سلوكه كان منطقيا ومتماشيا مع الشريعة. وصل الوفد الذي كان يتألف من بضعة عشر رجلا إلى الشام وطلب مقابلة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، لكنه لم يستقبلهم، فجاءوا آنذاك إلى أحد المقربين منه، كاتبه الأبرش الكلبي فخاطبوه بقولهم : «أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده، فإذا أصاب، نفلهم دوننا وقال : هم أحق به. فقلنا : هو أخلص لجهادنا، لأنا لا نأخذ منه شيئا. إن كان لنا، فهم منه في حل. وإن لم يكن لنا لم نرده. وقالوا : إذا حاصرنا مدينة، قال : تقدموا وأخر جنده، فقلنا : تقدموا، فإنه ازدياد في الجهاد. ومثلكم كفى إخوانه، فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم، ثم إنهم عمدوا إلى ما شيتنا، فجعلوا يبقرونها على السخال يطلبون الفراء البيض لأمير المؤمنين. فيقتلون ألف شاة في جلد، فقلنا : ما أيسر هذا لأمير المؤمنين. فاحتملنا ذلك وخليناهم وذلك. ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا. فقلنا : لم نجد هذا في كتاب ولا سنة، ونحن مسلمون، فأحببنا أن نعلم : أعن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا ؟ قال : نفعل.

لكي طال انتظارهم دون الحصول على جواب واضطروا للعودة إلى بلادهم لنفاد نفقاتهم. فتركوا أسماءهم وأنسابهم في ديوان الخليفة قبل أن يأخذوا طريق الاياب. والواقع أنهم عادوا يائسين وكان ذلك سببا في ثورتهم.

☆ ☆ ☆

إننا حين نتأمل هذه القصة التي نقلناها عن الطبري ونحلل كلام الوفد، نصل إلى نتيجة تخالف، تماما، ما ذهب إليه بعض المؤرخين الأجانب، وحتى بعض المؤرخين المغاربة حينما حاولوا أن يفسروا ثورة الخوارج بالفوضوية البربرية أو بالعصبية العرقية أو برفض سلطة الخلافة الشرقية. بل إن نية الوفد الأولى كانت هي السعي للبقاء على الولاء للخلافة وتنزيه الخليفة، أمير المؤمنين، عن الموافقة على بعض الأعمال الشنيعة التي كان يرتكبها العمال، لكن ولاءهم، كما هو متضح من النص، كان مرهونا بقيام الخلافة على الشرع، فهم يبحثون، كما تقول اليوم، عن دولة القانون. ومسعاهم ذلك يمكن أن يدمج في تاريخ الكفاح من أجل حقوق الإنسان.

وربما أثير الشك حول هاته القصة، ولكن، لدينا ما يدعمها في المصادر. فهناك، أولا، السياسة العامة التي اتبعها الأمويون منذ البداية والتي كانت تمنح الأولوية للعرب على غيرهم من أبناء الشعوب المفتوحة. بحيث نشأت قضية الموالي التي شرقت وغربت وكانت من أعوص القضايا في المجتمع الأموي، فتحت الباب لجملة من المغامرين السياسيين مثل المختار بن أبي عبيد الثقفي. الذين كانت لهم حجة قوية في الاستناد إلى مبدإ المساواة الذي نادى به الإسلام ونبذ عصبية الجاهلية. وتفاقمت المشكلة بتكاثر الموالي الذين دخلوا إلى الإسلام وبالمزيد من إطلاعهم على تعاليم الدين الحنيف ووعيهم بالحيف المسلط عليهم. بحيث إن شكوى المغاربة لم يكن بدعا، بل هو داخل في التذمر العام الصادر عن المسلمين من الموالي شرقا وغربا.

وهناك، ثانيا، السياسة الجديدة التي انتهجها عمر بن عبد العزيز ليصحح سلوك الدولة ويعيده إلى النسق الإسلامي الموثق. ومن خلال مراسلاته وتصريحاته نلمس خطورة التعسف التي وصلت إليها تصرفات الولاة والعمال في الأقاليم إزاء الموالي. فهو الذي لم يتردد، مثلا، في عزل أحد الولاة الممتازين الذين اختارهم بنفسه عن إقليم خراسان ونعني به الجراح بن عبد الله الحكمي لأنه تلكأ في السير على منهج العدل تجاه الموالي المستند إلى المبدأ القرآني : ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾. وهو الذي يقول في كتابه إلى أهل الحج :

«أنا معول كل مظلوم. ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة، فلا طاعة له عليكم. وقد صيرت أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم. ألا وإنه لا دولة بين أغنيائكم، ولا أثرة على فقرائكم في شيء من فيئكم...».

لكن عهد عمر بن عبد العزيز لم يدم أزيد من سنتين ونصف، بحيث إنه لم يستطع إتمام برنامج الإصلاح والتصحيح الذي أتى به بل إن الخلفاء الذين جاءوا بعده تراجعوا عن خطته وتجاهلوا التعاليم والتدابير التي أقرها في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية. لكن عمله لم يكن سحابة صيف بل ظل شهادة ونموذجا.

يتضح مما سبق أن الشغل الشاغل بالنسبة للشعوب التي دخلت إلى الإسلام شرقا وغربا كان هو الحصول على دولة الشرع. وهو تطلع يتماشى مع منطق التاريخ لأن إقبالها على الإسلام كان من أول يوم بدافع تقديرها لما يدعو إليه من عدل ومساواة، لكن قد تكون المبادئ في جهة، وتكون السياسة المتبعة في جهة أخرى. وهو ما حدث، بالضبط بعد انتهاء دولة الخلفاء الراشدين وقيام الدولة الأموية.

☆ ☆ ☆

رحب المغاربة، إذن، بقيام الدولة الإسلامية في بلادهم، ولو على يد الولاة الاقليميين، لكنهم رفضوا الظلم والإهانة حينما انحرف الولاة وعاملوهم بسوء. ولئن نفضوا أيديهم من الخلافة الأموية، حينما يئسوا منها، فإن مثال الدولة الإسلامية الصالحة ظل ثابتا في أذهانهم وظلوا يتطلعون إلى تحقيقه، بصورة أو بأخرى. فلما حل بأرضهم

دعاة المذهب الخارجي وخاطبوهم بمنطقهم البسيط والواضح المغالي في الديموقراطية، المتشدد في تحديد المسؤوليات والواجبات، لبوا الدعوة بصدق وحسن نية. وهكذا نشأت دولة بني رستم بتاهرت ودولة بني مدرار بسجلماسة. فالأولى إباظية والثانية صفرية. ولم تتسما كلاهما بالعنف والتعصب الذي عرفت به حركة الخوارج في المشرق بل انسجمتا مع غيرهما من الدول التي نشأت بالمنطقة كالأدارسة والأغالبة وعرفتا بالتسامح والتفتح.

ومع ذلك، فالخوارج لم يستطيعوا أن يجلبوا نحوهم عطف عامة المسلمين، بل ظلوا يمثلون حركة أقلية، حركة ظل يعوزها دائما السند من كبار العلماء والفقهاء الذين ظلوا ينظرون إليها شزرا كمذهب منحرف عن السنة الصحيحة. فالخوارج لم يستطيعوا أن يحققوا حولهم الإجماع في أي مكان من العالم الإسلامي، بل ظلوا يعتبرون كفوضويين وكحركة متأثرة بتقاليد البداوة العربية الرافضة لأي سلطة عليا. ولعل موقفهم من علي بن أبي طالب في معركة صفين وبعدها نفر معظم المسلمين منهم وحكم عليهم بأن يصبحوا حركة هامشية.

لذلك، فإن الثورة الخارجية بالمغرب وما نشأ عنها من محاولات لم تشف غليل المغاربة ولم تسد الفراغ الذي بدأوا يشعرون به عند انفصالهم عن دولة الخلافة في المشرق. والانطباع العام الذي يبقى لنا من قراءة المصادر هو تطلعهم إلى إيجاد دولة مغربية مستقلة تتوفر فيها كل الشروط التي توفرت للدولتين الأموية والعباسية، أي أن تكون دولة متماشية مع رغبة عامة المسلمين وشعورهم أي ما ينطبق على مفهوم السنة والجماعة... ولا ننسى أن المغاربة احتكوا آنذاك بمذاهب أخرى من غير المذهب الخارجي، إذ نجد من بينهم من ينتسب إلى الاعتزال، مثلا. وإذا كانت المصادر تشح علينا بأخبار وجود المذاهب في المغرب، فنحن نعلم أن عددا من الفرق كان للحصول على الأنصار والمؤيدين. مما يجعلنا نفترض بكثير من اليقين أن المغاربة استقبلوا آنذاك عددا من الدعاة واستمعوا إليهم واحتكوا بأفكارهم.

☆☆☆

لكن العقلية المغربية أو المزاج المغربي، كما برهن على ذلك التاريخ في فترات مختلفة، يستنكف عن كل ما هو منحرف عن الجادة التي تسلكها الجماعة الإسلامية، فيحرص دائما على البقاء فيها. يكفي أن نشير، على سبيل المثال، إلى ما حصل للمذهب التومرتي من انقراض سريع ونسيان تام، برغم ما بذل في سبيله من وسائل جبارة لنشره وترسيخه في العقول والقلوب. المزاج المغربي مزاج كلاسيكي يميل إلى النماذج الأصيلة المسلم بها حتى إن نحا إلى التطور والتجديد. إنه يرفض المغامرة ويتسلح بالتبصر والاحتراز.

لذلك، فإن هذا العصر الأول الذي جاء بعد الفتح والذي امتد إلى ما يقارب ثمانين سنة والذي كان عصر الولاة والثورة الخارجية انتهى بتطلع المغاربة الذين بلغتهم الدعوة الإسلامية وتشبعوا بتعاليمها وجربوا حكم الخلافة والمحاولات الخارجية، إلى إيجاد دولة إسلامية أصيلة في بلادهم.

وهي الفرصة الذهبية التي صادفها إدريس وهو يخترق أرض المغرب مع مولاي راشيد، فارا من نقمة العباسيين، وباحثا في نفس الوقت عن الوسيلة التي تسمح له بالانتقام من خصومه ومواجهتهم في ميدان السياسة، لاشك أن الرجل كان ذكيا. فهو الذي تمكن من بين إخوته، وعددهم ستة، من تأسيس دولة كان لها ذكر واستمرار في بلاد بعيدة عن مسقط رأسه بالحجاز، لم تكن له صلة بأهلها. ولا شك أنه كان ذا معنوية رفيعة وشجاعة نادرة حيث لم ييأس من الدفاع عن قضية العلويين التي كم أريق فيها من دماء وقتل من أشراف ولم يتردد في

الإقدام على مغامرة كبيرة محفوفة بالأخطار مهددة بالفشل في كل وقت.

ولا شك أن المغاربة رأوا آنذاك في هذا الرجل الذي ينتسب لآل البيت ويحمل نفحة الشرف خير من يزكي مشروع تأسيس دولة مغربية صميمة. ومن المعلوم أن المغاربة متشبثون بخصوصيتهم غيورون على استقلالهم، متحفظون كثيرا إزاء الأجنبي الطارئ، لا سيما وقد كانوا في ذلك الوقت لايعرفون إلا لغتهم البربرية، ويقل بينهم من يتكلم العربية. فنجاح إدريس الطريد الشريد الوحيد يظهر، لأول وهلة، كحدث من قبيل البطولات النادرة والمعجزات المثيرة.

لكنه في الواقع حدث يمكن تفسيره وفهمه بالظروف والملابسات التي أحاطت بتأسيس الدولة الإدريسية. إن بيعة إدريس بن عبد الله لم تأت كحادث اعتباطي أو كمصادفة لم يسبقها تهيء. بل إننا نرى إدريس، أول ما وطئت قدمه أرض المغرب يتجه إلى طنجة، التي يتحدث عنها المؤرخون كحاضرة المغرب، وكانت إقامته بها مرحلة ضرورية ليتعرف على البلاد ويجس نبض سكانها، على المستوى السياسي، وقد تطلب ذلك سنتين حسبما نستخلصه من المصادر.

فنحن حينما نقرأ السطور ومابين السطور القليلة في المصادر نخرج بالخلاصة التالية : لقد سعى إدريس ليتصل بزعماء القبائل الكبرى، وكانت القبائل آنذاك بعصبيتها وعدد أفرادها هي كل شيء في المغرب. فالمدن، برغم وجودها لم تكن قادرة على أن تكون القوة السياسية الفاصلة في المغرب. بل القوة السياسية كانت توجد، معنويا وماديا لدى القبائل. وتمكن إدريس من ربط الصلة مع أحد رجالها هو إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي، زعيم قبيلة أوربة التي يصفها روض القرطاس بأنها «كانت في ذلك الوقت أعظم قبائل المغرب وأكثرها عددا وأشدها قوة وبأسا وأحدها شوكة» وهي القبيلة التي كان أحد زعمائها هو كسيلة الذي قتل عقبة بن نافع في خبر مشهور. فأقدميتها في الإسلام مسلم بها، ونسب إسحاق المذكور آنفا يدل على ذلك.

اختار إدريس، إذن، إحدى القبائل المرموقة بالمغرب ليتصل بزعيمها ويعرفه بنفسه ونسبه ويخبره بمشروعه السياسي الهادف إلى تأسيس دولة بمساعدة أهل البلاد، تكون مطابقة لما ورد من مبادئ وتعاليم في الكتاب والسنة في هذا الشأن، متحاشية عن الانحرافات التي سارت فيها الدولة العباسية باسم الهاشميين. وصادف هذا الخطاب استحسانا وتحبيذا من مخاطبه ثم من المغاربة الذين تراكمت في نفوسهم مآخذ على الخلافة القائمة في الشرق.

هكذا سار المشروع نحو الإنجاز في مراحل متلاحقة، فاختار إسحاق الأوربي شهر رمضان، الذي له منزلة خاصة في نفس المسلمين، ليجمع أبناء قبيلته ويطلعهم على ما دار من حديث بينه وبين إدريس، وليبين لهم الهدف الذي جاء من أجله إلى المغرب. ولعل أهمّ عنصر كان له الوزن الكبير في أعين المجتمعين هو نسب إدريس، فهو يتميز بانتسابه الصريح إلى سيدنا محمد ﷺ، وفي طبيعة المغاربة وفي تقاليدهم تقدير الأنساب، فبرغم أنفتهم ونزوعهم إلى الحرية، يحتفظون في أنفسهم باعتبار كبير للأصول والأنساب ويميزون «ابن الخيمة الكبيرة» حسب تعبيرهم الدارج عن غيره.

☆ ☆ ☆

ثم كيف يتم لهم مواجهة الضغوط العسكرية الآتية من جهة العباسيين على يد ولاتهم بأفريقية إذا لم يبادروا إلى تأسيس دولة يكون رئيسها من بيت يبز العباسيين من حيث الشرف والأحقية بالإمامة ؟ فاختيارهم، إن كان، من جهة يراعى النسب ويدل على نخوة وغيرة على ما أصاب

الأسرة العلوية من محن ومآس، فإنه، من جهة أخرى، يبين أنهم كانت لهم نظرة سياسية خطيرة وذات بعد مصيري. إن قبولهم لعرض إدريس معناه إقامة دولة ذات وزن تجاه العباسيين بالمشرق وتجاه الأمويين بالأندلس، ومعناه، بالتالي، رفض أي تبعية واختيار التمسك بالاستقلال، وهكذا طبع المغرب الأقصى تاريخه الإسلامي منذ أول يوم باختيار لم يحد عنه، ألا وهو التمسك بالاستقلال وكانت الدولة الإدريسية أول من ضرب المثل.

كانت أوربة، إذن، أول من صادق على بيعة إدريس كإمام للدولة التي ما زالت في طور المشروع. لكن أعيان القبيلة اعتبروا، ولا شك، أن الاقتصار على قبيلة واحدة لايمكن أن يضمن بلوغ الهدف. ولعل إدريس كان، هو أيضاً، يحمل نفس الشعور ويحرص على أن يكون جمع من القبائل المختلفة تلتف حوله وتسانده. لذلك، كانت الخطوة الثانية هي ضم عدد من القبائل المعروفة لتكون، هي الأخرى، في جانبه، وقد ذكر روض القرطاس تسلسل الأحداث مبينا أن «أول من بايعه قبائل أوربة... ثم بعد ذلك أتته قبائل زناتة وأصناف قبائل البربر من أهل المغرب منهم زواغة وزواوة ولماية وسدراتة وغياثة ونفزة ومكناسة وغمارة».

يتضح من كل ذلك أن دولة الأدارسة لم تنشأ على أساس إرادة قبيلة واحدة، كما كان الشأن، مثلاً، بالنسبة للدولة المدرارية التي ارتكزت على العصبية المكناسية، بل إنها انبنت على قاعدة بشرية واسعة التقت فيها قبائل متعددة وأقاليم مختلفة، بحيث إن إدريس سار على الخط الإسلامي المناهض للعرقية والعصبية والمرتكز على تعارف الشعوب والقبائل وخلق وحدة تؤلف بين سائر المؤمنين على أساس المساواة والإخاء في العقيدة.

لكن إدريس ومن حوله من المستشارين لم يعتبروا القاعدة البشرية وحدها، بل فكروا، أيضاً، في القاعدة الجغرافية، فاتجهوا إلى أحسن منطقة في المغرب موقعا وأخصبها وأكثرها موارد وأقدرها على الإشعاع في كل الاتجاهات، وفي المنطقة التي تقع في حوض سبو وما يحيط بها إلى السهولة الغربية. فهي منطقة استقرار وزراعة وثروة، أي إنها توفر عوامل التوازن الاقتصادي والبشري الضروري لضمان القوة والاستمرار للدولة الناشئة. فيمكنها أن تسعى لتوسيع نفوذها في جهات أخرى من المغرب، وهو ما حصل، بالفعل، حيث إننا نجد الأدارسة يصلون إلى تلمسان شرقا وإلى البحر المتوسط شمالا وإلى سوس جنوباً، كما تشهد على ذلك المصادر والمسكوكات النقدية التي ترجع إلى تلك العهود.

يبقى عنصر آخر أساسي ومهم يدخل في نشأة الدولة الإدريسية ونعني به البيعة الذي هو مفهوم إسلامي يرجع إلى عهد الرسول ﷺ، وينبني على تعاقد واضح بين المبايعين والمبايع له، فبيعة الرضوان، مثلاً، التي قرر فيها الرسول، عليه السلام، محاربة قريش إن صح النبأ الذي بلغه بمقتل عثمان، كانت فيها مبايعة من الجهتين : بايع الرسول أصحابه على الموت، كما بايعه أصحابه. وكذلك كانت بيعة الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين تنص على شروط والتزامات بين الطرفين. وكذلك كانت بيعة إدريس، التي لخصها روض القرطاس في هاته العبارة مشير إلى بيعة أوربة : «بايعوه على الإمارة والقيام بأمرهم وصلواتهم وغزوهم وأحكامهم» بيعة فيها تفويض للسلطة الدينية والدنيوية معاً، بما فيها التشريع والتنفيذ والقضاء.

والموضوع واسع إذا أردنا أن ندخل في تفاصيله، يمكننا أن نعود إلى النصوص الجديدة التي نشرها المرحوم علال الفاسي والتي تلقى أضواء أخرى على الظروف التي أحاطت بتأسيس الدولة الإدريسية.

وأهم ما يمكن أن نلاحظه في ختام هذا التحليل هو أن إدريس تجاوب مع رغبة كانت كامنة في نفس

المغاربة، وهي رغبتهم في إيجاد دولة ونظام مستقر مقتبس من نموذج الخلافة الإسلامية. فضرب لهم مثلا لم يكن من الممكن التراجع عنه حتى في أحلك أوقات الأزمات، إذ أصبح السعي للمحافظة على وجود الدولة وتجديدها وتوحيدها شغلا شاغلا للمغاربة على ممرّ العصور. وذلك جانب أساسي في تاريخ المغرب يستحق دراسات ودراسات.

الرباط : محمد زنيبر

مراجع أساسية :

الطبري : تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة.

ابن هشام : السيرة النبوية، القاهرة 1936.

البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد.

ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، الرباط 1973.

ابن خلدون : كتاب العبر، بيروت 1959.

عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب، الرباط 1968.

الوثائق : المجموعة الأولى، الرباط 1976.

المناهل، عدد 11، الرباط 1978.





موقع المغرب في التاريخ

للأستاذ محمد العثماني

ذكرني هذا العنوان بحوار جاء في بعض الأخبار أنه وقع في الزمن القديم بين عالم مغربي ووزير في الشرق، والقصة كما وردت في بعض المراجع هي أن الوزير أراد أن ينكت على العالم المغربي، وأن ينتقص من موقع المغرب التاريخي والجغرافي فقال :

(إن الدنيا ـ يعني العالم الإسلامي ـ تشبه الطائر رأسه بلاد الحجاز وجناحه الأيمن اليمن، وجناحه الأيسر العراق والشام، وصدره مصر، وذنبه المغرب).

فقال له العالم المغربي على البديهة : (صدق حضرة الوزير، ولكن الطائر هو الطاووس).

فبهت الوزير والحاضرون معجبين بالجواب، لأنه أثبت للمغرب موقعا ممتازا في الطائر الجغرافي على أساس أنه الطاووس، وأحسن ما في الطاووس الذنب.

سواء كانت القصة واقعية صحيحة، أو كانت رمزا لما هو ثابت في الواقع والتاريخ، وسواء كان الحوار فيها للوزير أو أحد الخلفاء كما هو في بعض الروايات، فإن مغزاها صحيح، يغني بالتلميح عن التصريح، فموقع المغرب في التاريخ كموقعه الممتاز في الأرض.

ـ جغرافيا : لأنه يطل غربا وشمالا على بحرين، وتمتد على حدوده الشرقية والجنوبية صحراء شاسعة، وفي وسطه جبال شامخة غنية بالماء، وسهول مخصبة معطاء.

ـ قاريا : فهو جسر بين قارتين، عليه نقلت الحضارة علما وفنا وفلسفة إلى أوربا، في الوقت الذي كانت تتلمس طريقها في الظلام، وتبيع لها الكنيسة صكوك الغفران.

ـ بشريا : حيث نبغ إنسان المغرب المتميز بخصائص التعمير والبطولة والحفاظ على مقوماته التي جعلت له موقعا ممتازا في التاريخ.

أي إنسان ذلك الإنسان ؟ إن الجواب يعطينا في أمانة وثقة أسماء لامعة كالنجوم، ونماذج راسخة في ضمير التاريخ كالجبال، فمنذ اثني عشر قرناً لم يفتأ المغرب ينجب صانعي التاريخ وحارسي الحضارة الإسلامية، وبالضبط من منذ عهد إدريس الأول إلى عهد الحسن الثاني.

أما موقعه الآخر فنجده إذا رجعنا إلى الوراء لنرى أن المغرب كان أحد مواقع الخلافة الإسلامية في العالم، حتى لم يبق بعد انهيار الخلافة العباسية إلا دولتان قويتان أو

العظميان - كما يقال اليوم - دولة المغرب في مستوى الخلافة، والخلافة العثمانية، فقد كفانا التاريخ تلمس الدلائل والشهود، فمنذ أن بايع المغرب إدريس الأول على الحكم بشريعة الإسلام حتى اليوم، لم يتخل العرش المغربي عن طابع الإسلام، والالتزام بشروط البيعة الشرعية ولولا ذاك لما خضع المغرب لإدريس المجرد من الحول والقوة، فلا جيش لديه ولا سلاح، ولكن المغاربة بايعوا منذ ذلك العهد على الإسلام، واعتبروا العرش منارا مؤسسا على الهدى، وعلى تقوى من الله ورضوان.

ومن يتتبع تاريخ المغرب يدرك أنه لاتقوم دولة فيه إلا إذا ابتعدت التي سبقتها عن شروط البيعة والوفاء للعرش، وما كان يقع بين سابقة ولا حقة من الفوضى والاضطراب منشؤه الفراغ والارهاص بقيام من يقدر على حمل الأمانة ومسؤولية العرش، ويقيم أمر الله وعدله بين الناس.

☆ ☆ ☆

في عهد الأدارسة توحد المغرب في جل أقاليمه، وانتشر الإسلام في ربوعه إلى جانب اللغة العربية والتربية على أخلاق القرآن.

ثم قامت بعدهم، وبعد فراغ واضطراب أعظم دولة إسلامية في العالم بعد الخلافة العباسية الأولى هي دولة المرابطين التي أسسها أحد علماء جزولة هو الإمام عبد الله بن ياسين الذي لم يعطه التاريخ حتى اليوم حقه من الدراسة والتحليل، بالرغم من كون حركته الإسلامية امتدادا لحركة الفاتحين السابقين رضوان الله عليهم، فاستحق بذلك أن يكون مجدد المائة الخامسة في عداد الأئمة المجددين، وعمل الدولة المرابطية وجهادها لفائدة الإسلام وامتداد رقعته وإطالة عمره بالأندس مما يعلمه الخاص والعام.

☆ ☆ ☆

ثم استأنف العرش جهاده في عهد الموحدين، فكانت دولتهم أقوى دولة في العالم في ذلك العهد، فاستمرت في الجهاد كسابقتها شرقا وغربا، فكانت وقعة الأرك كأختها الزلاقة في عهد المرابطين، وكانت إغاثة بحرية من يعقوب للمجاهد صلاح الدين في الحروب الصليبية المشهورة.

كل ذلك إلى جانب التمدن والعمران، وجلال الفن الإسلامي.

وعلى هذا النهج جاءت دولة بني مرين تحافظ على المكاسب، وتضيف إليها مراكز العلم ومعاهده.

☆ ☆ ☆

ثم اشتدت الحاجة إلى الجهاد مع القرن العاشر الهجري بعد احتلال الشواطئ المغربية من طرف الصليبيين، فقامت حركة الجهاد في الجنوب أيضا على أيدي الأشراف السعديين، فبدأت مقاومة الغزاة من «أكادير» حتى شملت شواطئ المملكة كلها.

وهكذا قامت الدولة السعدية بحق العرش في الجهاد على أحسن صورة، فكانت المعركة الفاصلة على أرض المغرب بين الهلال والصليب وقعة وادي المخازن التي تحطمت بعدها القوة الصليبية والأولى في العالم.

☆ ☆ ☆

وبعد الأشراف السعديين جاء الأشراف العلويون ليحملوا راية الجهاد، ويوحدوا البلاد التي توزعتها رؤساء القبائل والكيانات المنفصلة والزوايا، فكل قائم باسم الجهاد، ولكن الوحدة التي هي المقوم الأول لكل تنظيم بشرى تفتقده الكيانات والزوايا، فكأن القدر هيأ للمهمة المزدوجة الأسرة العلوية لتقود مسيرة النضال، ولتعيد إلى العرش هيبته ومهمته في التحرير والجهاد، ووضع البلاد من الأمن على مهاد.

☆ ☆ ☆

عبر المغرب هذه القرون وقد تحدى الأحداث في خطرها وحجمها الهائل، وتحدى غزاة الشعوب والحضارات، فهم لايقدرون على تركيع شعب صم على رفع رأسه، وأراد أن يحيا حياة الكرامة والانعتاق.

... وتاريخ المغرب حافل بالتحديات، فقد تحطمت على صخره كل القرون التي تحاول أن تنال منه عبر

تـاريخـه الممتـد على اثني عشر قرنـا في دائرة الحضـارة الإسلامية.

كان تحدي المغرب الأكبر ماضيا وحاضرا هو تمسكه بموقعه في التـاريخ، ومقـاومتـه للتيـارات الخـارجيـة فيمـا يتعلق بانتمائه وهويته - تراثـا وعقيـدة وحضـارة، فبقي بين الشعوب بمميزاتـه أروع تـألقـا ونضـارة، فلم يتنكر لمـاضيـه وأصـالتـه، ولا أنكر متطلبـات الحـاضر، ولا أهمـل تـأمـلات المستقبل الذي ينظر إليه بـأمل عريض وتفـاؤل كبير، دون أن يخاف على نفسه وانتمائه الحضـاري، فهو يحمل منـاعة ضد :

- محو الهوية، فتاريخه حافل بالنضال والدفاع عنها.

- تمزيق الوحدة الفكرية، فقد انتصر على أشد عوامل التشتيت والضياع.

- الهجمة الشرسـة للحضارة المادية، فمـا استطـاعت أن تحوله عن خصائص حضارته.

- الاستـلاب المنظم الـذي يجعـل الشعـوب العريقـة مستهدفة له.

ليس معنى هـذا أن المغرب جـامـد لايتحرك ولا يتطور كالشعوب الحية، بل هو حريص على أن يربط بين المـاضي والحـاضر، وأن يوفق بين الـدين والـدنيـا، كمـا هـو منهج الإسلام الذي يعتبر المغرب أحد مواقعه وقلاعه.

وقد عبر عن هذه الظاهرة الاجتماعية الأصيلة جلالة الحسن الثاني حفظه الله في كتابه : (التحدي) فقال :

(إن المغرب يحترس من أن يعيش في الماضي، ولكنـه مـع ذلـك يـأخـذ من مـاضيـه العبر الكبيرة والـدروس التي تقـوده في الحـاضر، والتي يمكن أن ترسم خطاه في المستقبل).

وأكـد جلالتـه أن المحـافظـة على هـذه الظـاهرة الحضـاريـة من أهم المسـؤوليـات التي يرعـاهـا العرش ويتضمنهـا عقـد البيعـة الـذي هـو أيضـاً من أروع المظـاهر الحضارية.

وقد جـاء في خطـاب العرش للـذكرى الخـامسـة والعشرين لجلوس جلالته على عرش أسلافه العظام هـذا التأكيد فقال : حفظه الله :

(إن أعمـالنـا هـذه المسخرة لصـالح التطـوير والتحديث لم تستبد باهتمامنـا ولا بتفكيرنـا، فقد وجهنا عناية موازيـة إلى المحـافظة على مـا تجب المحافظة عليه، ذلك أننا حرصنا حرصاً شديدا على أن يتمسـك المغرب بـالقيم والخصـائص والمميـزات التي تمنحه ما ينفرد به من طابع، ويختص به من عبقرية، وما كنـا لنترك المغرب الـذي تـألقت فيـه الحضـارة على امتـداد العهـود والقرون، وتكـونت ملامحه الحضارية أحقاباً بعد أحقاب، ينفرط عقده بـانفراط الأيـام، وتـؤول مـلامحـه إلى الشحـوب والضمور، والانحلال والانقراض).

☆ ☆ ☆

الواقع أن المغرب - بفضل العرش - لم يستطع أي غاز أو مؤثر خارجي أن يغير موقعه في التـاريخ، ولا أن يسلبه سيادته وكيانه الدولي، لـذلـك اصطـدم الاحتلال بعـد فرض الحمايـة على المغرب بهـذه الخصوصيـة التي فـاجـأتـه وهو يحاول أن يوطد وجوده فيه، فكان بعض العقلاء من رجالـه يصـارحون الحكومـة الفرنسيـة بـالواقع، وينصحون لهـا بـأن تعتدل في معاملة المغاربة وتحترم عقد الحماية الـذي ينص في بعض بنـوده على الاعتراف بسيـادة المغرب وحمـايـة نظامه ومؤسسـاتـه الـدينيـة والإداريـة، وعلى رأسهـا مؤسسـة العرش العليا.

وفي أرشيف التـاريخ شواهـد نـاطقـة بـالحقـائق لمن يعي ويتدبر.

لمـا عينت الحكومـة الفرنسيـة (هينري بـونصـو) على رأس الإقامة العامة بالربـاط سنـة 1933م فوجئ بتجـاوزات المعمرين ومن ورائهم من المديرين العـامين، فوجـد فراغـاً واسعاً بين نصوص عقد الحماية والممـارسـات العمليـة لهؤلاء المعمرين، فحاول أن يحد من شططهم مع تحذير حكومتـه

من إطلاق الحرية لهؤلاء على هذه الطريقة، لأن ذلك مخالف لنصوص عقد الحماية الذي هو مكلف بتطبيقه.

ومما فوجئ به أيضاً جريدة أو مجلة كانوا يصدرونها مع المنصرين سموها : (المغرب الكاثوليكي) فقال لهم : إننا هنا في بلد له تقاليده وعقيدته، فحرمها ـ كما قيل ـ من الإعانة التشجيعية، لذلك لم تطل إقامته بالمغرب، فقد عزلته حكومته تحت ضغط المعمرين والمنصرين سنة 1936.

وإنما أشرت إلى هذا لكي لا ننسى أن الخصوم العقلاء كانوا يشهدون مرغمين بأن المغرب ليس أرضاً مواتا أو شعباً بلا نظام ولا تاريخ، بل هو دولة لها نظام ملكي عريق، ومؤسسات ذات ترتيب إداري دقيق.

وقبل هذا المقيم العام كان للماريشال اليوطي أول مقيم عام بالمغرب بعد الحماية موقف مشابه، فكتب ذلك التقرير السري المعروف إلى حكومته ينبهها فيه إلى خصائص الشعب المغربي، ويصفه بأنه حركي نشيط مؤطر تحت إشراف دولته ونظامه.

تلك بعض الشواهد على أن المغرب كان ـ وما زال ـ في موقع ممتاز من التاريخ، وأنه يتحدى الغزاة الذين حاولوا زحزحته عن ذلك الموقع، منذ دخل دائرة الحضارة، ومتى دخل إليها ؟

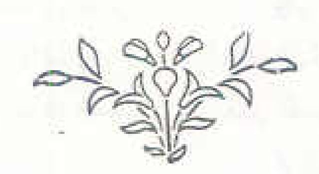
سؤال يجيبه جلالة الحسن الثاني في آخر خطاب العرش للذكرى الخامسة والعشرين فقال حفظه الله :

(لقد دخل المغرب دائرة الحضارة يوم دخل في دين الله، ويوم جعل كتاب الله وسنة نبيه ورسوله دليل حياته الذي لايخطئ ولا يزيغ، وما دام كتاب الله وسنة رسوله الأمين المصباح الذي يضيء مسالكه بنوره الوقاد، فلن يضل ولن يخيب).

أما المغرب الجديد فهو امتداد المغرب العريق الأصيل، ولكنه مغرب الإنسان الجديد الذي يعيش في حاضره، ويساهم في نشر المحبة والسلام، وينظر إلى المستقبل بأمل وإصرار على تنمية خصائصه وطاقته الفاعلة، فهو كما قال أيضاً جلالة الملك في آخر كتاب التحدي :

(إن المغرب الجديد قد ولد على طريق العيون، إنه مغرب السلام، ومغرب التعاون، ومغرب الصداقة، ولكنه كذلك مغرب الحرية، ومغرب الطاقة القادرة، ومغرب العزيمة والمضاء، وهذه هي خصائص مغرب المستقبل).

أكادير ـ محمد العثماني





للأستاذ عبد الكريم التواتي

إذا كنا قد أطلنا الحديث عن مظاهر الثقافة لعهد بني مرين وعلى خلاف ما فعلنا ونحن نتناول تلك المظاهر لدى غيرهم من الدول العربية والإسلامية التي سبقتهم لحكم هذه البلاد المغربية، ووسمت حضارة مجتمعها بميسمها أو ميسامها الخاصة، فلأن الآفاق الثقافية والفكرية التي تفتحت في عهدهم، وتبلورت على أيديهم، أو قعدت أسسها بسبب رعايتهم، أو نضجت ثمارها بفضل تعهدهم ولأنهم من حيث الاتساع والكثرة والتكثف أعظم من أن يحيط بتعدد مجالاتها مقال أو يحلل أبعادها ومعطياتها مجرد اختصار.

ذلك لأن هذه الآفاق لم تستقطب فحسب ما انتجه عصر هذه الدولة، ويا ما أكثره وأضخمه وإنما استوعبت معه مخلفات العهود قبلها، وهذه العهود كما نعلم ومخلفاتها دسمة، ضخمتها روافد الحضارات المتعاقبة على هذه الديار، حتى ليصح أن يقال إن المحاولات الفكرية لما قبل عهد بني مرين، بما فيها تلك التي تمد جذورها إلى الأندلس والقيروان، لم تكن إلا إرهاصات لما تمخض عنه العهد المريني الذي وصفت دولته بحق بأنها دولة العلم.

ولهذا فنحن نبادر إلى الاعتراف - رغم محاولتنا تلك - بأننا لم نمس من تلك الآفاق إلا سطحها ولم نعالج من معطياتها إلا ظواهرها، ولم نتجاوز في تناولنا عتباتها.

وإذا كان من الأقوال المأثورة أن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فإن تناولنا الموجز للشخصيات التي نعتزم تحليل بعض آثارها كنماذج لبعض الاتجاهات الفكرية والثقافية لعهد هذه الدولة إنما يندرج في مفهوم ما لا يترك كله :

والشخصيات التي نفكر في تناولها بعد شخصية أبي عنان بوصفها تمثل إلى حد ما مدرسة ملوك هذه الدولة في مجال الكلمة هي بالخصوص شخصيات أبي العباس الجزنائي، والبرجي وابن جروم، والمكودي، بوصفهم يمثلون كل من زاوية خاصة، شعراء وأدباء هذا العصر، مذكرين بادئ بدء بأن اختيارنا لهذه الشخصيات لا يعني أنها الأفضل أو الأحسن، وإنما هو اختيار لمجرد التمثيل ومن أجله فحسب.. عن طريق تجميع الآثار وعرضها بعد مداعبتها بما يعن من نقد أو تقريظ.

وأبو العباس الجزنائي هو أحمد بن شعيب الجزنائي أصلا، نسبة إلى قبيلة جزناية البربرية إحدى قبائل الريف الغربي الفاسي مولدا ونشأة ودراسة وإقامة التازي دارا.

ثم إن كانت فاس مسقط رأس أبي العباس الجزنائي، وبها شهد النور أول مجيئه إلى هذه الدنيا فإن تاريخ ولادته بالضبط مجهول، شأن غالبية رجالات الثقافة والفكر المغاربة، كما ذكرنا مرارا.

وتسكت المراجع التي بين أيدينا والتي أوردت اسم الرجل ضمن من ترجمت لهم عن هذا التاريخ، كما تسكت بالتالي عن مرحل نشأته الأولى مكتفية في كل ذلك بالإشارة إلى أنه تابع دراسته بمسقط رأسه فاس وأن من أبرز أساتذته الذين تتلمذ لهم العالمين الجليلين :

1) أبا عبد الله بن عمر بن رشيد السبتي الفهري الإمام الحافظ الواعي الخطيب المصقع المولود سنة (657 هـ) بسبتة والمتوفى بفاس فاتح محرم سنة (721 هـ).

2) أبا عبد الله محمد بن محمد بن داوود الصنهاجي الفاسي المعروف بابن آجروم المولود بفاس سنة (672 هـ) والمتوفى بها سنة (723 هـ).

وعليه فإذا كان من المحقق أن وفاة هذين الأستاذين حدثت ـ كما أشرنا قبل ـ ما بين (721 هـ) و (723 هـ). وإذا قرنا أنه من غير المقبول في تلك العهود، أن يسمح بالتلقي على كبار العلماء لغير الراشدين من الطلاب أو البالغين منهم على الأقل إلا في الحالات الاستثنائية منها حالة صاحبنا قطعا.

وإذا فرضنا أن عمر هذا الرشد أو البلوغ في المتوسط بالمغرب ما كان ليتم قبل السادسة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر على الأقل.

وإذا فرضنا بالإضافة إلى ذلك ـ وتجاوزا ـ أن صاحبنا أبا العباس الجزنائي جلس للتلقي على شيخيه دينك في العقد الأخير من شيخوختهما وحياتهما.

فإن تاريخ ولادة صاحبنا يمكن تحديده فيما بين أواخر العقد العاشر من القرن السابع وبين أوائل العقد الأول من القرن الثامن الهجري على أبعد تقدير.

خصوصا إذا أدخلنا في حسابنا أن الرجل كان في خدمة السلطان أبي سعيد عثمان بن يعقوب ابن عبد الحق المريني الذي تولى الحكم بين سنة (710 هـ) السنة التي قضى فيها سلفه السلطان أبو الربيع والسنة (731 هـ) وهي السنة التي لفظ فيها هو آخر أنفاسه...

وعلى هذا الاحتمال يكون صاحبنا قد شب مواكبا أهم أحداث تقعيد الملك المريني وواكبت نشأته العلمية الطفرات الهائلة التي كانت تحققها هذه الدولة أيا مئذ في ميادين الفكر والثقافة، والتي كان بدأها أبو مخدومه الأول يعقوب بن عبد الحق بتأسيسه المدرسة الفاسية ووقفه عليها قيم الكتب وجليلها في مختلف العلوم والفنون. والظاهر أن الرجل كان شغوفا شديد الشغف بالعلم، وتلقيه من أفواه أئمته الكبار الأعلام إذ في هذا الإطار كانت رحلته المحققة الوقوع، المجهولة التاريخ إلى تونس للتتلمذ في علوم الطب والهيئة على الشيخ يعقوب ابن أحمد راس.

ويذكر بعض المؤرخين رحلة أخرى للرجل في اتجاه الأندلس دون أن يشيروا صراحة لا بالغاية منها، ولا إلى من لقيه هناك من الرجال.

على أنه إذا كانت هذه الرحلة هي نفس تلك التي أشار إليها ابن الخطيب في كتابه (ريحانة الكتاب) حين قال : ورد على الحضرة في خدمة لبعض الولاة، فرأيته رؤية لم تنهض إلى المحاورة والكلام والمخاطبة، بما يجب لمثله من الأعلام، لحود هذا الباعث عندي في العهد المتقدم، ولم ألبث أن عضضت يد التندم أسفا على ما ضاع من لقائه، واجتلاء الفوائد من تلقائه.

ثم وقفنا قليلا أمام فقرة ابن الخطيب التي قال فيها : (لحود هذا الباعث عندي في العهد القديم) وأبحنا بالإضافة إلى ذلك لخيالنا أن يتصور حدوث هذه الرحلة إلى الأندلس في زمان كان ابن الخطيب في أوائل خطواته في ميدان التفتح العلمي، مع عدم إغفال أن ابن الخطيب من مواليد سنة (713 هـ) إذا أدخلنا كل ذلك في حسابنا أمكن أن نقرر أن رحلة أبي العباس هذه إلى الأندلس لم تكن قطعا بقصد التلقي والدرس، وإنما كانت في إطار مهامه السياسية لمخدومه أبي سعيد على ما نرجح، فقد كان استنجد به الأندلسيون حين ضيق عليهم الخناق (بطرة بن شانجة) ملك الإسبان، وأوفدوا إليه بعثا بهذا الصدد، وإن رفض الاستجابة إليهم واستغاثتهم حين رفضوا تمكينه من أميرهم عثمان بن أبي العلاء، فلا يبعد والحالة تلك ـ أن يكون أبو سعيد أرسل صاحبنا الجزنائي ـ إلى هناك لاستطلاع الأحوال ومعرفة ماجريات الأحداث.. خاصة وقد ذكر التاريخ كيف أن أنجادا من بني مرين لبوا

نداء الأندلسيين وشاركوا في حملة شنها عثمان بن أبي العلاء ذاك على الإسبان وبصحبة جماعة يسيرة من المجاهدين سنة (719 هـ) ولقي فيها ابن أبي العلاء مصرعه رحمه الله.

ويستفاد من التحليلات العديدة والرائقة التي أزجاها له كل من تناولوا الحديث عنه أنه كان موسوعة علمية شأن العلماء في تلك الأزمان، حيث كانت فكرة التخصص تعني لديهم قلة الزاد وضيق العطن في الميدان الفكري، وهكذا يجمع رجال التراجم على وصف الجزنائي بالمشاركة العلمية في جميع الميادين، وفي كل المجالات الفكرية التي كانت معروفة لعهده، وإن نبهوا إلى تفوق باعه وبراعة إدراكاته في خصوص علم الطب والهيئة والفلسفة، والكيمياء، إذ يقول ابن خلدون عن موسوعتيه : (وقد برع في الأدب واللسان والعلوم العقلية من الفلسفة والتعاليم والطب وغيرها). وعن هذه الموسوعية أيضا يقول لسان الدين بن الخطيب، في كتبه : (ريحانة الكتاب)، (حاز من كل فن نصيبا، ورمى إلى كل غرض سهما مصيبا، واستمطر كل عارض وديمة، من العلوم الحديثة والقديمة، فبرع في فنونها وبهر، وحذق الطب منها ومهر وبلغ في صنعة النبات درجة الأثبات).

أما عن خصوص براعته الفائقة وتفوقه الملحوظ في خصوص علوم الطب والصيدلة والكيمياء و الفلسفة فيقول ابن خلدون : (نظمه السلطان أبو سعيد في جملة الكتاب، وأجرى عليه رزق الأطباء لتقدمه فيه، فكان كاتبه وطبيبه، وكذا مع السلطان أبي الحسن بعده).

ويقول ابن الخطيب عن هذا التخصص وتفوقه فيه : (من أهل المعرفة بصناعة الطب وتدقيق النظر فيها، وتهتك في علم الكيمياء، وخلع فيه العذار...).

ويقول صاحب الجذوة ابن القاضي، بعد ذكره لنبوغ الجزنائي الأدبي : (والغالب عليه العلوم الفلسفية، وتهتك في علم الكيمياء وخلع فيها العذار).

وإذا كان من الأمثال المأثورة أن كل ذي نعمة محسود، فإن صاحبنا الجزنائي، وقد ضرب بالسهم الوافر في كل ميدان، باعتراف النصوص التي أوردناها سابقا، واستطاع كما يقول ابن الخطيب (أن يرضى بالانتماء إلى العلم والانتساب عن الاكتساب.. مضيفا بأنه ما أهمه الدهر بألوانه ولا ثناه عن شأنه، وعانى في حركته وانتقاله مشقة اعتقاله، وخلص خلوص الحسام بعد صقاله). فإن أبا العباس الجزنائي هو الآخر لم ينج من كيد الحساد، وتآمر الحاقدين، فقد نقموا عليه مكانته من رؤساء الدولة، واستعظموا عليه حظوته لدى سلطانيها : أبي سعيد وابنه أبي الحسن، ولدى كل أفراد هذه الدولة، خاصة، وقد أصبح - والتعبير لابن الخطيب : (من كتاب ملوك المغرب) تطرى عليه الخناصر إذا عدوا، وقد خوله قصب السبق إذا حضروا في الحاضرة واستدوا).

وإذا كانت نقطة الضعف التي يمكن أن يـوتى منها عظماء الرجال لتلك العصور - بل وإلى الآن في كل المجتمعات المنغلقة على نفسها - هي تهمة وهن العقيدة الدينية وعدم التقيد بما اصطلح الجامدون والغوغاء على تسميته علما ودينا، لدى أولئك العظماء فإن أبا العباس الجزنائي حيكت حول عقيدته الدينية أقاويل، حتى غامت سماء علاقاته مع السلطان أبي الحسن سحابات من الشك أوشكت أن تتحول إلى سوء تفاهم بين الرجلين.

وإذا كان ابن مرزوق صاحب كتاب المسند في محاسن أبي الحسن، حاول - حين تعرضه لهذا التوتر الذي ران على علاقة الرجلين السلطان أبي الحسن وطبيبه الجزنائي - أن يبعد عقيدة الطبيب عن هذا المجال، إذ قال : (وكان مولانا رضي الله عنه ينفر منه لموجب، الله أعلم بحقيقته، ولا يبدو على ظاهره ما يدل على طعن في طريقته في المعتقد، ولقد خبرته وذاكرته وباحثته علم الله غير مرة فما أطلعت - والله - منه إلا على ما يرضي) فإن أصل النفور بين الرجلين موجود وأن الطعن في عقيدته قد كان ويرجع ابن الخطيب أسباب النفور إلى شدة تعلق الجزنائي بعلوم الفلسفة والكيمياء، إذ أن هذه العلوم، وإن لم تبغض من جميع أفراد بني مرين فإنهم، مراعاة للرأي الشعبي العام، وللطبقة الجامدة من الفقهاء لم يستسيغوا ....الأشتغال بها، أو على الأقل، ما كان ينبغي لهم أن ينظروا إليها بعين الرضى، ولو في الظاهر، يقول ابن الخطيب : (والغالب عليه العلوم الفلسفية وقد مقت لذلك). ولكن ابن الخطيب وَاهِمٌ، فإن الجزنائي كان

حيث لا تطا له الأحداث، ولا ينال منه ارتياب، كما سنتبين من بحثنا لحياة الرجل وآثاره.

آثار الجزنائي :
أولا النثر :

ذلك أنه وإن يكن أبو العباس أحمد بن محمد بن شعيب الجزنائي من أدباء المغرب الذين غمطت حقوقهم، ولم ينالوا ما يستحقونه من دراسة واعتبار، ولم يثيروا أي انتباه، وبشكل فاضح، حتى إن المرحوم أحمد النيشي في محاضرته عن شعراء فاس، التي كان ألقاها بثانوية المولى إدريس بفاس الأربعاء سابع عشر دجنبر 1942، ثم طبعها بعد في كتيب، لم ينشر للجزنائي، مع أنه ذكر الكثيرين من الوافدين على فاس من الأندلس والقيروان. فإن الأستاذ عبد الله جنون في كتابه النبوغ المغربي، ترجم له بما نقله من جذوة ابن القاضي، ثم خص له بحثا مستفيضا نسبيا في إحدى نشراته التي كان يصدرها في كتيبات تحت عنوان (مشاهير رجال المغرب).. كما أننا نجد في الإحاطة لابن الخطيب، وفي كتابي : الجذوة، ودرة الحجال لابن القاضي، جذاذات من آثاره، ونتفا من أخباره، تجمع كلها على الاعتراف بقوة عارضته، وكثرة تفوقه على كل أقرانه ولداته في سائر المجالات الأدبية والعلمية التي كانت معروفة في ذلك العهد.

وإذا كانوا لم يوردوا شيئا من آثاره في المجالات التي أجمعوا على أنه مهر فيها وبهر من طب وفلسفة وكيمياء، فلأنها إما ضاعت مع الرجل غداة لقي حتفه بالطاعون بتونس سنة 749 هـ أو 747 هـ حسب رواية (درة الحجال)، صحبة من مات من علماء أبي الحسن مع عدم ذكرهم أنه خلف بحوثا ما، أوضح تآليف خاصة كان أخرجها للناس مع إصرارهم على تزايد اهتماماتها الخاصة بعلوم الكيمياء، وإلى درجة تبادل الكتب والرسائل مع المختصين في هذا الفن مما يؤكد أن الرجل كان لابد أن يتوفر على دراسات وبحوث خاصة في الموضوع، إن لم تكن مبتكرة فلا أقل أن تكون مشتملة على آرائه الشخصية انتقادا أو تقويما أو تقريظا وتصحيحا، وإما لأن الإهمال الذي كان يلقاه هذا النوع من الدراسات، لا من خصوص رجال الكتب التراجم والطبقات، وإنما أيضا وبالدرجة الأولى من محترفي الثقافة، وكهنة الخرافات، كان من القوة والنفوذ بالدرجة التي قيل إنه كان السبب في النفور الذي كان لو حظ في ظرف ما، بين السلطان أبي الحسن، وصاحبنا الجزنائي، هذان السببان قد يفسر أن عدم إيراد شيء من آثاره في هذه الميادين...

ثم رغم كثافة التعابير التي وصف بها انهاكه في علمي الكيمياء والفلسفة اللذين كانا يعتبران يومئذ من العلوم المشبوه فيها، وفي أصحابها من أمثال ابن الخطيب (وتهتك في علم الكيمياء وخلع عليه العذار) فإننا نستبعد أن يكون ذلك النفور المزعوم بين السلطان أبي الحسن وطبيبه الجزنائي الذي قيل إنه من أجل اشتغال هذا الأخير بعلم الكيمياء، إنما هو مجرد إيهامات قصد بها تطمين أعداء هذا النوع من العلوم الذين كانوا ـ قطعا ـ وبكثرة من بين أفراد حاشية أبي الحسن، وإظهار عدم رضاه الكامل على طبيبه الخاص المتهتك في علم الكيمياء، حتى لا يتعرض هذا السلطان أبو الحسن لانتقادات أعداء هذا العلم من حاشيته التي كان يتألف معظمها من رجال العلم والفقهاء وأرباب الفتيا وأهل الحل والعقد، إذ لو كان أبو الحسن يستنكر حقا وعليا الاشتغال بعلوم الفلسفة والكيمياء لما سمح لنفسه أن يتخذ هذا الجزنائي المتهتك في هذا العلم، أخص من بطانته، ويصحبه في حله وترحاله في إقامته وظعنه، أو على الأقل لما سمح لهذا الطبيب أن يخلع العذار في هذا الباب ويتهتك، ويتبادل الأشعار مع أربابه وحذاقه من أمثال أبي جعفر بن رضوان الذي متن صداقته به وعمقها بسبب هذا الانهاك منهمكا في هذا العلم المبغض لأبي الحسن.

فقد أورد ابن خلدون اهما الجرد

أوقات، معتل النيم بها
متشفيا بالبان والرند

يتلو أحاديث الذين هم
قصدي، وإن جاروا عن القصد

أيام سمر ظلالها وطني
منها، ورزق مياهها وردي

ومطـــارح النظرات في رشـــأ
أحـوى المــدامـع أهيف القـــد
يرنـو إليـــك بعين جــاريـــة
قتــل المحب بهـــا على عمــد
حتى أجـــد بهم على عجـــل
ريب الخطـوب وعـاثر الجـــد
فقــدوا، فمـــا وأبيـــك بعــدهم
عيشي شفى إلا على الفقـــــــد
وغــدوا دفينـــا قــد تضنـــه
بطن الثرى وقرارة اللحــــــــد
ومشردا من دون رؤيتـــــــــه
قـذف النـوى وتنـوفـة البعــد
أجرى على العيش بعـــــــدهم
إني جرعت حميهم وحـــــــدي
لا تلحني يـــا صـــاح في شجني
أخفيت منـه فـوق مـا أبــدي
بـــالقربى، لي سكن يــــوؤبني
من ذكره سهـــد على سهـــد
فرخـــان قـــد تركا بضيعـــة
روئت عن الرفـــداء والرفـــد

ومما وجهه الجزنائي من شعر إلى أبي جعفر بن رضوان هذا وفي الموضوع نفسه، وقد كانت توطدت الصداقة بينهما الأبيات التالية :

رعى اللــه وادي شنيـــابـــة
وتلـك الغـدايـــا، وتلـك الظـلال
ومسرحنـــا بين خضر الغصـــون
وودق الميـــاء وسحر الجـــلال
ومرتعنـــا تحت أدواحـــه
ومكرعنـــا في النيرالـــــز لال
نشـاهـد منهـا كعرض الحسـام
إذا مـا أنثنت فـوقـه كالعـوال
وللـــه من در حصبـــائــه
لال وأحسن بهـــا من لـــلال
وبلبلـــه في ستـــور الغصـــون
كخـود ترنم فـوق الجمـــال
وأسحـــاره كيف رقت شـــذى
وصـح النسيم بهــا في اعتــلال
تطـــار حتى برمــوز الكنـــوز
وتسفر لي عن معـــاني المعـــال
تبـــادلني في شجـون الحـــديث
ويـــا طيب كل كسحر حـــلال
فـــألقـط من فيـــك سحر البيـــان
مجيبـــا بــه عن عـويص الســؤال
أفـــدت التي دونهـــا معشر
كثير المقـــال، قليـــل الســؤال
فـــأصبحت لا أبتغي بعـــدهـــا
ســواك وبعـــدكهـــا لا أبـــال

لكل ذلك فلا يمكننا أن نصدق الزعم بأن أبا الحسن ـ كغيره من ملوك بني مرين ـ كان يعادي علم الكيمياء أو علم الفلسفة، خاصة ونحن نعرف من شغف أبي الحسن بالعلم والعلماء ـ وقد عد هو نفسه من فطاحلهم وأفذاذهم ـ ما جعله لا يستغني عن مرافقتهم طرفة عين، كما نعلم أن التفتح العلمي كان في أيام هذه الدولة، وفي خصوص عهد أبي الحسن هذا وأيام ابنه أبي عنان قد قطع أشواطا عظيمة وأصبح من الشمولية والاتساع بحيث ما كان أبدا ليضيق عن علم الكيمياء والفلسفة.

وأن يكن عدم إيراد أولئك المؤرخين للتراجم وطبقات الكتاب والعلماء لأي شيء من آثار الرجل النثرية في أي أبواب من أبواب المعرفة، ولو حتى في غير ميدان الكيمياء والفلسفة، مما يدعو حقا إلى طرح العديد من الأسئلة عن سبب هذا الإغفال سيما وقد أهملوا حتى تسجيل أفكار الرجل في علم الطب الذي برع فيه، وكان المهنة التي يمتهنها ويوصفها أو على أساسها احتفظ له بمركزه المحترم في حاشية أبي الحسن بعد حاشية السلطان أبي سعيد، فهل مرد ذلك لما وقر في أذهان الناس، منذ أن بدأوا يسجلون الكلمة، من أن

الآثار النثرية غالبا ما تتعرض للضياع لصعوبة حفظها واستظهارها عن ظهر قلب، وأن الآثار الشعرية على العكس من ذلك أعلق بالأذهان، وأسير على اللسان، وأقرب إلى الحفظ والإتقان، وإهمال هذا الجانب من آثار الجزنائي يجعل كل مقارنة قد نحاول أن تقوم بها بينه وبين لداته ومعاصريه ممن كانوا يتعاطون صناعة الأدب والفكر أصعب من المحال أعز مطلبا من بيض الا نوق...

إلا رسالة طويلة أرشدتنا إليها البحاثة العلامة المرحوم محمد العابد الفاسي محافظ خزانة جامعة القرويين العامة، وكان وقف عليها حين اكتشف مخطوطة كتاب (نثير الجمان في نظم فحول الزمان) لابن الأبن الأحمر الأمير إسماعيل بن يوسف بن محمد، بدار الكتب المصرية، قبل أن يتولى تحقيق هذه المخطوطة الأستاذ محمد رضوان الداية وينال على تحقيقها درجة الماجستير في الآداب، وقد صدرت هذه الرسالة بقطعة شعرية رائعة قوية السبك، متينة الأسلوب، كأن الجزنائي تحدى فيها أولئك الذين كانوا يستنكرون عليه المهمة المنوطة به كرئيس ديوان كتابة السلطان - وهو البربري الأصل، في عصر كان يعتقد فيه أن من لا ينحدر من العنصر العربي لا يستطيع أن يحقق في ميدان الفصاحة والبلاغة مكانة ما، فكيف بالتفوق فيها والاضطلاع بأعظم أعبائها وأجل مهامها، فأراد صاحبنا أن يسكت ألسنة المنتقدين بإنشاده بائيته هذه والتي حاول - فيها أن يظهر - أن يبز فيها بائية أبي تمام في فتح عمورية، وبائيتي أبي فاس الحمداني في ذم الزمان وتقلباته وأهواء الناس ومواقفهم من تطورات الأحداث البائية الأولى تلك التي أنشدها وهو أسير في يد الروم، والتي منها :

أمـــــا لجميـــل عنـــــدكن ثـــواب
ولا لمسيء عنـــــدكن متــــــاب ؟
والحـــظ أحـوال الـزمـــــان بمقلـــة
بهـا الصـدق صـدق الكـذاب كـذاب
بمن يثــق الإنســـــان فيا ينــوبــــه
ومن أين للحر الكريم صحــــــاب ؟
وقـــد صـــار هـــذا النـــاس إلا أقلهم
ذئـــابـا علـى أجســادهـن ثيــاب ؟

والثانية تلك التي منها :

تكاثر لــــوامي على مــــــا أصـــــابني
كأن لم تنب إلا بــــــأسرى النــــوائب
ألم يعلم الـــــــذُلان أن بني الـــــوغى
كـذاك سليب بـالرمـاح وسـالب ؟
إذا اللــــه لم يحرزك ممـــــا تخـــافــــه
فـلا الـدرع منـاع، ولا السيف قـاضب

وقد لمح الجزنائي في بائيته أيضا إلى بائية المتنبي التي منها :

يهــون على مثلي إذا رام حـــــاجـــــة
وقـــوع العـــوالي دونهـــــا والقـــواضب
كثير حيـــــاة المرء مثـــل قليلهـــــا
يـــزول، وبـــــاقي عمره مثـــل ذاهب

☆ ☆ ☆

وبالمناسبة نذكر أن انتقاص العنصر غير العربي فيا يخص الشعر والأدب بله التفوق فيها، وكون هذه الفكرة كانت شائعة ومسلما بها في تلك العهود، دفع حتى ابن الأحمر - بعد شهادته للجزنائي بالسبق والتجلي، وتحليته له بهذه الكلمات المعبرة : (سابق ركض في ميدان الشعر فجلى، وماهر طلع في سماء الإجادة فتجلى، له في الطب قدم في صحته وعلته رسخت، وفي أحكام النجوم آية بإعجازها سور الكلدانيين نسخت، وبرع في الحساب وأحكامه، وأصاب في الفقه وأحكامه، ولديه من الأصول حظ وافر، كا وجه النحو له سافر، والإنشاء أجرى في لوح الإحسان قلمه، وأطلع بين أجبال تنيقه علمه - (أقول دفعه ليقول : (ولو كان من الأعراب لشمل في شعرائها، وحمل راية الكلام في أمرائها، والبربر - كذا كذا - لا تقاس بالعرب، والتبر لا يماثل بالترب، والعجب من بربري الأصل يدري مدارك الأعراب ويأتي من الفصاحة اليعربية بالإعراب) وإن ختم ابن الأحمر عنصريته هذه المقيتة بقوله مستدركا في شبه اعتذار : (... إلا

أن خير الاتباع بها الانتشاء إذ قال الله تعالى : ﴿يوتي الحكمة من يشاء ومن يوت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾ فكأن الجزنائي بقصيدته هذه أراد - كما قلنا - الجام السنة أمثال هذه الغربان وأقامة الدليل على بطلان هذا الهذيان :

تقول تلك الرسالة التي لم يذكر من وجهت إليه، والتي مهد لها بقطعته العينية التي سنوردها لدى تعرضنا لآثاره الشعرية : والتي منها هذا الأبيات :

يـــامـوحشي والبعـــد دون لقـــائـــه
أدعـــوك مـن شحــــط وإن لم تـسمـع
فـــابعث خيـــالـــك تهـــده نـــار الحشـــا
إن كان يجهـــل من سقـــامي مـــوضعي
واصحبــــه من نــومي بتحفـــة قـــادم
فـــــذ استقــــل ردي بكم لم أهجــــع
كيما أطـــارحـــه حـــديث صبـــابتي
وتـصـــدق الـــدعـوى مقـــال المـــدعي
مـوقـــوف آمــــالي، ومسـنـــد لـــوعتي
وبـــلاغ أشــــواقي، ومرســـل إد معي

قد كان حنيني إلى سيدي أطال الله بقاءه، ومنى لقاءه، موصولا مع الاتصال، ودائما مع البكر والآصال، لا تلحقه فترة فاضل فيها عن هديه الواضح الأمم... وأظل فيها من سواه عـاكفـا بـأعلى صنم، ومنظر العيش أنيق، وغصن الشبيبة وريق، والدهر جمع ولم يحسن التفريق، ومسك العذار تحت ختامه، وماء الشباب في عوده، لم تفض العين بانسجامه، والدار حرية بما تهوى الأنفس، واليد مليئة بنظار العقار تصرفه في لجين الأكوس وشملنا المنتظم عقد على لبة الزمان، ولبالينا في مقلته كحل، وفي وجنته خيلان، فكيف وقد عاد الدهر بجوره وسطاه، فشتت عقد شملنا وسطاه، وأرانا من حدثانه عجبا، برد الشباب بيد مزيقيا، وتشمل الأحباب أيدي سبا، فهل كان الأمثل ظل القناة صولا هزته أريحية الشباب فالتقى طرفاه، وكصفح الحسام صقيلا فانقلب بصفحه حرفاه ؟ ورمانا الفراق مراميه شآما فانفردت يمانيا،

حتى لا نلتقي إلا بـالفكر، ولا نجتمع إلا في الـذكر، اللهم الاطيف الخيال كالبدر المتوهم، والليل في شية الجواد الأدهم، فقد نظم الكوكب لجيده عقدا، والتحف الظلماء بردا فكتمت منه صبحا مسفرا، وسرا عرفه في سوادها فكانت مسكا أذفر، واعتسف لمسافة الزيزاء، والأفق متشح بصارم الفجر، والجو معتقل عصا الجوزاء، والرامح قد أشرع سنانه، فخفف قلب الأسد ذعرا، وجرى دمع الغميصاء على العبور فكانت به المجرة نهرا، وذهبت تستبق الكواكب للمغارب، فجاء الفجر على قميص الليل بدم كذب، فقيل فجر كاذب، وافى فكان من تباشير الصباح، النوم متخبط في حبائل الأجفان يجاذبها، وقد علق الجناح، اعتيادا لطروقه مثواه، لاعيادا لمشوقه من بلواه، وقد طبع في طينة القلب، واعتورته نار الحب، فأقام ماثلا بين الجوانح، لا تعفيه الأنفاس العواصف، ولا الدموع الموافح، لا ينزل به طارق السلو وإن كان محل كريم، ولا يقيم فيه رسول العدل وإن كان فترة بين طوفان نوح ونار إبراهيم، ولو شاء لكانت بردا وسلاما، برد السلام أو هبة شمال، وبرود الليل أسمال، بليلة الجناح عليلة تنعش الأرواح، كليلة المسرى قد تطوفت معاهد حسان بين جلى وبصرى، وبثت لبثينه حال جميل، وجالت بالحمى فأذكرت إذخرا وجليل، وقضت لقيس من لبناه لبانة، فخلع عليها لقد كان فيها للأمانة، وألمت بالخمائل إلماما، فنحت الغصون اعتناقا والأزهار التثاما، وأطارت السجف عن الجذور، بل السدف عن البدور، فالتمس الصبح تلك الغرة، فاختلس منها نظرة، حتى خلصت إلى مثواي، وما تخلصت من بلواي، فظنتني من حوافيها نسالا، فغلبتني في الشمال يمينا وشمالا، فلما تنسمت نشرك في طياتها، وتوسمت بشرك من حليها، قلت : أسعيدية فأسعدي، إني لأجد ريحه لولا أن تفندي، وإلا فما عطر شذاك ! أصدقي، فقالت :» هو ذاك، فلقت : لها بعد الترحيب والتحية، وسكون هذه الأريحية، ما حال تلك الشيم المرضية، التي لو كانت نسيما لكانت الصبا، أو عصرا لكانت أيام الصبا قالت : كالزهر أشرقه الندى بمائه، والأقحوان غداة غب سمائه قلت : فالهمم العلية لا تبصر العلياء، اختلاسها، ولا تدركها التماسها، قالت : ما كنت أقفو ما ليس لي به علم فما لي ولأخيات النجم فمن لي بالمجرة أو فيها، فاعلم من فيها، فأسأل الكواكب

عن عدادها، فأنت حلف سدادها، قلت : فما حالك وحال الكمال والسيادة، قالت : بالحسنى وزيادة، قلت : جعلت فذالك، إنك خالطت سقيا فأعداك، فجئت سموها، وستعودين نسيا لمن أهداك فينكر سياك ويقول : ما وراءك ؟ وأين خلعت نصيفك ورداءك فقولي علي يعقوب هواك الذي لا يفتر على ذكراك المستشعر مع يأس السلو عنك ورجاء الدنو منك... فلان... والسلام الكريم يخص ذلك الحسب الصميم ورحمة الله وبركاته) انتهت الرسالة.

هذا وقد اشتهر عن الجزنائي بالخصوص فهمه الدقيق للنصوص، وفحصه المتزايد للأساليب وفرزه الصائب للسمين منها والغث بما يدرجه في زمرة نقاد الأدب المبرزين.

ولكن الذين أضفوا عليه نعوتا من هذا القبيل لم يوردوا قضايا عينية تثبت هذه الخاصية لدى مترجمنا سوى الحادثة الآتية، التي لا يمكن - في نظرنا على الأقل - أن تكون وحدها دليلا مثبتا لما يزعمون، إذا أنها لا تعدو أن تكون مجرد ملاحظة عابرة، وإن وصفها وصاحبها بالناقد والنقد وصف يتجافى والواقع.

وتقول الحادثة - وكما يرويها ابن خلدون فيما يحكيه عن أبي القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية - ذاكرت يوما صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان المريني، وكان المقدم في البصر باللسان لعهده، فأنشدته مطلع قصيدته لأبي النحوي ولم أنسبها إليه، وهذا المطلع هو :

لم أدر حين وقفت بالأطلال
ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال لي على البديهة: هذا شعر فقيه، فقلت له، ومن أين لك ذلك ؟ قال من قوله (ما الفرق ؟) إذ هي من عبارات الفقهاء، وليست من أساليب كلام العرب).

تلك هي الحادثة، وهي في نظرنا وإن دلت على تذوق، أو بتعبير أدق على معرفته بميزان الأساليب المختلفة باختلاف الموضوعات المعالجة لذلك العهد، فهي لا تصلح بحال أن تكون قطعية الحجة على براعة صاحبنا في مجال النقد الأدبي.

ثانيا الشعر :

كان الشعر وسيبقى إلى أبد الدهر، كالموسيقى وأخواتها الفنون الجميلة اللغة العالمية التي تخاطب القلوب والأحاسيس وتدغدغ الأسماع والنفوس بفضل موسيقاه العذبة الشجية الحالمة وبفضل جرس هذه الموسيقى الهادئ المتزن المفهاف... وإذا كان الشعر، منذ وجد الإنسان - إذ هما توأمان لا ينفصلان - ليس إلا مجموعة الأحاسيس الصادقة التي تبلور رسوبات المجتمعات البشرية المتكاملة والمتكافلة بالرغم من التباين والتعارض الظاهريين، مهما تباينت السحنات وتخالفت اللغات واللهجات، وتباعدت الديار وتناءت الأوطان، وبالتالي تعطي تلك المجتمعات الصورة المرئية المجسمة لأحلام خلجات الإنسان، على لسان كلمات الشاعر، وعن طريق معاناته، ومن خلال عملية التفريغ التي يقوم بها التي يبرزها في هذه الإيقاعات الموزونة، والكلمات المعبرة، أقول إذ كان الشعر كذلك، فقد استحوذ على النصيب الأوفر من اهتمامات الإنسان، وأصبح إحدى قضاياه الكبرى والأساسية، ومن هنا واكب وجود أحدهما وجود الآخر، بل والتحما، حتى لم يعد في الإمكان قيام مجموعة بشرية دون إشعار تجسم اهتماماتها حسب الزمنكية الخاضعة للمناخ والبيئة والزمان والمكان... وهكذا يظل الشعر هو الجامع المشترك أو القاسم المشترك بين مختلف الخلايا الإنسانية المتساكنة على الأرض، ووسيلتها التعبيرية الأكثر وضوحا ودلالة واتساقا... ومن هنا كان الشعر من بين ما سجله الذين قدر لهم أن يشغلوا حيزا من الفكر البشري ويحتلوا زاوية من زوايا تاريخية.

وانطلاقا من هذه الحقيقة البسيطة، قد نستطيع أن نفسر ظاهرة احتفاظ السجل الثقافي بآثار رجاله الشعرية أكثر من احتفاظه بآثارهم من غير الشعر، بما فيها حتى الآثار التشكيلية، فإذا كانت آثار أثينا وروما وقصر فرعون (وليلي) وشالة، والوداية بالرباط مثلا قد عفى عليها أو على أكثرها تعاقب الملوين والجديدين، فإن أشعار (هوميروس) مثلا، وأشعار امرئ (القيس) ومهلهل، وحسان، في الغساسنة والمناذرة، وأشعار المتنبي في سيف الدولة، وكافور ما تزال

خالدة أمامنا ماثلة حية جياشة تتحدى الزمان وتطاول الأحداث.

وهذه الحقيقة البسيطة تصدق وإلى حد بعيد ـ على صاحبنا الجزنائي، فإن ضاعت آثاره النثرية كما أوضحنا قبل، فإن آثاره الشعرية، أو بعضها على الأقل ما تزال باقية تقيم الدليل على وجوده كشاعر.

وآثار الجزنائي الشعرية التي سلمت من الضياع، وأمكن العثور على بعضها المنثور هنا و هناك، هي من حيث الكم ذات حصيلة محترمة، إذ يتجاوز عدد أبيات المعثور عليه من شعره حوالي الخمسة والستين بيتا من شعر الغزل والتشبيب، إلا ما كان من قطعتين في رثاء جاريته (صبح) وأخريين في وصف نزهات بين الحدائق والأزهار، كما له القصيدة البائية التي أوردها له ـ وكما أشرنا قبل ـ ابن الأحمر في كتابه (نثير الجمان).

والغريب أن لا يحفظ تاريخ الأدب لكثير من الشعراء سوى هذا النوع من الأشعار أعني شعر الغزل والتشبيب، وهذا ولاشك راجع إلى أن اهتمام الناس بأحوال القلوب وأهواء النفوس، ونوازع الصدور أكثر وأعظم من أي اهتمام آخر سوى ذلك وأن الشعر بما يزخر به من موسيقى وجرس ـ كما قلنا ـ ربما يحمله إلى قرائه من لذة حالمة تنعش فيهم الآمال، وتطلق لخيالهم الجنح العنان، سيظل من ألذ ما تستعذبه الأسماع، وتنتشي بموسيقاه الأحناء وتنتعش بخياله الأرواح، وتملى سحره الفاتن الأخاذ العيون، وتستهوي رعشاته المفهافة المهج والقلوب.

ومن هنا حافظ الرواة ـ وهم أناس ذوو قلوب حساسة، ونفوس مرهفة جياشة ـ بهذا الشعر الذي يربطهم بالحياة، ويجعلهم متى رددوه يجدون طعما لهذه الحياة ونشوة للمرح بها، ومباهج للوجود بها.

وشعر الجزنائي فيه من الشعر موسيقاه وجرسه الأسران، ويحس قارؤه لذة ونشوة عارمتان، ذلك لأن ألفاظه اختيرت بعناية متزايدة، فأعطته لصورته مباني مرصفة في إبداع، ولمعانيه البسيطة أبعادا فيها من الشوق ألوان، ومن العاطفة المشبوبة أفنان.

وإذا كان في بعض مقاطعه تبدو عليه الصنعة، فإن هذه الصنعة نفسها عليها طابع العامل الصناع الخبير الذي يعرف جيدا كيف يساوق بين تلك الألفاظ فيما بينها وكيف يساوق بين تلك الألفاظ والمعاني الرائقة، التي صيغت من أجلها واتخذت قالبا لها، وهذه الصنعة نفسها تدل على أن الرجل كان يعبر عن معاناة شخصية مباشرة ولا يرمز لمجرد صور خيالية مبتسرة مقهورة مهزوزة.

وكانت مرثيتاه بالخصوص، تينك اللتان بكى فيهما حظه في جاريته (صبح) التي كان وهبها قلبه بعد أن كيفها تربويا، بتعليمها العربية وتحفيظها الأشعار والأخبار، وهي الرومية المنحدر كانت مراثي، رغم قصر نفسها، تعبر عن زفرات مشبوبة، وتعلن عن عاطفة صادقة الحب، شديدة لواعج الهوى، وقد أودعها في نفس الوقت رفضه لقيمة الحياة، وسجل فيها عبث هذا الإنسان، حين يتشبث، بهذه التي وصفت بحق بأنها متاع الغرور.

وفي قطعتيه الوصفتين اللتين راسل بها صديقه الكيبائي أبا جعفر بن رضوان، واللتين أوردناهما سابقا، دقة الوصف، وعلى طريقة ابن خفاجة الأندلسي إلى حد غير قليل، تحس وأنت تردد ألفاظها، وكأنك انتقلت على بساط من نور، إلى عالم مسحور، من عوالم عشايا الأندلس، ومجالسها الفواحة حبا وشبابا وانتشاء، وتحس في نفس الوقت تلك النغمة الحزينة الحبيسة التي تتهيب الانطلاق، وتتعثر في خفر واستحياء لتداعب خيالك، وتدغدغ أحاسيسك بما لا تستطيع الحروف إلا أن تحمل رعشاته وخلجاته دون أن تكشف عن حقيقته وأبعاده.

وبمقارنة كل ذلك بأشعاره التي حاول فيها التورية يلاحظ أن الرجل شاعر مطبوع، ويرفض طبعه التكلف والصنعة، إذ في بيتيه اللذين ورى فيهما وبها عن الكتب، تقاعست التجربة عن أداء مهمتها وناءت الألفاظ تحت حملها، وبدا جرسها الموسيقي نشازا يصم الآذان، ويمني النفس بخيبة مريرة.

لأن الشعر عندما يتخذ أداة ومطية للعلوم التجريبية والتطبيقية أو حتى النظرية يتحول إلى مجرد نظم لا قيمة له

ولا اعتبار في عوالم العواطف والأحاسيس الإنسانية، ولهذا فالجزنائي في شعره الغزلي والوصفي يبدو إنسانا ذا إحساس مرهف، أما في غير ذلك فهو ناظم يتلهى بتقتيل الوقت عن طريق التظاهر بترصيف المحسنات البديعية.

وبعد فنورد فيا يلي بعض النفحات الشعرية العطرة مما عثرنا عليه لصاحبنا الجزنائي.فمن بدائعه يشكو لواهج الشوق وحرق البين والفراق قوله :

يا موحشي والبعد دون لقائه
أدعوك عن شحط وإن لم تسمع
يدنيك مني الشوق حتى إنني
لأراك رأي العين لولا أدمعي
وأحس شوقا للنسيم إذا سرى
بحديثكم وأصيخ كالمستطلع
كان اللقاء فكان حظي ناظري
وسطا الفراق فكان حظي مسمعي
فابعث خيالك تهده نار الحشا
إن كان يجهل من سقامي موضعي

والبيتان الأول والأخير، ورد متتاليين في الأبيات التي مهد بها رسالته التي أوردناها سابقا ضمن آثاره النثرية...

وفي نفس المعنى نقرأ له هذه الأبيات :

أعلمت ما صنع الفراق
غداة جد به الرفاق ؟
وقفت منهم حيث للنظرات
والدمع اتساق
سبقت مطايام فما
أبطا بنفسك في السباق ؟
أأطقت حمل صدورهم ؟
البين خطب لا يطاق
عن ذات عرق أصعدوا
أتقول : دارهم العراق ؟
ما ضرهم ـ وهم المنى
لو وافقوا بعض الوفاق ؟
وتيامنوا عسفان أن يقفوا
بمجتمع الرفاق
قالوا : تفرقنا غدا
فشغلت عن وعد التلاق
عمدا رأوا قتل العميد
فكان عيشك في تفاق
أولى بجسمك أن يرق
ودمع عينك أن يراق
أما الفؤاد فعندهم
دعه ودعوى الاشتياق
اعتاد حُبّ محلهم
فرحيب صدرك عنه ضاق
واها لسالفة الشباب
مضت بأيام الرقاق
أبقت حرارة لوعة
بين الترائب والتراق
لا تنطفي ووردهُا
من أدمعي كأس دهاق

ومن نفحاته في نفس الموضوع قوله :

أيجمع هذا الشمل بعد شتاته
ويوصل هذا الحبل بعد انبتاته
أما لليالي آية عيوية
فتبشر ميتا الأنس بعد مماته
فتورد عيني بعد ملح مدامعي
برويته في عذبه وفراته ؟

وفي رثائه لجاريته (صبح) نقف له على هذه النفثات المصدورة :

يا صاحب القبر الذي أعلامه
درست ولكن حبه لم يدرس
ما اليأس منك، على التصبر حاملي
أيأستني فكأنني لم أيأس

لـــــــــــــا ذهبت بكل حسن أصبحت
نفسي تعـــــاني شجــــو كل الأنفس
يـــا (صبـح) أيـــامي ليـــالي كلهـــا
لا تنجلى عن صبحـــــــــــك المتنفس

ويقول في نفس الموضوع مخاطبا القبر :

يـــا قبر (صبـــح) حـــل فيـــك
لهجتي أسنى الأمـــــــــــــــاني
وغـــدوت بمـــعـــد غيــــابهـــا
أشهى البقــــــاع إلى العيــــــان
أخشى المنيـــــــــة أنهـــــــا
تثني مكانــــــــــــك عن مكاني
كم بين مقبــــــــور بفــــــــاس
وقـــــــابر بـــــــــالقيران ؟

ومن كلماته الشعرية في الصناعة البديعية قوله موريا بأسماء الكتب، والصنعة المتكلفة أظهرت محاولته هذه فاشلة شعريا فشلا ذريعا :

وبـــائـــع للكتب بيتـــاعهـــا
بـــأرخص الســـوم وأغــــلاه
في نصف (الاستـــذكار) أعطيتـــه
(ملخص العين) فــــأرضـــــاه

ثم هذه بائيته التي أوردها (نثير الجمان) ابن الأحمر، فقد حملها من ألفاظ الغريب وأساليب الغموض ما جعلها أقرب إلى شعر الأعراب والقصائد المذهبات، لأنه فيا يبدو، كان يقصد من رواء نظمها - وكما أشرنا - إثبات قوة عارضته، وأن البربر لا يقلون عن العرب إجادة نظم الشعر وهـذه هي القصيدة :

أحـــارســـل العتبي، فلست بعــاتب
حنــانيـك إن الـدهر أخبث صـاحب
عجبت من الأيــــام أني ألفتهـــا
مسالمـة الأيـام إحدى العجـائب
عرفت الليـــالي قبـل عرفـــاني النهى
وقـد أخلـدت فكري، ومـاطرّ شـاربي
ولا بست حـاليهـــا مـع الكره والرضى
وقـد شـاب رأسي وهي سـود الـذوائب
ومـارست أبنـاء الـزمـان فلم أجــد
أخـاثقـة، يـا جـار، غير التجـارب
مليـوت بـــالبغضـــاء إلا تملقـــا
ومـا هـو إلا مثـل إبســاس حـالب
يضيـق بهـــا رحب الفضـاء، وإنهـا
لجـــائمــة بين الحشـــا والترائب
إذا ذكرت ملقى عصـــاهـــا من العلى
ترامت إليـــــه دون ذكر العـــواقب
فـإن تسـألـو صعب الشكيـة قـاضيـا
فحيهـلا بي أو بسعـــد بن نـــاشب[1]
وسعت الليـــالي غفـــة وقنـــاعـــة
وقـــد ضقن ذرعـــا عن سني مـــآربي
وقضيتهـــا خمـــا وعرشين حجـــة
أصـدق ظني بـــالأمـــاني الكـواذب
فـا لي وللأوطـان ؟ هـل يطلب الجدى
من القطر إلا كائنـــا في الحـــائب ؟
ومـــا كنت أرضى أن أقيم بـــذلـــة
فكيف، ومـا ســدت على مـــذاهبي
ومـــا يطبيني أين نيطت تمـــائمي
علي فـــأوطـــاني ظهـــور الركائب
فـــإن صـح عن فـودئ جـون شبيتي
فـلامـح من عطفي جـون الغيـــاهب
ستـــألف مني البيـــد طـلاع أنجـــد
قليـــل همـــوم النفس جم المطـــالب
وشيحـــان لا تثني المهـــابـــة عـزمـــه
يخـوض غمـــارات الردى غير هـــائب
حليف سرى لا يسـأم البيـــد والسرى
طـوال الليــالي في عراض السبــاسب

---

1) سعد بن ناشب المازني شاعر مارد توفي سنة 110 هـ

أرجي بهـــا من عـــزمتي متـــوقـــدا
فـــأحسبني بعض النجـــوم الثـــواقب

خثيتـــا وترعـــاني النجـــوم كأنمـــا
تـــسابقني من خشيـــة للمغـــارب

وتقـــــدمني حتى أقـــول شمائلي
وأقـــدمهـــا حتى أقـــول : جنـــائبي

بمنخرق يثني العيـــون كليلـــة
طريـــح النـــوى، جم السرى غير لاحب

كأن جنى الظلمـــاء فيـــه ابن دايـــة
لأمن فراق البيـــد ليس بنـــاعب[2]

تخـــال بـــه زهر الكـــواكب جثما
وتحسب فيـــه البرق نـــار الحبـــاحب

فـلا جهـورى الرعـــد فيـــه بنـــابس
من الرعب إلا مثـــل صر الجنـــادب

ولا نـــاجم إلا قتـــاد، كأنـــه
براثن أســـد أو حمـــاة عقـــارب

وفي شعب الأكـــوار شعت كأنني
بهم في ذرى دو (سليـــك) المقـــانب[3]

إذا اعتكر الليـــل البهيم تنـــوروا
إضـــاءة مشقـوق العقيقـــة قـــاضب

ألا علمت سبـــل المعـــالي بـــأنني
سريت إليهـــا، حين كـلُّ مصـــاحبي

مـــع الليـــل إلا بـــأرقـــا متنـــورا
كطرفـــة عين أو كغمزة حـــاجب

وبين جفـوني - والكرى فيـــه جـــازم
بهم على خفض من العيش نـــاصب

فـإن شـاب نحـوى مـوهنـا فقعقعت لـه
خطى من عشـــار كالقسي، لـــواعب

قـــد استلبتهـــا البيـــد إلا بقيـــة
وكانت مُنيفـــات الـــذرى والغـــوارب

ألا يـــا اسلمي يـــانـــاق، ثم تقـــدمي
بنـــا، تصـدرى بـالرفـد ملأى الحقـائب

فلي أمـــل في آل فهر بن مـــالـــك
خـــلا ان حبي في لـــؤى بن غـــالب

وبعد فتلك مقتطفات من آثار الجزنائي الشعرية، وله قطع أخرى شيقة هي أندى من طل الأسحار على أوراق الأزهار، وأعذب من الماء الزلال على أفواه الظمأ في هواجر الأسفار تستحق مزيدا من العناية والدرس العميق، فعسى أن يتيح الزمان فرصة أخرى لنعود لتناولها بالتحليل من جديد، ومع ذلك فلا بد من ختم هذا العرض بهذه الأبيات التي انفرد بإيرادها صاحب كتاب (نثير الجمان) والتي قال فيها :

يـــا غـــائبـــا في الضمير مـــا برحـــا
داني محـــل الهـــوى إذا نـــزحـــا

لم تضر الصبر عنـــك جـــارحـــة
ولا فـــؤادي لسلـــوة جنحـــا

مستعبر المـــزن فيـــك أدمعـــة
يظـــل يبكيـــك كلمـــا سنحـــا

ولا أرى البرق عـــاد مبتهجـــا
بعـــدك، بـــل زنـــد شـوقـه قـــدحـــا

ومـــا يغني الحمـــام من طرب
بـــل يعلن النـــوح كلمـــا صـــدحـــا

هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن الجزنائي كان استشهد يوم عيد الأضحى سنة 749 هـ في الطاعون الذي اجتاح تونس مخلفا وراءه الآلف من الضحايا، رحم الله كل أولئك الضحايا رحمة واسعة وأسكنهم والجزنائي فسيح جناته...

فاس : عبد الكريم التواتي

---

2) ابن الداية هو الغراب.

3) سليك بن السلكة أحد الشعراء من شعراء الحماسة لأبي تمام.

غارة أبي عنان على لاقش

عام 756 هـ 1355 م

والسفارة المتبادلة لابرام الصلح بين المغرب والبرتغال

للدكتور عبد الهادي التازي

شاهدت أيام أبي عنان بعض الأحداث التي تتصل بالعلاقات المغربية البرتغالية، والتي لم يتعرض لها - على ما في علمنا - أي مصدر من المصادر المغربية باستثناء ابن الحاج النميري في كتابه (فيض العباب)[1].

والجدير بالذكر أن هذه المعركة لم تتعرض لها كذلك المصادر البرتغالية، حسب علمنا أيضا، وربما كان سبب هذا الاهمال استسلام البلاد لحروبها الأهلية، في أعقاب إجهاز ملك البرتغال ألفونصو الرابع على إينيش (INES) بعد أن اكتشف صلتها الغرامية بابنه الأمير دون بيدرو !

ويتعلق الأمر بالمعركة التي حملت في إفادة النميري اسم معركة لاقش (Lagos)[2]، وقد كانت من أكبر المعارك التي عرفها التاريخ الدولي بين السلطان أبي عنان والملك ألفونس الرابع.

ولا يمكن أن يأخذنا الشك فيما استأثر بذكره ابن الحاج النميري بالرغم من أنه لا يوجد - كما قلنا - في مصدر آخر... لأن مركز أبي عنان على ذلك الوقت كان من القوة والعظمة، على نحو ما قرأناه عند دراسة علاقاته ليس فقط مع مملكة قشتالة ومملكة أرغون وصقلية وجمهورية جنوة، ولكن كذلك مع مملكة البرتغال ولو أن الأستاذ عنان أهمل ذكر البرتغال كدولة كان لها على هذا العهد شأن مع المغرب[3].

وهذا هو النص الكامل لحديث ابن الحاج النميري عن هذا الهجوم :

«...ولما خرج مولانا - أيده الله - (السلطان أبو عنان إلى المصارة[4] (شوال 757 = أكتوبر 1356)، وكمل برءه الذي سر أهل البداوة والحضارة، طاشت بذلك الأخبار،

1) الاسم الكامل لهذا الكتاب هو : «فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب» لابراهيم بن عبد الله ابن الحاج النميري المتوفى سنة 770 = 1369، وهو يقع في 115 ورقة كبيرة : 25 - 18,5. وفي الصفحة عشرون سطرا، مكتوب بخط مغربي ملون، مزخرف الترقيم... ويحمل في الخزانة الحسنية رقم 3267، فهارس الخزانة الملكية، المجلد الأول. عمل محمد عبد الله عنان. الرباط 1400 = 1980.

2) لاقش : مدينة على المحيط الأطلسي في جنوب البرتغال غربي فارو وشرقي رأس فيشينطي (Vicente) التي يرد ذكرها في بعض الوثائق المغربية. ولعل رحمة الوقت حالة دون تحديد موقع هذه المدينة من لدن الزميل د. محمد بن شقرون الباحث في المعهد الجامعي للبحث العلمي الذي نشر هذا المخطوط مقدما له بدراسة جيدة...

3) د. التازي : الموجز في تاريخ العلاقات الدولية للمملكة المغربية مطبعة المعارف... الرباط 1404 = 1984 ص 73 - 76 التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المجلد السابع - المحمدية، فضالة، 1408 = 1987 عند الحديث عن علاقات بني مرين بممالك حوض البحر المتوسط وجمهورياتها...

4) تضبط بضم الميم وفتح الصاد وفتح الراء : وتعني المكان الذي تحضر وتدرب فيه الخيول والجياد (Stadium) دوزي.

الثاني في العقول المنادم كان من أفهم المعاني ويبني الألفاظ في الملوك
وعموم التوالي في الفقه وحوله ... بما طابت نعم جر بما طابت عمومه نظم خليفة
وجعله ... والقرآني الفقهي بما صلاح التي بما سماه المسلم لله أشبع التوارض
مما أنشئ الملك الناقي بالملك العاقب عليه وكم من **وأنه**
أشغل عن خروج القلم في وصف هذه الأنواع ... والخروج عن الحد الرحيم المتكلم
الموجب للعمل الخبر أنوار عنوة المعاني ... من جاء منها جامع بما العسكر
فلمعها ... وأنواع من اللغة أخص الأعمال أتمها فنفعها ... أكرم مولانا
أمره لله من بما نشر بها وأوضح لهم اسمه ... وانتهج أقوالها بلا غفلة عمره وما عال
بالخواتم .:. **رجع الحديث** وكما خرج ... أتاه لله بالقطار وكمل
... الملوك من أهل البراءة والنصار ... بذلك في أخبارهم ومما من أجله
فأنظارهم وأنظاره ... عصر ... إلى العموم وتلك في الخطاب حتى
بحر بنات الكرم ... بالزوع في كل نوع ... أكفائهم ما انشعاب
وقوع ... وعامة طعامهم كان الشريع المؤنة ... وما يغني من جوعهم وأهل كل
بحر منهم نظرا إماما ... إلى قلوب أحمت العربية على لله تعالى أعمالهم ومآثرها
نعم الغيث عن قوم أتى بما رضي ... واشتراء فيما أعمل فيه من نجا وأغضى
وهما بنوا حصونه لله منتشرة ذات اليمين وذات الشمال ... من مساجد الخلد
ومساعر الغفار ... مالسنة ملكه إليهم فإذا هو يلها أنظار ... الكشف وأعوانه
نادي للجماعة الذي يموه ذوه في السلام وسماه أعماله من كل منهم من سابع
حجر وأعمالهم ... للجماعة في سبيل الله أخص أيامهم ... مثله مثل الطعام
الطعام للنوم يقعم عن كلامه وأصابهم ... غير أنها أمام أمامه ... هم يأتيهم

وتهادت أحاديثه الأقطار، واتصل ذلك بالروم[5]، فصرف هممهم إلى الهموم، وسلب الإطراب حتى عن بنات الكروم، ونفث بالروع في كل روع، ورمى أكبادهم بانشعاب وصدوع، وغادر طعامهم كالضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، وأذاق كل عين منهم ثكل كراها، وسرى إلى قلوب أضرت الفرية على الله قفراها، وشاهدوا بظهر الغيب عزم مولانا الأرضى، واشتداده فيا أغمض فيه من الإرجاء وأغضى، وعاينوا جنود الله منتشرة ذات اليمين وذات الشمال، ناهدة بأجذال الجلاء ومساعد القتال، ملبية داعي النزل، قاذفة بالأبطال، لا الكشف ولا الأعدال، نافرة للجهاد الذي هو ذروة الإسلام وسهام الأعمال، من كل مشمر عن ساعد جد واعتزام، ملتزم للجهاد في سبيل الله أحسن التزام، فمثله مثل الصائم القائم الذي لا يفتر عن صلاة ولا صيام، تحت رايات إمام أي إمام، مظهر لبأس واقدام، منزه وإن كانت خلقه الحسناء، عن ذام، سام وحام سيوفه دوام، كفيلة للعز بدوام، لأبعد غاية من قصد ومرام رام، وغيث نواله عند تعاطي رؤوس وهام بهام، كما أن بحر بأسه ذو التطام، وإرهابه لعداه في يقظة ومنام نام، فعند ذلك نظر ملوك الروم في عواقب أمورهم، وتغلغلت مخافة مولانا، الخائف من الله تعالى، في صدورهم، وعلموا أنهم درئة لرماحه ولحم على وضم لصفاحه، وأسماء تتغير لدخول عوامله، وأدلة تتزيف بالطعن في مقدماتها، لكن بذوابله، فأول من بادر إلى الاستخذاء، ومديد الاستجداء ملك برتغال (Roi du Portugal)، فقال من الخير ما قال، ومن عثرة أعذاره استقال، وكان (ملك البرتغال) شيخا أحوذيا، أكل الدهر عليه وشرب مليا، فطلب أمانا، وخاف سنان رمح لا يزال مطعانا، ولم يكن قبله ـ وهو هرم ـ يخاف سنانا، وقد كان مولانا، أيده الله، وجه في العام الماضي إلى بلاده أسطوله، وأقدم عليه ـ من سلا ـ أجفانه، التي عرفت عرض البحر وطوله، فجاءها خضاره بالمنايا الحمر، وأسمعتها الحرب أراجيز العجاج لكن من البحر، وما كان بأسرع من فتح الأجفان للاقش (Lagos) التي كانت زمردة خضراء بتلك البلدان، فلم تنفع من سم الطعان، حين عضت حيات لكن من المران، واستولى المسلمون،على ما كان فيها النساء والولدان، وسلطوا القتل على الكهول والشبان، وخلعوا ألسنة النواقيس بجلم الأذان، وكسروا أصلاب الصلبان[6] وصيروا الشنت : (Saint ?) المعبود، فكيف بعابديه، إلى النيران، فلا غراب في البر إلا نعق بينهم، ولا غراب[7] في البحر إلا جاء بحينهم، فكلاهما شاب صفو عيشهم بالأكدار، فأعجبوا ليوم شاب فيه الغراب يا أولي الأبصار !

وخبر هذه الحركة تقدم في هذا الديوان، وأوردناه مشروحا على قواعد الإيضاح والتبيان، فخاف ملك البرتغال أن يطرق بلاده المرة بعد المرة، وأن يخرب ملكه الراكبون ثبج البحر ملوكا على الأسرة، فوجه إرساله إلى مولانا أمير المؤمنين أيده الله راغبا في الصلح رغبة المتذلل الخاضع، وطالبا للمهادنة التي أغمدت السيوف فأمنت نصبة مولده من القواطع، وأفصح أنه ما طلب ذلك إلا نظرا في المصالح لنفسه ورعيته، وأنه خاف عليهم من الحروب التي تحول بين المرء وأمنيته، كما خاف على بلاده من الخراب، وإقامة سوق الطعان بأسواقها والضراب، ولم يظهر في ذلك كله ناموسا، وصدق سن بكره فكان حرفه مجهورا لا

---

5) لم يكشف النميري عما يقصد بكلمة الروم على عادة المؤلفين المغاربة القدامى : إسبانيا ؟ أو البرتغال ؟ أو إحدى جمهوريات الحوض المتوسط ؟ ولكن القصد لم يلبث أن ظهر عندما صرح بملك البرتغال.

6) يبدو لي أن جرسا من هاته الأجراس كان من نصيب المسجد الأعظم في أزمور مولاي بوشعيب بينما الباقي كان من نصيب جامع القرويين من فاس.

د. التازي : جامع القرويين : ج 2 ص 328 وما بعدها، طبعة دار الكتاب اللبناني 1973 (محاضرة حول أزمور مولاي بوشعيب ربيع 1986.

7) القصد إلى المركب الخاص الذي يختص باسم الغراب (Gurapas) ويجمع على أغربة : قال أبو عمرو بن حربون : في السيد الأعلى أبي حفص الموحدي :

بحر كأن أبا حفص بصهوته ... لقمان والمركب الجاري به لبد

تعجبوا من غراب فوق غاربه ... ثهلان ذو الهضبات الشم أو أحد !

ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالأمامة، تحقيق عبد الهادي التازي طبعة أولى، بيروت 1964 صفحة 255.

وأقرأ من [illegible] وإن كانت خالفة المشايخ عن أمر [illegible] ما جاء من الناس جاء [illegible]

[illegible] كتبه الذي [illegible] ما تعرف غايته من فضل ومن أمر [illegible] عنه [illegible]

[illegible] ومن [illegible] الشيخ بأمره [illegible] والنظام [illegible] له العزاء في [illegible]

[illegible] لكنه [illegible] أمور [illegible] تعالى [illegible]

[illegible] الله تعالى [illegible] ونحو الشيخ [illegible]

[illegible] إنما [illegible] بالتعرف [illegible]

[illegible] قال [illegible] ومن [illegible]

[illegible] أجزاء واشتغال [illegible] أخوه [illegible] كل [illegible]

[illegible] أما [illegible] لكن [illegible]

[illegible] وقد كان [illegible] في العلم [illegible]

ولقد عظمه من [illegible] الشيخ وهو [illegible]

[illegible] الحاج [illegible] الشيخ [illegible] من [illegible]

[illegible] تلك [illegible] من [illegible]

[illegible] الشيخ [illegible] ما كان [illegible] الناس [illegible]

[illegible] والنساء [illegible] علم [illegible]

الطلبة [illegible] المغبوط [illegible] الشيخ [illegible]

[illegible] الشيخ [illegible] وكلاهما [illegible]

[illegible] الشيخ [illegible]

[illegible] والشيخ [illegible]

[illegible] الشيخ [illegible]

التي ملوكها على قدم [illegible] وجه ارساله إلى مولانا أمير المؤمنين أيده الله راغبا في الصلح بحبه
المتوكل الخامس [illegible] الى الامام لما اغمدت السيوف فاشتد نصبه [illegible] من المواضع
وافق أنه ما طلبه لجهة انقياد الصالح لنفسه من عشيرته [illegible] فعلم من الحروب
التي تحول بين [illegible] وامثالهم. كما جاء فيه [illegible] من الحرابة [illegible] اقامه مولى الضعيف [illegible]
والظاهر أنه لم يظهر في ذلك الحكاية ما مولانا [illegible] وصدق بين بكره فكان خرجه محمودا لا
صحو السلطان [illegible] مولانا أيده الله ما أظهره من الأول [illegible] مولاي الاسلام [illegible] وعلم أن ولد
الناس الجائز في التوكل جعل له [illegible] أيده الله فغفر [illegible] وجعله من [illegible]
الكرم من كمل الصلح معه وبهم عشرة [illegible] أرسل مولانا أيده الله [illegible] انعام
[illegible] ونعم [illegible] الحضرة [illegible] الكمال [illegible] شكر نعمة الانعام الجلي [illegible]
المستمرة للامام [illegible] حل عجب ما يسمله من ما جناه [illegible] أعاد إرساله [illegible]
ما عشاطه [illegible] ومع ما شكره لكن [illegible] الصالح من ما [illegible]
عليه مما أراد [illegible] محمد [illegible]
[illegible] أنه [illegible] أو فاتا من أحوال العمال [illegible]
فصل ولما علم صاحب قشتالة أن نصرة مولانا نصر الحمام وتروخ
بلاده [illegible] من القتال والجلاء [illegible] ما تمم به من [illegible] المملكة وقدم الدولة
وجرى به من [illegible] وعظم [illegible] فارعوا [illegible]
وصحو [illegible] معاطاه [illegible] الحمام [illegible] بلاده [illegible]
[illegible] كبير [illegible] على [illegible] عظيم [illegible]
[illegible] عظيم [illegible] أنه [illegible] إمام [illegible]
[illegible] عليه [illegible] الخامس [illegible] أصبح

مهموسا، فأعجب مولانا أيده الله ما أظهر من الذل، إذ هو للإسلام عز، وعلم أن ذلك النازل إذا لز في قرن الوفاء حسن له لز، فأسعف أيده الله قصده، ووجه من خدام بابه الكريم من يكمل الصلح معه ويتم عقده[8]، فتلقى ارسال مولانا - أيده الله - بالإكبار والإعظام، وفرح بقدومهم فرح الأرض المجدبة بواكف الغمام، وشكر نعمة المقام العلي شكر العين المسهدة للمنام، ودخل تحت ما رسم له من الأحكام، وأعاد أرساله مقررا لاغتباطه بذلك، ومعرفا بشكره الذي أنهج السبل والمسالك، فبلغ من الإبقاء عليه ما أراد، وانتجع سحائب الفضل الإمامي فحمد المراد، وبقي في طيب عيش لا يطار غرابه، ورأى سيفه المغلوب أوقاتا هي أحلى من العسل قسر ذبابه..!».

☆ ☆ ☆

لقد كشف لنا ابن الحاج النميري عن معلومات جد هامة تتعلق بالصلات بين المغرب والبرتغال، وبالتحديد بين السلطان أبي عنان ملك بني مرين وبين الملك ألفونس الرابع ملك البرتغال، حيث انتصر المغرب - في هذه الغزوة - على خصمه انتصارا عظيما... كما يكشف لنا أن خبر هذه المعركة قد تقدم في المؤلف الذي سماه «الديوان» وأورده مشروحا على قواعد الإيضاح والتبيان على حد تعبير النميري.

وقد تقفيت - كما قلت - إثر هذه المعركة في المصادر المغربية، منثورها ومنظومها، وكذا المصادر الأجنبية وخاصة منها البرتغالية فلم أعثر لها على أثر... وقد زاد من حيرتنا إحالته على المصدر الذي سماه «الديوان» الذي لم نعرف ماذا يقصد به، وهل إن هناك مؤلفا خاصا للنميري ؟ أم أنه جانب مفقود من (فيض العباب)..؟

إن ابن الحاج النميري هو المصدر الوحيد حول هذه «المعركة» على ما قلت، وهو المصدر الوحيد الذي أخبرنا بوصول وفود الروم في شوال 757 = (30 يوليه - 27 غشت 1356) طالبة إبرام عقد الصلح مع ملك المغرب... وكان من جملة تلك الوفود وفود ملك البرتغال (الفونس الرابع 1325 - 1357) الذي هزمته الجيوش المغربية في السنة الماضية 756 = 1355 في (لاقش Lagos)...

وقد أحببت أن ألفت النظر إلى هذه اللقطة التاريخية على نحو ما فعله الزميل مارتيم فيلهو Martim Velho) عندما تحدث عن غزوة لتاشفين بن علي بن يوسف قرب (قصر عطية)[9] في مجلة جمعية الباحثين المستشرقين، مؤملا أن تثير إفادة ابن الحاج النميري البحث عن أسباب هذه الغارة وآثارها في المصادر البرتغالية والمغربية.

د. عبد الهادي التازي

---

8) لم نقف على أسماء أعضاء السفارة المغربية إلى ملك البرتغال على هذا العهد لا في المصادر المغربية ولا في البرتغالية...

9) Boletin de la Asociacion Espanola de Orientalistas XVII 1981 p. 167-170



للأستاذ محمد الإدريسي

إن أول ما يتبادر إلى الذهن في هذا الصّدد هو شخصية المولى إدريس الأكبر مؤسس أول دولة مغربية إسلامية، ففي هذا الجناح الغربي من أرض الإسلام فرض الدين الحق وجوده فيه بعد طول معاناة من آثار الجاهلية وألوان الاستعمار وقد كان الفتح الإسلامي للمغرب على فترات ومراحل، ولكن كان ينقصه التمكين من النواحي السياسية والثقافية والاجتماعية إسلامياً حتى جاء المؤسس الأول لدولة الإسلام في المغرب الذي بدأ المسيرة من حيث التأسيس لهذه الدولة مع تطهير باقي البقاع المغربية من جيوب الجاهلية وتوعية الناس دينياً وتفهيم الإسلام لمن هم في أمس الحاجة إلى ذلك، والإسلام إنما يعمل عمله ويترك أثره في النفوس لمن وعوه حق الوعي وهضموا مبادئه كما يجب وكان هذا هو الهدف الأسمى لدعوة المولى إدريس الأول رضي الله عنه.

وهناك حقيقة تاريخية تغيب عن الكثير منّا لها علاقة بالوجود الإسلامي المتأصل في المغرب والفضل فيها يعود إلى دولة الأدارسة، فقد تحقق التمكين للإسلام وتثبيت قواعده في المغرب الأقصى لكون مملكة الأدارسة تعتبر حضرية مدنية صميمة ، فهذه الدولة المغربية الأولى صمدت إسلامياً وجعلت دولة الإسلام في المغرب تعمّر بفضل تأسيس عاصمتها فاس في عهد المولى إدريس الثاني، هذه المدينة التي احتفظت ومازالت تحتفظ بلونها الحضاري الأصيل بعد أكثر من ألف عام : ذلك أن لونها الحضاري هذا كان من دواعي استمراريتها بالمقارنة مع دولة سجلماسة مثلاً علاوة على أن دولة الأدارسة، وهنا تكمن الروعة والعظمة، كان ظهورها مفاجئاً دون تمهيد أو دعاية سابقة وإنما قامت على أكتاف رجل واحد يمثل هيبة الأسرة العلوية العظيمة كما يمثل مناقب آل البيت ، وفي نظري بأنه لا اعتراض إذا قلنا بأن دولة الأدارسة تمثل بحق أقوى وجود إسلامي لأنها جسّمت الريادة السياسية لكيان الإسلام في هذا المغرب الأقصى، وهنا يكمن السر في عظمة المولى إدريس بن عبد الله رضي الله عنه فهو بحق مؤسس تلك الدولة، ويفخر المغرب العريق في إسلامه بذلك، وهذه العراقة ولاشك يرجع الفضل فيها إلى المولى إدريس الأكبر، أولاً وأخيرا، أليس هو الذي ركز الحنفية السمحة في ربوع مغربنا من أجل تثبيت دعائم الدولة

الإدريسية الإسلامية على أساس الحفاظ على عقيدة الإسلام راسخة في النفوس لأن هدفه الأسمى كان هو تحقيق الحكم الإسلامي. وبث الدعوة الصافية التي استشهد في سبيلها الكثير من آل النبي الأطهار.

يقول الأستاذ محمد المنوني : «يعتبر الإمام إدريس الأكبر... المؤسس لأول دولة إسلامية بالمغرب، فيحدّد مبادئها في رسالته التي خاطب بها الأمازيغيين المغاربة، ...وهو يُعَزِّزُ هذه الدعوة بالعمل لتحقيقها، فيجاهد ضد الديانات والنحل المنحرفة، في شالة وتامسنا والأطلس المتوسط والمغرب الشرقي حتى تلمسان وما إليها وذلك ما يسجله ابن خلدون، وهو يتحدث عن المغرب الإدريسي : «محا جميع ما كان في نواحيه من بقايا الأديان والملل».

وبتحقيق هذا المكسب الإسلامي : إلتف حول الدولة المغربية الجديدة جماهير الأمازيغيين، فصار إدريس الأكبر يفكر في تحقيق مخطط دعوته، امتداداً نحو إفريقية الأغلبية ثم مصر، كبداية لتوحيد العالم الإسلامي تحت خلافة علوية بديلاً عن العباسيين الذين انحرفوا عن المبادئ الإسلامية، فعن منطقة الأغالبة يقول ابن أبي زرع : «فاتصل بالرشيد أن إدريس قد استقام له أمر المغرب.. وأخبر بحربه وخيله وكثرة جنوده وشدته في الحرب وأنه قد عزم على غزو افريقية».

وبعد وفاة إدريس الأكبر يصمم مولاه راشد على تحقيق هذه الخطة، فيذكر عنه الرقيق : «وكانت همته غزو أفريقية، لما هو فيه من القوة والكثرة».

وهي فقرة تؤكد استمرار قوة الدولة الإدريسية في فترة وصاية راشد.

وبعد إفريقية الأغلبية نشير إلى رسالة إدريس الأول إلى أهل مصر، وهي بدورها تؤكد المخطط الإدريسي لتأسيس دولة إسلامية كبرى تنسخ دولة العباسيين بعدما تنكروا للقيم المثلى، فيمتد التصميم الإدريسي إلى مصر، حتى تكون منطلقاً إلى ما وراءها وهي حقيقة يستنتجها جوليان، ويقدمها في الصيغة التالية : «وقد يكون إدريس بيت النية - كما فعل الفاطميون فيما بعد - لجعل المغرب نقطة انطلاق لاسترجاع إرث آبائه».

ومن هنا يتبين أن إدريس الأول لم يكن همه اقتطاع جزء من أقاصي الدولة الإسلامية. وإنّما كان المغرب - في تصميمه - قاعدة تبدأ منها ثورته ضد العباسيين المنحرفين، واستبدالهم بدولة إسلامية تلتزم المبادئ التي شرحها الميثاق الإدريسي في شكل خطاب الإمام العلوي إلى الأمازيغين :

- أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

- وإلى العدل في الرعية، والقسم بالسوية ورفع المظالم والأخذ بيد المظلوم.

- وإحياء السنة وإماتة البدعة وإنفاذ حكم الكتاب على القريب والبعيد.

- واعلموا - عباد الله - أن مما أوجب الله على أهل طاعته، المجاهرة لأهل عداوته ومعصيته باليد وباللسان...».

تلك لمحة جد مختصرة عن مغرب إدريس الأول الذي جاهد وصمد عبر القرون حتى وصل إلى عهد الحسن الثاني، وكما كان منذ عهد الدولة الإدريسية الرائدة سيبقى مغرب الحسن الثاني كياناً يفرض وجوده بفضل إسلامه العظيم وريادة ملوكه الكرام ورجالاته الأعلام وعلمائه الأصلاء، ولأن ما عرف عنه من عبقرية فذة وأصالة أثيلة ومبادرة فورية إلى المكرمات ومعالي الأمور يحتم استمرارية هذا الكيان الفذ.

سيظل المغرب متمسكاً بالحق لأنه على الحق، شعاره وحدة الصفوف والتعاون على الخير والاعتصام بالقرآن لأن إسلامه يحث على ذلك :

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا...﴾

﴿وتعاونوا على البر والتقوى...﴾، وفي هذا الصدد نقتطف من درر العاهل المغربي الحسن الثاني حفظه الله (منذ أن وجد المغرب فمملكته إسلامية من عهد المولى إدريس الأول، رضي الله عنه إلى يومنا هذا، وقد قرر الملوك المغاربة من الأول حفاظاً على وحدة الصف وعلى وحدة الإسلام أن لا يستعملوا إلا مذهباً واحداً،

فالمغرب هو الوحيد ربما في تلك الناحية التي لا يتقاضى ولا يتحاكم ولا يتعامل إلا بالمذهب المالكي محافظة وحفاظاً على وحدة الصف الإسلامي.. المغرب هو كيان منذ أن فتحه المولى إدريس الأول وقد وقعت للمولى إدريس الأول، والمولى إدريس الثاني مصائب وفوجئ بالمنية بكيفية لم تكن منتظرة، ومع ذلك بقي المغرب هو المغرب. المعجزة هي أن يبقى المغرب مغرباً، فقط خمسين سنة بعد أن خلق، والعجب ليس أن يبقى مغرباً بعد ألف سنة، فالمغرب من الدول التي حياها الله بروح الغيرة وشعور الوحدة الوطنية كما ظهر أيام المسيرة، إن المغاربة في وقت الخطر يشكلون رجلا واحدا يدا في يد سواء كان فراغاً في الداخل أو خطراً جاء من الخارج،

وإنني أعتقد شخصياً ـ ولله الحمد ـ أن ما يجري في دمنا نحن المغاربة من حب النظام وتشبث بالاستقرار، وما وضعناه من قوانين دستورية وما جبلت عليه جميع القوات في هذه البلاد من سياسيين ومدنيين وعسكريين وعلماء وطبقة شعبية كادحة يجعل الشعور الغريزي والبديهي عندهم هو حماية المغرب أولا وقبل كل شيء، وهذا ما وقع عبر التاريخ. ولو كان المغرب من الدول التي تعيش برجل لما دام هذه المدة الطويلة. فالمغرب ليس دولة تعيش برجل، أو حول رجل. المغرب يعيش حول عبقريته وحول أصالته، وأكثر من ذلك أنه يعيش من غيرته على مواطنته بحيث إنني مطمئن ومرتاح البال على المغرب ليس لثلاثين أو أربعين سنة وإنما إلى أن تقوم الساعة.

الرباط : محمد الإدريسي

في ذكرى شمس الدين أبي عبد الله ابن بطوطة

للدكتور عبد الله العمراني

أكاد أجزم بأن الشيخ الجليل، الفقيه النبيل، العالم الأصيل، شمس الدين أبا عبد الله الحاج محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي أصلا الطنجي دارا ومنشأ المعروف بابن بطوطة والملقب بشمس الدين، لم يلق من أهله المغاربة، ولا من قومه العرب، ولا من إخوانه المسلمين، ما يستأهله من حفاوة وتكريم وإكبار. إنك لو حاولت أن تبحث في كتب التراجم والسير لتجد ما يشفي غليلك، ويغطي أخبار هذا الرحالة العظيم، فإنك لاشك ستبوء من محاولتك بخفي حنين، إن لم تعد صفر اليدين تماما، وأغتنم هنا حلول الذكرى الخامسة والثمانين والستمائة[1] لميلاده، فأنشر هذا المقال في مجلة (دعوة الحق) الغراء، وأنوه بأولى شخصيتين رفعتا رأس المغرب عاليا بين الأمم، وكان لعاهل المغرب أبي عنان المريني الفضل في رعايتهما. ونعني بالشخصية الأولى ابن بطوطة، أما الثانية فهو فيلسوف التاريخ ومبتدع علم الاجتماع أبو زيد عبد الرحمن ابن خلدون. وقد كان الثلاثة متعاصرين : ابن بطوطة وابن خلدون وأبو عنان الذي اغتيل في زهرة شبابه.

ولد ابن بطوطة بطنجة يوم الإثنين 7 من رجب الفرد الحرام من عام 703 (24 فبراير 1304)، وشب وترعرع في حضن والديه، وعاش في كنفهما عيشة سعة ويسر وطمأنينة. تعلم على شيوخ بلده، وتفقه على النابهين النابغين من علماء قومه، ناهلا من الينابيع الثرة للعلوم الشرعية واللغوية ما قدر له أن ينهله ويعله. وحتى إذا بلغ أشده، وأحس من نفسه كفاية ما حققه في مضمار العلم والدين والخلق، أراد أن يستكمل أركان دينه، وأن يستجيب للنداء الخالد : نداء إبراهيم عليه السلام : ﴿**وأذن في النـاس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق**﴾ (الأنبياء : 27).

☆ ☆ ☆

بعض ملامح الرحلة

تلبية للأذان المقدس، وإشباعا للرغبة الملحة في نفس أبي عبد الله، خرج من مسقط رأسه طنجة يوم الخميس ثاني رجب الفرد 725 (1325.6.13) «معتمدا حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة

1) هذا بالتقويم الكريكوري، أما بالتقويم الهجري فذكرى ميلاده الآن هي السادسة بعد السبعمائة.

والسلام، منفردا عن رفيق آنس بصحبته، وركب أكون في جملتـه، فجزمت أمري على هجر الأحباب من الإنـاث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور، وكان والدي بقيد الحياة. فتحملت لبعدهما وصبا، ولقيت ـ كما لقيا ـ من الفراق نصبا». (تحفة النظـار : ج 1 ص.4 ـ 5 ط. المطبعة الأزهرية بمصر 1928).

وبعد المرور بمدن شمال المملكة، اجتازت الرحلة بالتتابع مدائن تلمسان، ومليانة، والجزائر، وبجاية وقسنطينة وبونـة (عنابـة) وتـونس وسوسـة وصفـاقس وطرابلس والأسكندرية.

وهنا نقف وقفة قصيرة للتأمل في الظروف الطارئة المتجددة، وفي الملابسات العديدة المتباينة في هذا الجزء المبكر من الرحلة، لنلمح ونلمس نماذج فقط مما صادف هذا الرجل المغامر الشجاع. وبما أننا لانستطيع في هذه العجالة أن نلمّ بجميع وحوادث الرحلة وظروفها، لأن ذلك فوق طاقتنا في الحقيقة، فإن في مكنتنا أن نشير إلى طوارئ تمثل نماذج وملامح من هذه الرحلة الخالدة :

☆ ☆ ☆

الرفيق قبل الطريق : هكذا يقول المثل العربي، ولكن ابن بطوطة اتخذ الرفيق أثناء الطريق، إذ وافق وصوله إلى تلمسان خروج رسوليْ ملك تونس (قاضي الأنكحة بمدينة تونس أبي عبد الله محمد بن أبي بكر النفزاوي وأبي عبد الله محمد بن الحسين الزبيدي) إلى ملك تلمسان، «فأشار عليّ بعض الإخوان بمرافقة الرسولين، فاستخرت الله عز وجل في ذلك وأقمت بتلمسان ثلاثا في قضاء مآربي، وخرجت أجد السير في آثارهما فوصلت مدينة مليانة، وأدركتهما بها».

«ولحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشرا، ثم ارتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضي على بعد أربعة أميال من مليانة فأقمنا ببعض المياه ثلاثاً، وفي اليوم الرابع مات المريض، فعاد ابن القاضي ورفيقه الشيخ الزبيدي إلى مليانة حيث دفنوه». أما رحالتنا فقد واصل الرحلة، ورافق تجارا من تونس (الحاج مسعود بن المنتصر، والحاج العدولي، ومحمد بن الحجر) ووصل الركب إلى مدينة الجزائر، وأقاموا بخارج المدينة أياما إلى أن قدم الشيخ أبو عبد الله الزبيدي ورفيقه ابن القاضي المتوفى، وواصل الركب سيره الحثيث.

أول مشاهد الظلم : وحدث أن توفي في الطريق، أيضا أحد الرفقاء وهو محمد بن الحجر، وقبل وفاته وصى لرفيق من الجزائر يدعى ابن حديدة، بأن يوصل إلى ورثته بتونس مبلغ ثلاثة آلاف دينار من الذهب. انتهى الخبر لأمير بجاية أبي عبد الله محمد بن سيد الناس، فانتزعها من يد ابن حديدة انتزاعا غير لائق. يقول رحالتنا : «وهذا أول ماشاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم (ص.5 ـ 6).

☆ ☆ ☆

أول ما فتح به عليّ : هطل المطر غزيرا أثناء الطريق، فتلوثت ملابس أبي عبد الله ابن بطوطة، فما كان من حاكم قسنطينة الشريف الفاضل أبي الحسن إلا أن أمر بغسلها في داره. وزاد فاستبدل بثوب إحرامه الخلق ثوب إحرام آخر بعلبكيا، وصر في أحد طرفيه دينارين من ذهب. يقول أبو عبد الله : «فكان ذلك أول ما فتح به عليّ في وجهتي». (ص.6).

☆ ☆ ☆

إصابة بالحمّى : رحل السفر من مدينة قسنطينة إلى مدينة بونة (عنابة الحالية)، ونزلوا بها، وأقاموا أياماً. يقول ابن بطوطة : «ثم تركنا ببونة من كان في صحبتنا من التجار لأجل الخوف في الطريق، وتجردنا للسير، وأصابتني الحمى، فكنت أشد نفسي بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف، ولا يمكنني النزول بسبب الخوف». (ص. 6).

☆ ☆ ☆

عبرات حزن وأسى : في تونس أقبل الناس على الديبلوماسيين (الشيخ أبي عبد الله الزبيدي وأبي الطيب ابن القاضي المتوفى) وأوسعوهما ترحيبا وسلاما، بينما لم

يسلم على ابن بطوطة أحد، لعدم معرفته؛ فوجد من ذلك في نفسه مالم يملك معه سوابق العبرة، واشتد بكاؤه. وشعر بحاله بعض الحجاج فأقبل عليه بالسلام والإيناس، وما زال يؤنسه لحديثه حتى دخل مدينة تونس، ونزل فيها بمدرسة الكتبيين. (ص.6).

☆ ☆ ☆

فكرة السياحة عبر العالم : اتصل ابن بطوطة بالإمام العالم الزاهد الوَرِع برهان الدين الأعرج أثناء مقامه في الأسكندرية، وأضافه الإمام ثلاثا، وذات يوم دخل الضيف على مضيفه فقال له هذا : «أراك تحب السياحة والجولان في البلاد». أجاب ابن بطوطة : «نعم، إني أحب ذلك. ولم يكن حينئذ خطر ببالي التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين»، فقال الإمام : «لابد لك ـ إن شاء الله ـ من زيارة أخي فريد الدين بالهند، وأخي ركن الدين زكرياء بالسند، وأخي برهان الدين بالصين، فإذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام». يقول أبو عبد الله ابن بطوطة : «فعجبت من قوله، وألقي في روعي التوجه إلى تلك البلاد. ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم، وأبلغتهم سلامه». (ص.11).

وبقيت فكرة السياحة عبر العالم تراود صاحبنا حتى اتصل في الأسكندرية بالشيخ أبي عبد الله المرشدي الذي ضيفه وأكرمه وقدمه مرارا ليؤم الصلوات به وبالحاضرين في الزاوية التي كان يشرف عليها الشيخ. وذات ليلة رأى الرحالة المغربي فيما يرى النائم : «كأني على جناح طائر عظيم يطير بي في سمت القبلة : يتيامن ثم يشرق ثم يذهب في ناحية الجنوب، ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق، وينزل في أرض مظلمة خضراء ويتركني بها».

ويقص ابن بطوطة رؤياه الصادقة على الشيخ المرشدي فيقول له : «ستحج وتزور النبي ﷺ، وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند، وتبقى بها مدة طويلة، وستلقى بها أخي دلشاد[2] الهندي. ويخلصك من شدة تقع فيها». وكذلك حصل، (ص.15 من الجزء الأول وص.98 من الجزء الثاني).

☆ ☆ ☆

تلاوة واعتكاف : وفي وقت متأخر من الرحلة، وصل الركب إلى مدينة هنور الهندية، ونزل أبو عبد الله ـ كعادته للسلام على سلطانها فأكرمه وأنزله بدار، ولم يكن له خديم، وطلب منه السلطان أن يصلي معه الصلوات، قال : «فكان أكثر جلوسي في مسجده، وكنت أختم القرآن كل يوم، ثم كنت أختم مرتين في اليوم : ابتدئ القراءة بعد صلاة الصبح، فأختم عند الزوال، وأجدد الوضوء وأبتدئ القراءة فأختم الختمة الثانية عند الغروب، ولم أزل كذلك مدة ثلاثة أشهر، واعتكفت فيها أربعين يوما». (ح.2 ص.119).

☆ ☆ ☆

نخلص من هذا كله، إلى القول بأن شمس الدين أبا عبد الله ابن بطوطة لم يكن زير نساء شهوانيا، ولم يكن طالب مال أو جاه، بل رأيناه في رحلته الطويلة يتعب ويرتاح، يسعد ويشقى، يصح ويمرض، ويفقد بنته المتوفاة بأرض الهند، وينهب الناهبون متاعه، ويذوق في رحلته الطويلة الحلو والمر والأمر ولكنه في كل وقت وحين كان الرجل المؤمن المتفائل الصبور، الذي يتبارى المؤمنون، وشيوخ العلم والتصوف، ورجال السلطة في التعرف عليه، والتشوف لأخباره، والتنافس في ضيافته وإكرامه، ولم يكن أبدا مخلا بالمروءة، ولا مقصرا في فعل الخير، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما لم يكن مفرطا في العبادة وتلاوة آي الذكر الحكيم، ولا ناسيا أو مهملا أخذ السند العالي، وتناول الإجازات العلمية أو الصوفية كلما أمكنه ذلك.

2) دلشاد ـ لا دلشاي كما كتبها بعضهم ـ كلمة فارسية تعني ـ كما قال الرحالة ـ القلب الفارح.

تريد تكريما لا تجريما

إنّ شخصية مثل هذه، تستأهل التكريم من كل مغربي وكل عربي وكل مسلم، لأنها في جولاتها عبر العالم كانت خير سفير عن المغاربة والعرب والمسلمين، اتصل بالنخبة الممتازة في كل مجتمع ارتاده، وكان يخبرهم إذا استخبروه، ويفيدهم في أمور دينهم، فكانوا يتقبلون ذلك بصدر رحب، وكان شيوخ العلم ورجال التصوف وأرباب السلطة منهم يتهافتون على لقائه والتعرف على أحواله، وذلك خلال الرحلات الثلاث الطويلة الأمد.

قام في الرحلة الأولى بزيارة بلدان شمالي إفريقية، والأراضي المقدسة (الحجاز)، وجنوب بلاد العرب، وشرق إفريقية، وفلسطين، والشام والعراقين العربي والعجمي وشبه جزيرة القرم، والقسطنطينية وبلدان آسيا الصغرى، وبلدان آسيا الوسطى وأفغانستان والهند والصين، ثم عاد إلى بلاده عن طريق جاوة وسومطرة وبلاد العرب فطنجة وفاس عاصمة المملكة آنذاك.

☆ ☆ ☆

وفي الرحلة الثانية ذهب إلى الأندلس فزار مملكة غرناطة الإسلامية، أما الرحلة الثالثة فكانت إلى بلدان السودان الغربي من قارتنا السمراء، وفي بلدة تكدا وصله مندوب أمير المومنين أبي عنان حاملا أمره الكريم بالعودة «فقبلته وامتثلته على الفور». وفيما بعد عيد الأضحى لعام 754 (5 يناير 1354) وصل إلى فاس «حضرة مولانا أمير المومنين أيده الله فقبلت يده الكريمة وتيمنت بمشاهدة وجهه المبارك وأقمت في كنف إحسانه بعد طول الرحلة» المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) التي ترجمت إلى اللغات الفرنسية والألمانية والإنكليزية، وطبعت في باريس 1853 ـ 1859 كما طبعت في مصر ـ القاهرة 1870، 1929، 1938، وفي بيروت سنة 1950.

☆ ☆ ☆

قبل ابن بطوطة زار ماركو پولو البندقي (1254 ـ 1323م) منغوليا والصين والهند وأقطار شرقية أخرى ثم عاد إلى بلاده عن طريق سومطرة ليدوّن رحلته التي أدهشت معاصريه واعتبروا بعض مشاهدها بعيدة عن التصديق، ولكن رحلته الآن تعد مرجعا لأحوال تلك البلاد في القرون الوسطى. كانت رحلة ابن بطوطة أعم وأشمل من رحلة ماركو پولو. ولكن قوم هذا الأخير تفننوا في تكريمه حتى إنهم وضعوا لرحلته أفلاما سينمائية تمثله وكأنه حيّ يرزق، ولكننا نحن ـ العرب والمسلمين ـ بدل أن نكرم رحالتنا العالمي، نجد من الكتّاب المعاصرين من يحاول تجريمه وتحطيمه، ويليته حقه من التكريم والإنصاف والذكر الحسن.

قرأت في العدد 215 من مجلة (العربي) الغراء ففوجئت بل صدمت، وتمنيت لو لم أقرأ فيه مقال (رحالة الإسلام : ابن بطوْطة) أو تمنيت ـ على الأقل ـ لو لم يسل قلم الكاتب وهو الأستاذ الدكتور حسين مؤنس بمثل هذا القذف، وبمحاولة التشهير والتشويه وإلصاق كل نقيصة برحالتنا العظيم، سفيرالعروبة والإسلام، ورافع رأس الجميع عاليا.

تحدث الكاتب خلال بضع صفحات فلم يكلف نفسه ذكر اسم الرحالة أو لقبه أو كنيته كما جرت العادة في العصر الوسيط، فتكنية الإنسان كانت تعبر آنئذ أمارة تكريم وتشريف، بل اكتفى فقط بذكر اسم شهرته (ابن بطوطة) مجردا عن أي وصف. لقد فعل الكاتب الإسباني في كتابه (تاريخ الأدب العربي ـ الإسباني) ولكن هذا الكتاب يتسم بالاختصار. وهنا أذكر أن الدكتور مؤنس ترجمه بعنوان (تاريخ الفكر الأندلسي) ولما أراد تعريف قرائه بابن بطوطة زاد (أبي عبد الله محمد بن محمد اللوتي الطنجي) وكانت الزيادة خاطئة، فمحمد الثاني هو جد الرحالة لا والده، واللواتي ـ لا اللوتي ـ نسبة إلى قبيلة لواته البربرية الشهيرة.

هذه واحدة، والثانية هي أن كاتب المقال يعتبر (الرحلة) من إنشاء أبي عبد الله محمد بن محمد بن جزيّ الكلبي (721 ـ 757 هـ)، ويعتبر عنوان الرحلة من وضعه أيضا كما تنبئ بذلك مؤخرة المقال، والحقيقة هي أن عاهل المغرب أبا عنان (752 ـ 759 هـ) أعجب بأخبار الرحلة وأعاجيبها التي كان الرحالة انتهى من تقييدها في ثالث ذي الحجة 756 هـ فأمر كاتبه الغرناطي الشهير بتدوينها بخطه الجميل، فامتثل ابن جزي للأمر الملكي وانتهى من تحرير الرحلة في ثلاثة الأشهر التالية وفي الحق، كان ابن جزيّ يتحلّى بالأمانة والدقة العلميتين، فكان إذا استشهد بشعر، أو أورد حكاية مماثلة نصّ على ذلك بقوله : قال ابن جزي... أما تأليف الرحلة أو وضع التسمية لها فلم يكن من عمل ابن جزي، ولو كان كذلك لنص على ذلك بالحرف، وهذا لم يحدث تماما.

يفتتح الكاتب المعاصر بمحاولة المس ببعض القيم الإسلامية فيتهجم على المشايخ العباد الزهاد المتصوفة ويسخر من الأولياء «الذين يكاشفونك بما تفكر، دون أن تفتح فمك. بل إن الواحد منهم يعرف المنام الذي رأيته بالأمس دون أن تقول له : إنك حلمت بشيء». أليس هذا تزيدا وتشويها يثبت للقارئ أن الكاتب المتحرر من كل تبعة فنية أو أخلاقية، لايؤمن بحقائق التفسير العلمي للأحلام، ولا يعتقد الاعتقاد اللازم في مهايا الذكاء، والخبرة ودلالة الحال، ولا فيما يعرف آنيا بقراءة الأفكار Thoughtreading أو تبادل الإحساس والشعور Telepathy.

قد لانكون عابثين أو متجنّين إذا تتبعناه وهو يؤاخذ ابن بطوطة لأنه «كان في رحلته لاينزل بلدا أو قرية، إلا ذهب ليزور وليّها وصاحب كراماتها» فكأن زيارة الوليّ ذي الكرامات جريمة لاتغتفر، أو كأنها لا تدل على المحبة والولاء وحسن المعاشرة وحب الاستطلاع، وهو إحدى الغرائز المركبة في الإنسان، ثم إن التلهف لرؤية الأولياء دليل على المحبة، وقد ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال : «المرء مع من أحب...» ويضيف الكاتب قوله : «وقد يتخلف عن الركب ليزور وليا، وربما غامر بنفسه في رحلات جانبية ليزور شخصا صوفيا انقطع عن الدنيا ونذر نفسه لعبادة الله مكتفيا بثمرة (قصد تمرة) واحدة يأكلها في اليوم أربعين سنة؛ أو يبعث الله إليه برزقه كل يوم فيجد عند بابه كل ما يحتاج إليه من الطعام في يومه لنفسه ولكل من سيزورونه، لأن الله تعالى يعلم أن ثلاثين رجلا سيزورون وليّه الصالح... المنقطع للعبادة، فيرسل إليهم طعامهم مقدما» أستغفر الله من هذا الكلام الذي ينقصه التأدب مع الله ! وكان الكاتب في غنى عنه، وحبذا لو عرف قول رسول الرحمة وتذكره قبل تسطير هذا الفحش من الكلام...» ومن كان يومن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت». صدق رسول الله ﷺ.

ويتهم الكاتب أولياء الله بأنهم قسموا العالم وجعلوه مناطق نفوذ بينهم، وأنهم تحالفوا مع السلاطين تغطية لمظالمهم وقسوتهم على رعاياهم. ثم يستشهد بالمستشرق الإنجليزي جيب، والهندي ڤينست سميث فكلاهما تأسف على أن هذه القسوة هي التي حالت دون انتشار الإسلام على نطاق واسع، (أو ربما لو كانت صدرت رواية الملحد المرتد سلمان رشدي ولم تكن قامت ضده الضجة، لاستشهد بكلامه أيضا !) إن الذين تأسفوا على عدم انتشار الإسلام بسبب القسوة، هم أو أمثالهم الذين اتهموا المسلمين بأنهم نشروا الإسلام بحد السيف. إن الذين يزعمون هذا الزعم يجب أن يقرأو رحلة ابن بطوطة ليعرفوا أن مغربيا واحدا نشر الإسلام في جزر ذيبة المهل (جزر مالديف) دون اللجوء إلى أي سلاح !

ويواصل الكاتب تجنياته على ابن بطوطة فيقول عنه : «أغراه المال بالاستزادة من المال، وأغرته النساء بالاستزادة من المتاع، وشيئا فشيئا يتغير هذا الرجل الطيب ويصبح طالب مال وجاه ومتاع» ثم يضيف : «وهنا نجد أنفسنا أمام ابن بطوطة آخر وقد تغيرت شخصيته تغيرا تاما، فهو رجل غني يداخل كبار القوم والسلاطين، وإن لم يكف عن طلب الأولياء، ولكنه من الآن فصاعدا رجل مال

ومطامع مادية، وطلب للنساء ورغبة في التقرب من أهل السلطان».

يتكلم الكاتب عن الرحالة العظيم وكأنه يتحدث عن شخص عامي تافه لايستأهل مخالطة الكبراء. ثم يعرض لحياة ابن بطوطة في جزر المالديف فيدعي أنه استغل سذاجة الناس وتدخل في شؤون الدولة وتزوج بنات الوزراء والأثرياء أربعا غير ما ملكت يمينه. ولكن الرحالة العظيم لاينكر شريعة الله، ولا يغفل عن عوامل البيئة ذات التأثير البالغ، ومن أراد التأكد من هذا فليرجع إلى الجزء الثاني من الرحلة ليعرف الشيء الكثير عن جزر ذيبة المهل (جزر مالديف) وهنا نسأل الكاتب هذا السؤال : أيهما أحسن ؟ مسايرة الأوضاع واتّباع السنة والجماعة ؟ أو اقتراف الإثم وارتكاب فاحشة الزنى ؟

ويمعن الكاتب في التجني على ابن بطوطة قائلا : «ويقيمونه قاضيا فنتبين من أحكامه أنه ليس بذي علم واسع بالفقه، وأحكامه قاسية، وفيها تعسف وقلة فهم، وادعاء للعلم، فيبغضه الناس... وأخيرا وبعد منافسات وحزازات يخرج ابن بطوطة من جزر المالديف شبه مطرود تاركا وراءه كل نسائه وأولاده منهن...» تشويه فظيع، وكذب وافتراء، وسوء فهم لما ورد في الجزء الثاني (الصفحات 131، 132، 133 وغيرها). إن من يقرأ ذلك يعرف تزوج ابن بطوطة وأسبابه، ويعرف ظروف توليه القضاء، وصعوبات تقف ضد تنفيذ الأحكام الشرعية السديدة مما دعاه إلى عزل نفسه وعزمه على السفر، إنه لم يخرج شبه مطرود، بل خرج محتفظا بكرامته، معتدا بنفسه أيما اعتداد.

ونرد على تجهيل الدكتور مؤنس لرحالتنا العظيم بذكر ثلاث حقائق دامغة :

أولاها : أن أبا عبد الله ابن بطوطة تعلم في بلاده وأكمل تعليمه في سن الخامسة والعشرين وهي السن التي يأخذ فيها المجتهدون حاليا شهاداتهم العليا، والدكتوراه من الجامعات المعاصرة.

ثانيتها : أن أبا عبد الله ـ شأن علماء عصره ـ لم يكتف بما أحرز عليه من علم، بل نراه يسعى بجد في تحسين مستواه العلمي والحصول على السند العالي والإجازات العلمية المتعاهدة. ففي دمشق تتلمذ ابن بطوطة على العالم الشهير (ابن الشحنة) فسمع عليه جميع صحيح البخاري في أربعة عشر مجلسا كان أولها يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان المبارك سنة 726 هـ ونال إجازته وإجازة غيره (الرحلة : ج.1 ص 66)، وكذلك سمع بشيراز مسند الإمام الشافعي على العلامة قاضي شيراز، وهكذا : الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها.

ثالثتها : أن الرحالة العظيم كان متمكنا من الفقه، خبيرا بالأحكام الشرعية، بدليل أنه لما رجع من الرحلات الثلاث، تولى بالمغرب قضاء تامسنا (الشاوية)، فكتب له ذو الوزارتين ابن الخطيب المقيم في مدينة سلا طالبا منه أن يعينه ويرشده إلى شراء أرض فلاحية في تامسنا (البلاد التي يحكمها ابن بطوطة).

ويرمي الدكتور مؤنس الرحالة المثالي بالافتراء فيقول عنه : «وهو يحدثنا عن نهر يسمى نهر الحياة يقطع الصين من الشمال إلى الجنوب، من خان ـ بالق (بكين) إلى الزيتون Tsiuan – Cheu، ويقول إن هذا النهر يشبه نيل مصر والقرى والخضرة على الجانبين. ولا نعرف في الصين نهرا بهذا الوصف أو الاسم» وربما نوافق على مقالته، أما (تحفة النظار) فتقول بالحرف الواحد : «ويخترقه (إقليم الصين الكثير الخيرات) النهر المعروف بآبْ حيات، معنى ذلك ماء الحياة، ويسمى أيضا نهر السبر (السرو) كاسم النهر الذي بالهند، ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان ـ بالق تسمى كوه بوزنه معناه جبل القرود... ويمر في وسط الصين مسيرة ستة أشهر إلى أن ينتهي إلى صين الصين (الزيتون) وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر، إلا أن هذا أكثر عمارة، (ج 2 ص.158) فأي القول نصدّق ؟ وأسماء الأنهار تتبدل بتبدل الزمان أو المكان ؟

وليس هذا فحسب، بل إن المقال لم يصب محز الحقيقة حين اتهم ابن بطوطة بأنه لم يصل إلى الصين. قال : إن شكوكا كثيرة تحوم حول رحلة ابن بطوطة : «هل ذهب إلى جاوة وسومطرة ؟ وهل زار الصين ؟ هناك قرائن تؤيد صحة ما يقول. وهناك دلائل أقوى تقول : إنه لم يذهب إلى بلاد الصين...» ولم يعرفنا على هذه الدلائل الأقوى.

وبالمناسبة أحب أن أشير إلى أن بعض إخواننا الشرقيين تزلفا منهمْ لباحثي الغرب وادعاء للتجديد، يقلبون الحقائق ويقذفون أبناء قومهم بالكذب والافتراء أو الادعاء. هكذا يفعل الدكتور مؤنس مع ابن بطوطة، وهكذا فعل قبله الدكتور أحمد هيكل حين زعم زعما باطلا أن خطبة طارق بن زياد منحولة مزورة عفا الله عن الجميع !.

وأخيرا - وليس آخرا - يرمي المقال الرحالة العالمي بعدم الدقة في البحث والاضطراب في الأقوال، ولو تتبعنا الأخطاء الواردة في مقال (رحالة الإسلام ابن بطوطة) لطال بنا حبل الكلام، ولا شك أن الكاتب سيرجع الأخطاء إلى مصففي الحروف المطبعية ولكن الحقيقة أن بعض الأخطاء يرتكبها هو نفسه.

وهنا نكتفي بأمثلة، فالوقت لا يتسع، والمجال قد لايسمح بأكثر مما قلناه.

- فالمقال لا يفرق بين ثمرة (بالثاء) وبين تمرة (بالتاء) مع أن الفرق بين الثّنتين كبير واضح.

- المقال يحرّف اسم الولي الهندي إلى «دلشاي» بينما هو في الحقيقة (دلشاد) الذي يقول عنه عالمنا الرحالة : إن الكلمة فارسية ومعناها العربي (القلب الفارح).

- يخلط الكاتب بين آسيا الصغرى وبين أرضروم Erzurum، في حين أن آسيا الصغرى تؤلف الجزء الأكبر من تركيا الحالية، وأن أرض روم تقع بشرقي آسيا الصغرى، وكانت تسمى (قاليقلة). وفتحها البطل حبيب بن مسلمة سنة 25 هـ (645م). ولما افتتحها السجلوقيون في القرن الحادي عشر الميلادي سمّوها أرضروم.

- يرمي كاتب المقال ابن بطوطة باختلاط الأشياء في ذهنه، وبالاضطراب في القول، إذ ينص على أن الرحالة العظيم علم في طنجة أن أباه قد توفي من ثلاث عشرة سنة وأن أمه هي الأخرى لحقت به بعد ست سنوات». هكذا قال الدكتور في مقاله، ولكن (تحفة النظار) تنبئنا أن ابن بطوطة عرف في دمشق - من فقيه طنجي مقيم بالمدرسة الظاهرية - أن والده توفي منذ خمس عشرة سنة وأن والدته بقيد الحياة، وأن ابن بطوطة بقي بدمشق حتى آخر سنة 748 هـ (ح 2 ص.174) وتعرف الرحالة العالمي في مدينة تازة المغربية على موت والدته. (ح 2 ص.178)، فمن الذي يضطرب في أقواله حقًا وصدقا ؟؟

- ونختم بالتنكيت (لا التبكيت) اللغوي : ورد في المقال : «**ولا ننسى** أن عشر سنوات كاملة، انقضت بين زيارته للصين (كذا) وقعوده لإملاء ذكرياته... فتضاربت أقواله واختلطت عليه الأشياء» فكأن ابن بطوطة كان أميا لايستطيع تدوين ما يراه ويسمعه في قرطاس ! والتنكيت اللغوي الذي نريده، هو عدم الدقة في استعمال «لا» فهي هنا ينبغي أن تكون ناهية لانافية، وقد يحتج الدكتور لقوله : بأن الإنسان لاينهى نفسه، ولكن الحقيقة أنه ينهَى نفسه على حدّ قول الشاعر العربي :

إذا ما خرجنا من دمشق فلا نعد
لها أبدا ما دام فيها الجراضم

☆ ☆ ☆

فالصواب أن يقول : **ولا ننس**... وختاما لا أنس أن أطلب من الدكتور مؤنس سعة الخاطر وتقبل الشكر لأنه أتاح لي الفرصة الفريدة للتصحيح ووضع النقط على الحروف كما يقال.

تطوان - الدكتور عبد الله العمراني



بعد تعرضنا في القسم الأول(*) من هذا الموضوع إلى الزوايا السعدية من الوجهة التاريخية والدينية، نعرض في هذا القسم الثاني إلى الزوايا نفسها، ولكن من الوجهة العلمية والأدبية، خصوصا وأن هذه الزوايا، مهما كان المكان الذي توجد فيه، فقد كانت تمثل مراكز إشعاع ترسل أضواءها على كافة المناطق المغربية، بل إن من علمائها وأدبائها من استطاعوا أن يفرضوا وجودهم على الساحة الثقافية في المشرق العربي فضلا عن المغرب، سواء كان ذلك في الفترة السعدية نفسها، أو كان في ظل الدولة العلوية.

فإذا توقفنا عند الزاوية الفاسية مثلا، أو بالأحرى عند الزوايا التي شيدها بعض أفراد الأسرة الفاسية الفهرية، طالعتنا أسماء الكثير من أبنائها الذين تسنموا ذروة العلم والثقافة، وساهموا بعطاءات فكرية وأدبية لازالت إلى اليوم مصدر انتفاع واهتمام. ومن هؤلاء الأبناء نذكر على سبيل المثال :

- أبا المحاسن يوسف الفاسي[1] الذي كان صوفيا صالحا وفقيها مشاركا، كما كان «جبلا راسخا في الارتسام بالسنة واتباعها، وغاية في الارتسام في الحقيقة وأنواعها»[2]، مما جعل الكثير من العلماء يؤلفون في سيرته ومناقبه[3].
- أحمد بن يوسف الفاسي[4] الذي كان يلقب بحافظ المغرب، والذي «كان يصحح نسخ البخاري ومسلم من حفظه»[5]، وهو صاحب المؤلفات العديدة بين تأليف وشرح وحاشية[6].
- عبد الرحمن بن محمد الفاسي[7] الذي كان راسخا «في التفسير والحديث والأصلين والفقه والتصوف»[8]، وقد خلف تصانيف مهمة أغلبها حواش على أعمال خالدة كمختصر خليل وصحيح البخاري مثلا[9].

---

* انظر القسم في العدد 264.

1) مات عام 1013 هـ، انظره في مصادر متعددة، منها : نشر المثاني ج 1 ص 119، التقاط الدرر ص 43، الإعلام بمن غبر ص 318.

2) نشر المثاني ج 1 ص 122.

3) من هذه التآليف : «مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن» لمحمد العربي بن يوسف الفاسي، «والجوهر الصافية من المحاسن اليوسفية» للمهدي بن أحمد بن يوسف الفاسي، و«أرجوزة فريدة الدر الصفي في وصف الجمال اليوسفي» لمحمد بن الطيب القادري.

4) مات عام 1021 هـ، انظره في مصادر متعددة منها : نشر المثاني ج 1 ص 161، والتقاط الدرر ص 55 والإعلام بمن غبر ص 345.

4) التقاط الدرر ص 56.

5) انظر بعض هذه الأعمال في التقاط الدرر ص 56.

6) مات عام 1036 هـ، انظره في مصادر منها : التقاط الدرر ص 85، ونشر المثاني ج 1 ص 266، وخلاصة الأثر ج 2 ص 378.

7) التقاط الدرر ص 86.

8) انظر هذه التصانيف في التقاط الدرر ص 85 ـ 86.

9) مات عام 1052 هـ، انظره في مصادر منها : مرآة المحاسن ص 159، ونشر المثاني ج 2 ص 10، والتقاط الدرر ص 115، والصفوة ص 71.

• محمد العربي بن يوسف الفاسي[10] الملقب بشيخ الإسلام والذي كان «نادرة الزمان حفظا وفهما وإتقانا»[11]، تشهد بذلك تصانيفه وأراجيزه المتنوعة[12].

• عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي[13] الذي وصفه ابن الطيب القادري بقوله : «قدوة الأنام، وحجة الإسلام، محيي الدين، وعمدة السالكين، العلامة المشارك المحصل للمفهوم والمنقول»[14]، وقد لخص هذا ولده محمد ابن عبد القادر عندما رثاه في قصيدة نذكر منها قوله :

وما كان إلا ملجأ لذوي النهى
وحصنا لدين الله لم يك يرتقى
مطيعا لأمر الله كان، ومن يكن
مطيعا لأمر الله يخشى ويتقى
إماما هماما زاهدا متواضعا
جوادا جلي الحلم والعلم والتقى[15]

وقد كان أستاذا بزاوية عم أبيه عبد الرحمن بن محمد الفاسي بحي القلقليين بفاس، إلا أنه «لم يتصد لتأليف كتاب مخصوص ولا شرح، وإنما كانت تصدر منه أجوبة يسأل عنه فيجيب بأفيد من تآليف المؤلفين»[16].

وإذا التفتنا إلى الزاوية الدلائية وجدنا مجموعة من ذويها العلماء الذين أوصلهم محمد الكردودي إلى خمسة وعشرين عالما[17] بالإضافة إلى من تعاطفوا مع الزاوية أو أقاموا فيها دراسة وتدريسا، نكتفي منهم بذكر :

• محمد الشرقي الدلائي[18] الذي كان إلى جانب اهتمامه بعلم التجويد والقراءات متبحرا في غيره من العلوم «حتى كانت تشد إليه الرحال من كل وجهة في علم المعقول والمنقول والمنطق والبيان والأصول واللغة والتفسير والنحو والتصريف، حتى كان يضرب به المثل في زمانه في العلم»[19]، ومن تآليفه «شرح كتاب الشفا» للقاضي عياض، «وتآليف في الأصول»، «وحاشية على المطول» للتفتازاني في البلاغة[20].

• محمد المسناوي الدلائي[21] الذي كان «آية من آيات الله في دقائق المرسوم والمفهوم، بارعا في الفقه والأصلين والتفسير والحديث وعلم الكلام والمعاني والبيان والسير واللغة وعلم الأنساب والأدب والقراءات»[22]، ومن أعماله الكثيرة : «القول الكاشف عن أحكام الاستبانة في الوظائف»، «وجهد المقل القاصر الفاني في نصرة الشيخ عبد القادر الجيلاني»، و«نتيجة التحقيق في بعض أهل النسب الوثيق»، «وصرف الهمة إلى تحقيق الذمة»[23].

• محمد المرابط الدلائي[24] الذي كان «ممن لا يجاري في علوم العربية»[25]، والذي عد «خاتمة النحاة وعلامة الأعلام»[26]، ومن أعماله : «المعارج المرتقاة إلى معاني الورقات»[27] ونتائج التحصيل في شرح التسهيل»[28]، و«فتح اللطيف على البسط والتعريف»[29]، «وشرح ألفية ابن مالك»[30].

• أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي[31] الذي طبقت شهرته الآفاق، والذي شارك في علوم كثيرة تأليفا وتدريسا. ومن تصانيفه المتعددة «حاشية على كبرى

10) التقاط الدرر ص 115.
11) انظر بعض التصانيف والأراجيز في نفس المصدر والصفحة.
12) مات عام 1091 هـ، انظره في نشر المثاني ج 2 ص 270 والتقاط الدرر ص 717، وخلاصة الأثر ج 2 ص 444.
13) نشر المثاني ج 2 ص 270.
14) نشر المثاني ج 2 ص 278.
15) نشر المثاني ج 2 ص 271.
16) الدر المنتضد الفاخر ورقة 145.
17) مات عام 1079 هـ، انظر مصادر ترجمته في الشعر الدلائي ص 357.
18) نزهة الأخيار المرضيين ص 102.
19) الزاوية الدلائية ص 251.
20) مات عام 1136 هـ، انظر مصادر ترجمته في الشعر الدلائي ص 344.
21) البدور الضاوية ص 256.
22) الشعر الدلائي ص 345.
23) مات عام 1089 هـ، انظر مصادر ترجمته في الشعر الدلائي ص 358 وكذلك مقال للمؤلف بمجلة دعوة الحق، عدد 254، ربيع الثاني جمادى الأولى 1406 هـ، يناير، فبراير 1986م.
24) التقاط الدرر ص 208.
25) التقاط الدرر ص 207.
26) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 276.
27) مخطوط بمكتبة خاصة بسوس.
28) مطبوع على الحجر بفاس عام 1316 هـ.
29) الزاوية الدلائية ص 252.
30) مات عام 1102 هـ، انظره في كتاب الشعر الدلائي ص 372 مع المصادر المذكورة هناك.
31) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 2645.

السنوسي[32]، ونفائس الدرر على شرح المختصر[33] «وزهر الأكم في الأمثال والحكم»[34]، و«كتاب المحاضرات»[35] «وكتاب القانون»[36]، وغيرها كثير.

وإذا اتصلنا بالزاوية العياشية واجهتنا أسماء متعددة من علمائها نقتصر منهم على ذكر :

• محمد بن أبي بكر العياشي[37] الذي أمضى «زهاء ربع قرن في زاويته يعلم الطلبة القرآن الكريم ومبادئ الدين، ويشرح لهم ولسائر المريدين كتب القوم، كمؤلفات الشيخ أحمد زروق وأحزاب الإمام أبي الحسن الشاذلي»[38].

• عبد الكريم بن محمد العياشي[39] الذي اشتغل بالتدريس في الزاوية العياشية زمانا، ومن أعماله تأليف سماه «أنوار السعادة في الصلاة على صاحب الشفاعة»[40].

• أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي[41] الرحالة الشهير والمؤلف المكثر في مجالات واتجاهات متعددة، ففي ميدان الرحلات نشير إلى «الرحلة العياشية» أو «ماء الموائد»[42]، وفي الفهارس نذكر له «اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر»[43]، وفي مضمار التصوف نشير من بين أعماله إلى «تنبيه أهل الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية»[44]، إلى جانب أعمال أخرى في الفقه والتوحيد والنحو وغيرها[45].

ومن علماء الزاوية الناصرية التمكروتية نذكر :

• أحمد بن محمد بن مسعود التمكروتي[46] صاحب «تنبيه الغافل عما يظنه عالم وهو به جاهل»[47].

• عبد الله بن محمد بن مسعود التمكروتي[48]، صاحب الشروح المتعددة، منها شرح لامية الأفعال لابن مالك[49] وشرح المقدمة الآجرومية[50] وشرح مختصر خليل، ويعرف بالجامع[51]، إلى جانب أهم مؤلفاته وهو «الروض اليانع في أحكام التزويج وآداب المجامع»[52].

• محمد بن محمد بن ناصر الدرعي[53]، مؤسس الطريقة الناصرية الشهيرة في المشرق والمغرب، والذي قال عنه القادري في التقاط الدرر : «رأس في العلم والعمل والولاية، ماهر في التفسير والحديث والتصوف، يستظهر تسهيل ابن مالك»[54].

ومن علماء الزاوية الفجيجية نشير إلى :

• عبد الجبار بن أحمد الفجيجي[55] مؤسس الزاوية الذي كان «عالما مشاركا، متوسعا في علوم القرآن

---

32) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 2645.

33) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع رقم د 1072.

34) نشر لأول مرة بتحقيق الدكتور محمد حجي بدار المغرب بالرباط عام 1977.

35) طبع بتحقيق كل من الدكتور محمد حجي والدكتور محمد الأخضر في ثلاثة أجزاء بمطبعة النجاح الجديدة، بالدار البيضاء.

36) مطبوع على الحجر بفاس عام 1310 هـ.

37) مات عام 1067 هـ. انظره في اقتفاء الأثر ص 95، والمحاضرات ص 128، والصفوة ص 135، والزاوية الدلائية 64، والتقاط الدرر ص 139، ونشر المثاني ج 2 ص 83.

38) الحركة الفكرية، ج 2 ص 508.

39) مات عام 1074 هـ. انظره في الاحيا والانتعاش ورقة 172 والحركة الفكرية ج 2 ص 509.

40) الحركة الفكرية ج 2 ص 509.

41) الحركة الفكرية ج 2 ص 509.

42) مات عام 1090 هـ. انظر مصادر ترجمته في مقال بمجلة دعوة الحق لعبد الله بنصر العلوي، عدد 254، ربيع II جمادي I 1406 يناير فبراير 1986.

43) طبعت للمرة الثانية مصورة بالأوفسيط بدار المغرب بالرباط بعناية الدكتور محمد حجي عام 1397 هـ، 1977م.

44) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 956،

45) مخطوط ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط رقم د 1388 (ص 219 ـ 237).

46) انظر هذه الآثار والأعمال في المقال المشار إليه سابقا لعبد الله بنصر العلوي.

47) مات بعد عام 976 هـ. انظره في الإعلام ببعض من لقيته من علماء الإسلام ص 84، وحضارة وادي درعة ص 140 ـ 141 والحركة الفكرية ج 2 ص 549.

48) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ق 918.

49) مات بعد عام 980 هـ. انظره في نيل الابتهاج ص 161، والدرر المرصعة ص 188، وحضارة وادي درعة ص 140، والحركة الفكرية ج 2 ص 550.

50) مخطوط بالمكتبة العامة بتمكروت عدد 435.

51) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 2078.

52) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط في نسخ متعددة منها واحدة رقم ج 1055.

53) مات عام 1085 هـ. انظره في مصادر منها الصفوة ص 173، ونشر المثاني ج 2 ص 211، والتقاط الدرر ص 196، والدرر المرصعة ص 307، والحركة الفكرية ج 2 ص 551.

54) التقاط الدرر ص 196.

55) مات حوالي 920 هـ. انظره في رحلة الناصري ورقة 36، وفهرس الفهارس ج 2 ص 263، والحركة الفكرية ج 2 ص 511.

والحديث»[56]، ومن أعماله في هذا المضمار : «تفسير القرآن الكريم» في اثني عشر مجلدا[57].

• إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي[58] صاحب العلم الغزير والأدب الجم، وصاحب الرحلات العلمية سواء إلى تلمسان أو مصر أو الحجاز، حيث لقي علماءها وأخذ عنهم، «وله عن الجميع إجازات ومناولات ومسلسلات»[59].

• أبي القاسم بن عبد الجبار الفجيجي[60] صاحب «الفريد في تقييد الشريد» وهو شرح على قصيدة إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي في موضوع الصيد، وهي بعنوان «روضة السلوان» ومطلعها :

يلومونني في الصيد والصيد جامع
لأشياء للإنسان فيها منافع[61]

ومن أعلام الزاوية الهبطية بجبل الأشهب نذكر :

• عبد الله بن محمد الهبطي، مؤسس الزاوية[62]، الذي كان عارفا بعلم الجدول، والجدول من الرياضيات كما يقول صاحب الجذوة[63] علاوة على تضلعه في الفقه والتوحيد وغيرهما. ومن أعماله في هذه المجالات : «الإشادة بمعرفة مدلول كلمة الشهادة»[64] «ورسالة في معنى لا إله إلا الله»[65] «وتقييد في الهيللة»[66].

• محمد بن عبد الله الهبطي المعروف بالصغير[67] الذي واصل نشر العلم بزاوية أبيه، والذي كان له تضلع في الميدان الصوفي عبر عنه بتصانيف منها : «كنز السعادة في بيان ما يحتاج إليه من نطق بكلمة الشهادة[68]»، «وكتاب في مصطلحات الصوفية»[69].

ولعلنا نقتصر من رجال الزاوية الأغصاوية على ذكر

• علي الحاج بن البقال الأغصاوي[70] الذي عمل على نشر العلم بزاوية غصاوة، والذي اشتهر بمناظراته العلمية والفقهية مع معاصريه، كمناظرته مع العلامة ابن عسكر صاحب الدوحة حول حكم إقامة صلاة الجمعة في قرى البادية[71].

• محمد بن علي الحاج الأغصاوي[72] الذي خلف والده في القيام بأمور الزاوية، والذي تميز بموقفه القوي مع السلطان السعدي محمد الشيخ المامون لدى تسليمه العرائش للإسبانيين[73].

كما نقتصر من رجال الزاوية الياصلوتية على ذكر :

• عبد الوارث الياصلوتي[74] مؤسس الزاوية ببني دركول، وصاحب المؤلفات العديدة، وخاصة في مجال التصوف «كالمسلك القريب الموصل إلى حضرة الحبيب»[75] وكشرحه على المباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية لابن البناء السرقسطي[76].

---

56) الحركة الفكرية ج 2 ص 511.
57) الحركة الفكرية ج 2 ص 511.
58) مات حوالي 954 هـ انظره في مصادر متعددة منها الدوحة ص 132، جذوة الاقتباس القسم الأول ص 99، ورحلة الناصري ورقة 37، والحركة الفكرية ج2 ص 512.
59) جذوة الاقتباس، القسم الأول ص 100.
60) مات عام 1021 هـ انظره في مصادر منها التقاط الدرر ص 59، والصفوة ص 141، والإعلام بمن غبر ورقة 347، ونشر المثاني ج 1 ص 175، والحركة الفكرية ج 2 ص 514 حيث جعل المؤلف وفاته عام 1011 هـ.
61) انظرها كاملة في «القنص بالصقر بين المشرق والمغرب» ص 124 ـ 137.
62) مات عام 963 هـ انظره في الجذوة، القسم الثاني ص 440، ومرآة المحاسن ص 15، وممتع الأسماع ص 68، والاستقصا ج 5 ص 87، والحركة الفكرية بالمغرب ج 2 ص 466.
63) الجذوة القسم الثاني ص 440.
64) ذكره صاحب الدوحة ص 12.
65) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 2167 ضمن مجموع.
66) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 2076 ضمن مجموع.
67) مات عام 1001 هـ انظره في مصادر منها التقاط الدرر ص 19، ونشر المثاني ج 1 ص 35، والصفوة ص 86، ومرآة المحاسن ص 15 والحركة الفكرية بالمغرب ج 2 ص 467.
68) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 2279 ضمن مجموع من ص 148 إلى ص 163.
69) مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط رقم 5758.
70) مات عام 981 هـ انظره في الجذوة ج 2 ص 941، ودرة الحجال ج 2 ص 448، ودوحة الناشر ص 39 ـ 40، والحركة الفكرية بالمغرب ج 2 ص 070.
71) انظر دوحة الناشر ص 39.
72) مات عام 1019 هـ انظره في نشر المثاني ج 1 ص 140، والتقاط الدرر ص 48، والصفوة ص 204، وممتع الأسماع ص 37، والحركة الفكرية ج 2 ص 471.
73) انظر فقرات من هذه الرسالة في الحركة الفكرية بالمغرب ج 1 ص 223 ـ 224.
74) مات عام 971 هـ انظره في مرآة المحاسن ص 210، وممتع الأسماع ص 7، والدوحة ص 5، والحركة الفكرية بالمغرب ج 2 ص 476.
75) ميكرو فيلم بالخزانة العامة بالرباط رقم 352.
76) ميكرو فيلم بالخزانة العامة بالرباط رقم 254.

ومن علماء الزاوية الخياطية نذكر :

• عبد الله بن إبراهيم الخياط مؤسس الزاوية بزرهون[77] الذي «بقي عقودا من السنين... يعقد مجالس لتدريس التوحيد والفقه والتصوف»[78]

• أبا القاسم بن منصور العمري[79] أحد تلاميذ عبد الله بن إبراهيم المتقدم، والذي كان عالما مشاركا زيادة على كونه شاعرا.

أما علماء الزاوية الوزانية فنسجل منهم.

• عبد الله الشريف بن إبراهيم[80] مؤسس الزاوية بوزان، والذي «عاش في وزان زهاء نصف قرن ينشر العلم ويربي المريدين»[81].

• عبد الكبير بن عبد المجيد الكثيري الملقب عليوات[82] الذي كان عالما كبيرا وصوفيا صالحا، والذي كانت له تآليف منها : «سراج الغيوب في أعمال القلوب»[83] «والسيف المتين في الرد على من كفر عوام المسلمين»[84].

وهكذا لو تتبعنا العلماء الذين احتضنتهم الزوايا في العصر السعدي، والذين كانوا محطات بارزة في مسيرة الفكر والثقافة ببلادنا لوجدنا سيلا عارما من هؤلاء العلماء، ولانتهينا إلى تصور الدور الكبير الذي لعبته هذه الزوايا في المجال العلمي، والحفاظ على رقعته ممتدة واسعة.

ولعلنا من خلال هذا التتبع ندرك أن هذا الدور قد اتخذ واجهات متعددة يمكن تبينها فيما يلي :

1) إقامة مجالس العلم وحلقات الدرس، يتصدر فيها هؤلاء العلماء للتدريس والإقراء في شتى أصناف الفكر والمعرفة.

2) تأليف الكتب والتقاييد التي لم تقتصر على لون معين بقدر ما تجاوزت ذلك إلى ألوان مختلفة من تصوف وفقه وأصول ولغة وما إليها، والتي لا تزال إلى اليوم مصدرا أساسيا من مصادر هذه الألوان لا يستغني الباحث عنها، ولا يجهل الدارس قيمتها.

3) ربط الجسور بين الثقافة المغربية والمشرقية، وذلك عن طريق ما كان علماء هذه الزوايا يتدارسونه من مؤلفات مشرقية أو كانوا يضعون عليها من شروح وحواش، أو كانوا ينظمونها نظما.

4) استقطاب العديد من العلماء الذين كانوا يفدون على هذه الزوايا سواء من المغرب أو خارجه، وخاصة منها الزاوية الدلائية، فيساهمون في حركتها الثقافية والفكرية بما يملكون من مؤهلات وطاقات مختلفة. ونكتفي في هذا المجال بالإشارة إلى العلامة المتضلع أحمد المقري التلمساني الذي استقر ردحا من الزمن بالزاوية الدلائية، وكانت له فيها مساهمات علمية وأدبية معروفة.

☆ ☆ ☆

وإذا عدنا بعد هذا إلى مجال الشعر، وحاولنا النظر في علاقة هذه الزوايا به إبداعا واهتماما، لوجدنا أنها فعلا كانت توليه من العناية والحدب ما جعل عدد شعرائها يتكاثر، وما جعل بعضها قبلة يتجه إليها الشعراء من مناطق أخرى ليحتكوا بشعرائها ويساجلوهم، كما هو الشأن مثلا بالنسبة للزاوية الدلائية التي احتضنت شعراء أمثال أبي العباس أحمد بن القاضي وأبي علي الحسن بن مسعود اليوسي في المراحل الأولى من حياته.

على أننا نستطيع أن نصنف رجال الزوايا السعدية إلى فئتين اثنتين فيما يتعلق بعلاقة كل منها مع الشعر :

أ - فئة مستفيضة تتعامل مع الشعر إنشادا واهتماما وهي الفئة التي سنعرض لها بعد قليل.

ب - فئة قليلة تتخذ من الشعر موقفا خاصا، قد يكون هذا الموقف هو الابتعاد عن قول الشعر تماما كما هو

77) مات عام 939 هـ. انظره في الدوحة ص 82 ومرآة المحاسن في مواضع متفرقة والسلوة ج 3 ص 191 والحركة الفكرية ج 2 ص 494.

78) الحركة الفكرية ج 2 ص 495.

79) مات عام 1089 هـ. انظره في الصفوة ص 198 والسلوة ج 2 ص 30، والحركة الفكرية ج 2 ص 473.

80) الحركة الفكرية ج 2 ص 474.

81) انظره في سراج الغيوب، المقدمة والحركة الفكرية ج 2 ص 474.

82) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 455.

83) ورد ذكره في كتاب : سراج الغيوب.

84) البدور الضاوية ص 152.

الشأن عند محمد بن أبي بكر زعيم الزاوية الدلائية الذي لم يكن يقول الشعر جريا على سنة الرسول ﷺ الذي كان يحبه ولا يقوله، وكثيرا ما كان يتمثل بقول الإمام الشافعي :

ولولا الشعر بالعلماء يزري
لكنت اليوم أشعر من لبيد[85]

وقد يكون هذا الموقف الإحجام عن قول الشعر بعد ممارسته حينا من الدهر كما هو الشأن بالنسبة لحفيد أبي المحاسن، عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي الذي جاء عنه في ابتهاج القلوب : «وأما الشعر فقد تخلى عنه في أثناء أمره بعد إجادته وإحكامه، وشهادة أهله بالمشي منهم تحت راياته وأعلامه، والإشارة فيهم بأكمامه... وكان يحكي عن شيخه أبي محمد عبد الرحمن أنه كان يقول : الشعر يشغل عن القرآن»[86].

وقد يكون هذا الموقف أخيرا محاولة الابتعاد عن الشعر لأسباب مختلفة، ولكن شيطانه يلح ويكثر في الإلحاح، كما هو الشأن بالنسبة لعبد الرحمن بن يوسف الفاسي الذي صدرت عنه بعض الأقوال الشعرية بالرغم من أنه «كان لا يتعاطى الشعر ولا ينتحله، ويحكي ما قاله ابن خلدون أن أهل المراتب يترفعون عن انتحال الشعر، وقول الشيخ زروق : قالت له جدته يا بني لا تترك الفقه وتشتغل بالشعر فتكون كمن يترك القمح ويأكل الشعير»[87].

ولعل عناية الزوايا السعدية بالشعر قد اتخذت واجهات متعددة يمكن رصد بعضها فيما يلي :

1 - **الحفظ** : وأعني بذلك أن من رجال هذه الزوايا من كانوا يتوفرون على رصيد واسع من الشعر العربي، سواء كان مشرقيا أو أندلسيا أو مغربيا، وهو الرصيد الذي ظهرت آثاره على صياغتهم الشعرية، وكذلك على

85) ابتهاج القلوب ص 262.
86) ابتهاج القلوب ص 184.
87) روضة المحاسن ص 61.

بعض مضامينهم، كما أنه الرصيد الذي وظفوا بعضه في ثنايا شيء من منثوراتهم، أو في بعض موافقهم واستشهاداتهم.

ولعل فيما ثبت عن بعض شعراء الزوايا الفاسية أو الزاوية الدلائية ما يؤكد ذلك، ويغني عن التماس غيره من الأدلة والنماذج. فقد جاء في «روضة المحاسن».

أن أبا المحاسن الفاسي سئل عن زيارة الأولياء فأجاب مستشهدا بأبيات لأبي إسحاق إبراهيم التازي في الموضوع تقول :

زيارة أرباب التقى مرهم يبري
ومفتاح أبواب الهداية والخير
وتحدث في الصدر الخلي إرادة
وتشرح صدرا ضاق من سمة الوزر
وتنصر مظلوما وترفع خاملا
وتكسب معدوما وتجبر ذا كسر...[88]

وكذلك الأمر بالنسبة لعبد الرحمن بن يوسف الفاسي، فقد جاء في ابتهاج القلوب بأنه «كان لا يبالي بما يقول إذا كان حقا... بل هو مع الله في كل حاله، وجار على مواده واختياره له في كل وقت، وينشد أبيات أب فراس الحمداني :

فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر
وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين
وكل الذي فوق التراب تراب

وقول ابن القارض رضي الله عنه :

فمن شاء فليغضب سواك فلا أذى
إذا رضيت عني كرام عشيرتي»[89].

2) الاهتمام بالشعر متمثلا في الانكباب على نماذج الأقدمين من الشعراء، والتعامل معها دراسة وشرحا، وكذلك

88) ابتهاج القلوب ص 125.
89) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع رقم ك 232.

على نماذج بعض الشيوخ ورجال الزوايا نقدا وتحليلا، ولعلنا في هذا المجال نكتفي بالإشارة إلى بعض النماذج التي تغني عن ذكر غيرها، من ذلك شرح همزية الإمام البوصيري الذي وضعه محمد بن عبد الرحمن الزمراني الصومعي المتوفي عام 1123 هـ[90]، وشرح نونية أبي مدين الغوث الذي وضعه محمد بن عبد الله الهبطي المعروف بالصغير، والذي سماه : «كشف الأستار الغيبية عن وجه القصيدة الشعيبية»[91]، وشرح قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير الذي وضعه أبو حامد محمد العربي بن يوسف الفاسي[92]، وشرح قصيدة إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي في موضوع الصيد الذي وضعه أبو القاسم بن عبد الجبار الفجيجي المتوفي عام 1011 هـ[93].

وقريب من هذا ما نجد من اهتمام كذلك، متمثلا في المساجلات الشعرية والتحميات والتذييلات، وهو جانب نلمسه عند مجموعة من شعراء الزوايا، إذ كانوا يبرهنون بذلك على أن الشعر جزء من مكونات شخصيتهم الثقافية، يملكون ناصيته ويتصرفون في فنونه بسهولة ويسر.

ففي إطار المساجلات الشعرية نسجل ما ثبت عن الشاعر الدلائي أحمد الحارثي الذي كان يوما في مجلس قراءة البخاري بحضرة شيخ الإسلام أخيه محمد بن أبي بكر، فلما طال به المجلس كتب على ورقة قوله :

ما للنهار اليوم لا ينصرم ... والشمس في أفق السماء تخيم

فكأنها في التيه ضل سبيلها ... وموثق يخطو ولا يتقدم

أو كالجبان رأى الرماح تشاجرت ... يبدي التشجع ثم عنها يحجم

لا بل هي السلطان في كرسيه ... فترى البرية تحته تتظلم

يا شمس لا محقت بهاءك كسفة ... سيري فإن الخلق تحتك صوم[94]

فلما اطلع الأديب أحمد بن عمران عليها كتب تحتها يقول :

قد أبطأت في سيرها ... لنسجها ديباج نور

على معان أطلعت ... نجوم سعد وبدور

لله ما أجملها ... بين قرار وسرور[95]

أما في إطار التمسيات والتذييلات فقد ورد في ابتهاج القلوب «أنشد الفقيه العلامة قاضي مراكش أبو عبد الله محمد بن أبي عبد الله الرجراجي حين كان بفاس، قدمها مع الخليفة أبي العباس المنصور عام 1011 هـ.

لي واحد خلفت قلبي عنده ... والقلب منه في اتباعي ظاعن

يبكي وأبكي للفراق وطالما ... بتنا وقلنا والزمان لين

فالشوق فيما بيننا متردد ... والوجود منا للفؤاد ظاعن

فأجابه الكاتب سيدي عبد العزيز الفشتالي بقوله :

صبرا أبا عبد الإله فكلنا ... للشوق في جنبيه جمر كامن

لنا نذوق العيش إلا مرارة ... والماء إلا وهو ماء آمن

إنا لنرجو البين ينسخ حكمه ... حتى نرى متحركا هو ساكن

فذيل سيدي محمد بن عرضون الإمام القاضي بقوله :

فوض أمورك للإله ولا تكن ... متلفتا لسوى الذي هو كائن

90) مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط رقم 1620.

91) مات دون إتمامه (انظر سلوة الأنفاس، ج 2، ص 315).

92) القنص بالصقر بين المشرق والمغرب ص 118.

93) البدور الضاوية ص 215.

94) البدور الضاوية ص 216.

95) من رجال الزوايا وهو عبد الرحمن الفاسي أخو أبي المحاسن.

فــوض وسلم واعتصم صـــــــاح فمـــــا

ذا اليسر إلا في التعسر كــــــــــــــامن

واللـــــه يعطف قلب مـولانــــا الإمـــا

م محركـــا منـــه الـــذي هـــو ســـاكن

فقال الشيخ أبو محمد[96] مذيلا لذلك كله :

وارض رضى يتحفــــــــك من رب العلى

رضـوانـــه فـــاللطف حتمـــا بـــاطن

ودع التلفت للمضى ومقـــــــابـــــــل

ذاك الهنـــاء وفيـــه صفـــو كـــامن

والفـــوز في حب الإلـــــه وقربـــــه

فهـو العـزيمـــة والترخص بـــائن[97]

ولم يقف هذا الاهتمام من رجال الزوايا بالشعر عند حد الشروح كما تقدم، ولكنه تجاوز ذلـك إلى ميدان التذوق والنقد، وفقا لما نصادفه في بعض المصادر، ومنها كتاب «روضة المحاسن» الذي نقتطف منه هذه الفقرات حول أبي المحاسن يوسف الفاسي، فقد «سئل رضي الله عنه عن مريدين قال كل واحد منهما شعرا من الملحون المسمى بالعروبي أي كلامهما أعلى ؟ وما هو مقام كل واحد منهما. قال أحدهما ما نصه :

يـــا فقرا من بغـــا سيـــدو يتبختر

لا يخشى شر فمـــا صـــدر من هفـواتـو

يرمي رجلـو في البحر يمشي بـــالشـور

سيـــدو يرعـاه في الحضـور وغيبـاتـو

لكـون الكـل منطـوي في قبضـــاتـو

وقال الآخر :

هـــذاك اللي بغـــاه سيـــدو يـــا فقرا

فيـدو جمرا يخـاف من سطـوة الامتحـان

يحفـظ عهـدو يكـون تـابـع للجرا

ينفي الغرا يكـون عـارف بـالأوطـــان

يعرف قـدرو في بســاط أهـل الأمــان

فأجاب بما نصه :

الحمد للـه دائمـا، والصلاة والسلام على مولانـا رسول الله وعلى آله.

اعلموا أرشدنا الله وإياكم أن الناظمين إن أشارا إلى التوحيد فالأول بالحقيقة موسوم، فمقامه التحقيق، والثاني بالشريعة مرسوم، فمقامه التشريع، ولا يتم أحدهما إلا بمنازلة حال صاحبه، لأن مورد الاثنين ومادة النقطتين : إياك نعبد وإياك نستعين، فآخر الآيتين لأولى اللفظتين، فالأول يشير إلى تعريف الحق، والثاني ينبئ وينبه على الأدب وتكليف الخلق، فالأول مشاهد أحكام الربوبية، والثاني قائم بأوصاف العبودية، فالأول محبوب وبالعناية مصحوب، والثاني محب هائم، وبأحكام المطالب والآداب قائم، **﴿كلا نمد، هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك﴾**، الآية.. وقد علی ما بين المنزلتين وعالي الدرجتين، وإن أشارا إلى غير ذلك ما ذكر كالشيخ ونحوه، فكلاهما على نسق، ومشربهما على وفاق، حيث كانا يدقان وراء الباب، وخلف الظلال، فاقدين منازل القرب، ومراتب الوصال، فإن فتح لهما ربما اختلف نوالهما وموارد شرابهما، على حسب الهمة والقريحة الملحة النصيحة، فيواجه الأول بالجذبة لتطلعه إياها، وعلو همته سماها، ويختص الثاني بالسلوك لوقوفه على بساطه، ومراعاة حدوده، فإن شفع الحاصل بالأول كان واصلا وإلا تعطل، والأول إن تولى للثاني تحقق وإلا كان مبطلا، **﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾**،الآية.. فعلى المدة الأولى الأول أعلى والثاني أسلم وأحلى، وعلى الثانية فالثاني أسلم، وللآداب ألزم، فهو بالرعاية محفوظ، وبالعناية ملحوظ، والكلام هنا يطول جدا والسلام على من يقف عليه، والرحمة والبركة، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.[98]

3) الإبداع، وهو مجال واسع يكاد ينتظم الكثير من زوايا الفترة أمثال الزاوية الدلائية في المقام الأول،

96) ابتهاج القلوب ص 185 ـ 186.

97) روضة المحاسن ص 89 ـ 91.

98) ابتهاج القلوب ص 184.

والزاوية العياشية، والزاوية الياصلوتية، والزاوية الخياطية، والزاوية الفجيجية، والزاوية المهدية، والزاوية الزداغية، والزاوية الصومعية، والزاوية الناصرية، مما يعكس الاهتمام الكبير الذي حظي به الشعر في مختلف مناطق المغرب، والذي كانت الزوايا السعدية من أبرز ما احتضنه وحافظ عليه.

ونحن عندما ننظر إلى شعر هذه الزوايا، سواء أكان شعر أبنائها أم كان شعر الوافدين عليها من العلماء والشعراء، أمكننا أن نلحظ فيه اتجاهين اثنين، كلاهما يتميزان بالخصوبة والتنوع، وهما اتجاه الموضوعات الشعرية، واتجاه الأنماط التعبيرية.

أ ـ اتجاه الموضوعات الشعرية : وهنا نستطيع أن نقسم هذا الشعر إلى مستويين اثنين كذلك، أحدهما مرتبط بالاتجاه الديني الذي يوحي به طقس الزاوية المغربية كخلية دينية صوفية، وثانيهما مرتبط بالذات باعتبارها جزءا لا ينفصل عن الشاعر، ولا يستطيع هذا الشاعر أن يتجرد من نزعاته وتأثيراته.

ولعلنا في المجال الأول من هذين المستويين نستطيع أن نشير إلى الأشعار الكثيرة التي نظمها أصحابها في ميدان التصوف من جهة، وفي مضمار الأمداح النبوية من جهة ثانية، وهو لون من الشعر لعله كان مرتبطا إلى حد بعيد بالجو العام الذي كان يوجه الزاوية السعدية في هذه الفترة، والمتمثل في دعم الحياة الدينية والروحية، عن طريق التزهيد في ملذات الدنيا ومباهجها، والتنفير من الحرص على الحياة ومفاتنها، والتركيز على شخصية الرسول ﷺ باعتبارها مثلا أعلى يجب احتذاؤه والاقتداء بسيرته وهديه.

ومن نماذج هذا اللون من الشعر قول عبد الرحمن بن يوسف القاسي مخمسا بيتي عبد القادر الجيلاني في موضوع التصوف :

آسى وأنت الأنس في كل مشهد
وأخشى وقد أيقنت أنك مرشدي
أذل وأنت العز لي ومؤيدي
وأظْمَا وأنت العذب في كل مورد
وأظلم في الدنيا وأنت نصيري
إليك ومنك الأمر لا غير صائر
ولا شيء إلا الله للكسر جابر
ومالي إلا أنت ربي ناصر
وعار على حامي الحمى وهو قادر
إذا ضاع في البيدا عقال بعيري[99]

ومن نماذجه كذلك قول الشاعر الرسمي للزاوية الدلائية أبي العباس أحمد الدغوغي في مدح الرسول الكريم من قصيدة :

الهاشمي الأبطحي محمد
هادي الأنام وسيلة المتوسل
خير الأوائل والأواخر من له
نطق الجماد رضى بأفصح مقول
وكذا إليه الجذع حن وأن من
شوق لوطأته بمحضر محفل
ومن الزلال العذب عل محافظا
من بين أنمله جرى بمسلسل
وشكا البعير إليه فرط عنائه
وشكا الغزال إليه خيفة موجل
والضب أفصح معلنا بثنائه
والذيب سلم جهرة بتذلل[100]

أما المستوى الثاني فقد عرف فنونا من القول كثيرة، ربما كان الغزل أهمها وأبرزها. ولعل الغزل عند هؤلاء الشعراء لم يكن مقصودا لذاته في كل النماذج التي وصلت عنهم، ولكنه كان يشكل مستوى من مستويات التعبير الرمزي الذي كان شعراء الزوايا يتوسلون به، وخاصة فيما

99) البدور الضاوية ص 98.
100) شعر عبد العزيز الفشتالي ص 374.

كانوا يستهلون به قصائدهم في المديح النبوي أو التصوف. ولعلهم في هذا المجال يشكلون توسيعا للظاهرة التي عرفها شعر المولديات في العصر السعدي، حيث كان شعراء هذه المولديات، وإن كانوا يتغزلون في افتتاحيات قصائدهم، إلا أن غزلهم هذا كان رمزا لحرم الرسول ﷺ وللكعبة المشرفة، حسبما نجد في إحدى افتتاحيات شاعر أحمد المنصور الذهبي أبي فارس عبد العزيز الفشتالي في الموضوع :

دار الحمى أدنفت جسمي ذكراك
فأنعشي بشذا رياك مضناك

وحمليه صبا في طي هبتها
نشر لدى الصبح يفشي سر ليلاك

ويا محجبة خلف الستور أما
يدنو المزار لكي أحظى بلقياك

لولاك ما كنت أصبو عند كل صبا
لها مرور بذاك النفح لولاك

طافت بركنيك آمال المحب فإن
كلفته السعي فوق الوجه لباك

يصلى بنار اشتياق من تذكره
بما يخيل من أوصاف مغناك

هل بان حيك عن بان اللوى سحرا
ويمموا من أراك الشعب أرطاك

أظما إلى رشفة ألوى المطال بها
من حجر لاح خالا في محياك

فبرقع الوجنة اللمياء من صدإ
يعلوه من زفرات كل نساك

لله أنت متى يطوى النوى ومتى
يلوح لي برق نجد من ثناياك

ويا سفينة قصدي للديار متى
يقول عزمي باسم الله مجراك

ما للتخلص عن شوقي إليك سوى
أني بمدح رسول الله أسلاك[101]

وهو النهج ذاته الذي يطالعنا في غزل بعض شعراء الزوايا، كما نقرأ في إحدى الأمداح النبوية للشاعر الدلائي محمد بن محمد بن المرابط، حيث يستهلها بمقدمة طللية غزلية لاشك أنه يرمز بها إلى المدينة المنورة حيث قبر الرسول الكريم ﷺ، يقول من هذه المقدمة :

أوحشية العينين أين مها نجد
وأين ظباء قد أثرن بها وجدي

وأين ثوت غزلان سعد ورامة
ومن بالخليصا يامهاة بني سعد

أتهت دلالا وانتخاء ورفعة
عليها لما قد خانها فيك من سعد

عهدناك تغشاك العوانس لوعة
وتخشاك أنواع العوابس من أسد

فمالي أراك اليوم عنها بمعزل
فما ذاك إلا من جفاء ومن صد

بعيشك كفي عن محياك سجفه
لأبصر ما قد راعها منك من جد[102]

إلى أن يخلص إلى موضوع المدح فيقول :

إلى الله كم أرمى بسهم من النوى
فيغمى على قلبي المعذب من بعد

فياليت شعري هل أفوز بعودة
على رغم عاد قبل نائحة اللحد

أقبل أعتاب الحبيب بلوعة
ووجد وأشواق تزيد على العد

وأركع ما بين قبر ومنبر
ركوع خشوع يستنير به رشدي[103]

أما مقطوعاتهم الغزلية المستقلة، فلعلها كانت تعبيرا عما يخالج الإنسان من عواطف وأحاسيس، وما يعلتج في

---

101) ديوان محمد بن محمد المرابط الدلائي ص 50.
102) ديوان محمد بن محمد المرابط الدلائي ص 51.
103) البدور الضاوية ص 269.

صدره من هيام وتعلق، سواء أكان من رجال الزوايا أم من غيرهم، وفي هذا الإطار نقرأ في إحدى غزليات محمد المرابط الدلائي :

وغـــادة قـــد أقبلت
تميس زهـــوا من خمـــار
قـــد خجلت حتى بـــدا
منهـــا نفـــار وازورار
كـــأنمـــا من خـــدهـــا
تنـــاولت كـــأس العقـــار
في جيـــدهـــا ولفظهـــا
لـــؤلـــؤ نظم ونثـــار
قـــد ســـددت من قـــدهـــا
رمحـــا سنـــانـــه احـــورار
كصعـــدة لـــدرقـــة
في كبـــدي الانكـــار
أو غصن روض مـــائس
والـــوجنتـــان الجلنـــار
أثمر رمـــانـــا بـــه
مني الفـــؤاد الجـــل نـــار
تـــزري ببـــدر مشرق
ينـــاط بـــالبـــدر السرار
قـــد أسلت غـــدائرا
تـــولـــج في الليـــل النهـــار
برتـــج ردفيهـــا كمـــا
يرتـــج مـــائـــج البحـــار
وخصرهـــا لرقـــة
نطـــاقـــه قـــدر الســـوار
يـــا كعبـــة الجمـــال في
وصلـــك حـــج واعتمـــار
على استـــواء الخـــال في
خـــديـــك يفنى الاصطبـــار

ومن مواضيعهم الذاتية كذلك موضوع المدح، الذي كانوا يعددون فيه مناقب نخبة من الأولياء والعلماء والأدباء، وهو مدح يقوم على الصدق في العاطفة، والوضوح في التعبير، في محاولة لاتخاذ الممدوح قدوة صالحة للاهتداء به، واعتبار مدحه وفاء بحقه واعترافا بفضله. ونكتفي من نماذج ذلك بقصيدة لأبي العباس الدغوغي في مدح محمد ابن أبي بكر الدلائي مطلعها :

ثغر السرور وأي ثغر بـــاسم
عن ظلمـــة كشف اللثـــام لـــلاثم[104]

فمما جاء فيها قوله مادحا إياه عندما قضى على إحدى الفتن :

يـــا أحلم الحلمـــاء أحـــزمهم إذا
مـــا الرأي رد إلى مشـــورة حـــازم
صـــل واغلظن في اللـه واسـط مجاهـدا
بحسام عـزمـك ذي الـذؤاب الحـاسم
واقطـع حبـال خبـال كـل معـارض
ومعـــانـــد للحـــق غير مـــلائم
فـــإلام تبرح في الضـلال قبـــائـل
من غرب مغربنـــا ســـدى وأعـــاجم
وتروم روم الشرك فرصـــة مـــاكر
بـــالمسلمين الغر غير مـــسالم
وإلى سيـــادتـــك النيـــة ينتهي
نصـــح الـــورى ولأنت أعلم عـــالم
ولـواء نصرتـــك المـؤيـــد خـــافـق
للـــدين بـــارد ظلـــه من نـــاعم
والـــدين أنت إمـــامـــه ورئيســـه
والـدهر عبـدك وهـو أطـوع خـادم[105]

وفي الموضوع ذاته وعلى سبيل المثال دائما، ندرج قصيدة للشاعر الدلائي الطيب بن المسناوي يمدح فيها عمه محمد المرابط عندما وضعه تأليفه المسمى : «البركة البكرية

(104) البدور الضاوية ص 123.
(105) نفس المصدر والصفحة.

في الخطب الوعظية» إذ يقول :

روض المحاسن من بيانك نورا
ودجى المعارف من علومك أقمرا
وكواهل الشرف اغتدت مرقومة
لما سموت من المراتب منبرا
حزت الفخار فما لغيرك مثله
ولأنت خير من انتدى وتصدرا
سجدت لك الأيام مع أبنائها
وعصى وكذب من أبى واستكبرا
طوقت أجياد البيان قلائدا
ونثرت منها منمنما ومحبرا
وغدوت في أبناء عصرك واحدا
وحويت من كل المفاخر مفخرا
وبرزت غير مشارك في شأوها
ووردت لم تزحم إلى أن تصدرا
كم أوضحت منك الدراية مبهما
كم عرفت منك الرواية منكرا
وفتقت من رتق العلوم كمائما
وجنيت من تلك القطوف منورا
وكرعت من عذب المحاسن منهلا
وأفضت من نيل البلاغة كوثرا
وأتيت بالسحر الحلال ونفثه
ووشيت وشي من انتقى وتخيرا
كم من فضائل في العلا مأثورة
صار الزمان بنشرهن معنبرا
فاجرر ذيول الفخر واسحب بردها
وامش البراز تكبرا وتبخترا
فالذكر منك على العصور مخلد
وإذا أطلت فقد أكون مقصرا[106]

وإلى هذين الموضوعين، المدح والغزل، نضيف موضوعا ثالثا لا يقل أهمية عن سابقيه، وهو موضوع الرثاء، الذي كان عندهم بدوره صادق العاطفة متأجج الإحساس، يعرب فيه الشعراء عن مدى تعلقهم بالفقيد الذي كان مثالا للعالم الجاد والرجل الصالح، على غرار ما نقرأ في مرثية محمد بن عبد القادر الفاسي لوالده حيث يقول :

يقولون مات الحبر وهو كواحد
لعمرك ذا قول لمن كان أخرقا
وهيهات ما حبر يموت كواحد
ولكنه جمع لقوم تفرقا
وما كان إلا ملجأ لذوي النهى
وحصنا لدين الله لم يكن يرتقى
مطيعا لأمر الله كان ومن يكن
مطيعا لأمر الله يخشى ويتقى
إماما هماما زاهدا متواضعا
جوادا جلي الحلم والعلم والتقى
يحق لعيني أن تسح لفقده
دموعا تعم الأرض غربا ومشرقا
ولم لا وقد عم البلا بمصابه
وأصبح طرف الدين للكرب مطرقا
وقد شمل الإسلام يوم فراقه
أسى قيد أشجان والدمع أطلقا
يقول لسان العلم أين نظيره
لحملي ومن يلقى لفهمي محققا
فقل للذي لم يقدر الحبر قدره
وربي ما أبصرت مثلك أحمقا[107]

ولعل موضوع الرثاء كان عند بعضهم فرصة للتأمل والتدبر، واستخلاص العبرة من هذا الدهر الذي لا يبقي على أحد، والذي لا يسلم من قبضته إنسان، على حد ما نقرأ في مرثية الطيب بن المسناوي الدلائي لوالده :

غوائل هذا الدهر مرهوبة الفتك
فإن سر في حين فأكثره مبك

106) البدور الضاوية ص 357.

107) نشر المثاني، ج 2 ص 278.

فكم من عـزيـز قـد أذل ودولـة
أدال فـلا يبقي على المرء أو يشكي
مكـائـده منصوبـة وسهـامـه
مفـوقـة تصمي الجـوانـح أو تنكي
إذا سر منـه جـانب سـاء جـانب
وإن لان يـومـا فـالمـآل إلى الضنـك
فمن ذا الـذي لم يبتليـه معـاره
ومن ذا الـذي أهـدى لـه صفحـة الترك
فـأين الأولى قـد دوخـوا من قطرهـا
وأضحت لهم صيـد الملـوك إلى الملـك
وجروا انتخـاء برد زهـو ونعمـة
وجـاروا اعتسـافـا بـالتصـوف والنسـك
وعـزوا وبروا واستطـالـوا وصـاولـوا
ودارت بمـا يهـوون دائرة الفلـك[108]

ومن ثم ينتهي الشاعر إلى القول :

فـداك ممر لـلأنـام عبـوره
ولابـد للتركيب من خلـل الفـك
فمـا خطت الأقـلام خلـدا لحـادث
ولا أكبر المقـدار نـورا عن الفرك
ولا منعت أيـدي الحـوادث عـزة
ولا كبحت لجم المقـادير بـاللـوك...[109]

ب - اتجاه الأنماط التعبيرية : وهو اتجاه لم يقتصر فيه شعراء الزوايا على نمط واحد هو نمط القصيدة العربية التقليدية القائمة على وحدة الوزن وثنائية الشطر ووحدة القافية بقدر ما تجاوزوا ذلك إلى أنماط تعبيرية أخرى إن باللسان العربي الفصيح أو باللهجة المحلية الدارجة.

ففي إطار الشعر المدرسي الفصيح، وعلاوة على نمط القصيدة التقليدية، تعامل شعراء الزوايا مع الموشحات باعتبارها لونا من التعبير كان رائجا في المرحلة، وفي موضوعات شتى، ولعل من رجال هذا اللون أحد شعراء الزاوية الدلائية الطيب بن المناوي الذي احتفظ له صاحب البدور الضاوية بثلاث موشحات جاء في إحداها :

قـد غصن مـال في روض الشبـاب
مـاد بـاللـدن الرطيب
بـدر تم تحت ليـل من نقـاب
تم لي فيـه النسيب
أحـور العينين فتـان
أهيف الخصرين أغيـد
لين الأعطـاف وسنـان
لطفـه قـد كـاد يعقـد
فتنـة في شكـل إنسـان
وهـو غصن وهـو فرقـد
ظمـإي نحـو ثنـايـاه العـذاب
لـولا خـوف من رقيب
عـذبهـا كـان لي منـه العـذاب
كـل حين ذو لهيب
مـا بـدا للعين أو بـان
إلا أبـدى حرق الصـد
نـاعم الأرداف ريـان
فـاتر اللحظين أملـد
بـاهر الأوصـاف سكران
من خمـار الـدل عربـد
وأثيث الفرع منـه كـالغراب
أسـود اللمـة غربيب
ضرب يشتـار من ذاك الرضـاب
لـو حبـا منـه الحبيب
جـؤذر بـاللحـظ طعـان
كـل من يرميـه أقصـد
رنـح التيـه منـه البـان
هـزه الـدل وميـد

108) البدور الضاوية ص 258.

109) المصدر نفسه ص 259.

فـــاتـــك بـــالمستهـــام العـــان
بطلي مغـــــــزل أجيــــــد
دميـــة الحسن بهـــا عقـــد حــلاب
تستبي رق القلـــــــوب
بهجـــة تستنــزل العصم العصـــاب
بعثـــت هـــم الكئيـــب[110]

كما تعاملوا مع الأرجوزة تعاملا واسعا، أسوة بغيرهم من شعراء المرحلة الذين توسلوا بهذا اللون من التعبير لنظم عدد من العلوم التي كانت رائجة إذ ذاك. ولعل كثيرا من شعراء الزوايا قد انساقوا مع هذا التيار الذي عرف في العصر السعدي رواجا ملحوظا[111]، والذي قد يطول فيه نفس الشاعر طولا يعرب عن تضلعه وإحاطته، كما هو الشأن مثلا في أرجوزة «المعرب الفصيح» لمحمد بن عبد الله الهبطي المعروف بالصغير التي تبلغ 1383 بيتا[112].

ولعل ممن توسلوا بأسلوب الأرجوزة من أدباء الزوايا العالم الشاعر أبا حامد محمد العربي بن يوسف الفاسي الذي احتفظ له التاريخ بنماذج كثيرة في هذا المجال، سواء في التوحيد، أو علم الكلام، أو الحديث، أو الفقه، أو الأوفاق، أو المنطق، أو اللغة، والشاعر أحمد بن القاسم الصومعي الذي كانت له أراجيز متعددة منها «مفتاح السعادة» و«نتائج الأفكار» و«نصيحة الضعيف الراغب في ذروة المنيف»[113] وغيرهما من الشعراء الرجاز.

ولا ننسى أخيرا أن نشير إلى نمط آخر توسل به بعض شعراء الزوايا، متمثلا في الملحون والزجل الذي نجده عند أكثر من شاعر. ولعل هذا النمط عندهم مرتبط بالرغبة التي كانت تحملهم على أن ينزلوا بالإبداع الشعري إلى مستوى العامة من الناس، معتمدين في ذلك على اللهجة المحلية الدارجة التي تكون القاسم المشترك بين فئات المجتمع المغربي. ولعلنا نذكر من هؤلاء الشعراء محمد بن علي الحاج الأغصاوي المتوفى عام 1017 هـ الذي كان «له كلام كثير على طريقة أهل الملحون»[114]، وأحمد بن محمد الباصلوتي المتوفى عام 1021 هـ الذي نسجل من زجله ما كان يتغنى به في مدح الشيخ أبي الشتاء :

أسيـــدي بـــوشتـــا مـــولى عيني
لـــولا أنت أشيكـــون أنـــا مني[115]

وعبد الوارث الياصلوتي المتوفى عام 971 هـ صاحب «نصح المومن» وهي رباعيات باللسان الدارج في أزيد من مائة بيت[116].

وهكذا إذن يتضح أن الزاوية المغربية في العصر السعدي، قد لعبت دورا بارزا في دعم الثقافة والفكر ببلادنا، وفي احتضان الشعر والشعراء على اختلاف نزعاتهم ومشاربهم، كما استطاعت أن تطبع مرحلة من مراحل المسيرة الأدبية بالمغرب بسمات متميزة لاشك أنها كانت نتيجة لما عرفه المغرب إذ ذاك من أوضاع سياسية واجتماعية معروفة، وعسى هذا البحث المقتضب أن يمد المهتمين ببعض الخيوط عن أدب الزوايا بالمغرب، وهي خيوط تستهدف التعريف بهذا الأدب في المقام الأول، على أمل أن تسعف الظروف مستقبلا بدراسته من الوجهة الفنية قصد الوقوف على ما يتميز به من سمات وخصائص.

110) البدور الضاوية ص 364.
111) انظر مقالا لعبد الجواد السقاط حول «الأرجوزة في الأدب المغربي» مجلة المناهل، عدد 35، السنة 13، دجنبر 1986.
112) مخطوط خاص بالرباط.
113) انظر نشر المثاني ج 1 ص 115.
114) نشر المثاني ج 1 ص 140.
115) نشر المثاني ج 1 ص 176.
116) مخطوط بالخزانة العامة بتطوان رقم 244.

المصادر والمراجع

- ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب.

لعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 326.

- الإتحاف الوجيز بأخبار العدوتين المهدى لمولانا عبد العزيز.

لمحمد بن علي الدكالي السلاوي، تحقيق مصطفى بوشعراء.

نشر الخزانة الصبيحية بسلا، 1986 م.

- الإحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش لعبد الله بن عمر العياشي، مخطوط مصور بالخزانة العامة بالرباط رقم د 1433.

- الأدب المغربي.

لمحمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي، دار الكتاب اللبناني، 1960 م.

- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض.

لأحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1357 هـ 1939 م.

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.

لأحمد بن خالد الناصري السلاوي، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955.

- الإعلام ببعض من لقيته من علماء الإسلام.

لعبد الواحد السجلماسي، مخطوط خاص بالرباط.

- الإعلام بمن غبر من أهل القرن الحادي عشر.

لعبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الفاسي، مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط رقم 3637.

- اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر.

لأبي سالم العياشي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ج 849.

- التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر.

لمحمد بن الطيب القادري، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1403 هـ ـ 1983 م.

- البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية.

لأبي الربيع سليمان العلمي الحوات، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 261.

- تاريخ تطوان.

لمحمد داوود، مكتبة الناصر، تطوان، 1959 م.

- التشوف إلى رجال التصوف.

ليوسف التادلي المعروف بابن الزيات، تحقيق أحمد التوفيق منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط 1404 هـ ـ 1984 م.

- جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس.

لأحمد بن محمد المكناسي المعروف بابن القاضي، دار المنصور للطباعة، 1973 ـ 1974 م.

- جواهر السماط في مناقب سيدي عبد الله الخياط.

لمحمد بن عبد الله الريفي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 1085.

- الجواهر الصافية من المحاسن اليوسفية.

لمحمد المهدي الفاسي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 1234.

- الحركة العياشية.

لعبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1982 م.

- الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين.
للدكتور محمد حجي، مطبعة فضالة بالمحمدية 1398 هـ، 1978 م.
- حضارة وادي درعة من خلال النصوص والآثار.
لمحمد المنوني، مقال بمجلة دعوة الحق، السنة 16، العدد 2 اكتوبر 1973 م، والعدد 3 دجنبر 1973 م.
- الحياة الفكرية المغربية على عهد المرينيين والوطاسيين (بالفرنسية).
للدكتور محمد بن شقرون، مطبعة محمد الخامس بفاس، 1394 هـ، 1974 م.
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر.
لمحمد المحبي، المطبعة الوهبية، القاهرة، 1284 هـ.
- دائرة المعارف الإسلامية.
تصدير أحمد الشنتناوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، مراجعة الدكتور محمد مهدي علام.
- الدر المنضد الفاخر فيما لأبناء مولانا علي الشريف من المحاسن والمفاخر لمحمد بن عبد القادر الكردودي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 1584.
- درة الحجال في أسماء الرجال.
لأحمد بن القاضي، مطبعة الحضارة العربية بالقاهرة 1974/1970.
- الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة.
لمحمد المكي الناصري، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم ك 265.
- دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر.
لمحمد بن عسكر الشفشاوني تحقيق الدكتور محمد حجي، مطبعة دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر بالرباط 1396 هـ / 1976 م.
- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية.
لعلي بن أبي زرع الفاسي، دار المنصور للطباعة والوراقة بالرباط، 1972 م.
- الرحلة الحجازية، لمحمد بن عبد السلام الناصري، مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط رقم 5658.
- رسائل اليوسي، جمع وتحقيق ودراسة، لفاطمة خليل القبلي، دار الثقافة، البيضاء، 1401 هـ - 1981 م.
- روض الأنفاس العالية في بعض الزوايا الفاسية، لعبد الكريم بن هاشم الكتاني، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 1264.
- روضة المحاسن الزهية بآثار الشيخ أبي المحاسن البهية، لمحمد المهدي الفاسي، مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط، رقم 2404.
- الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، للدكتور محمد حجي، المطبعة الوطنية بالرباط، 1384 هـ - 1964 م.
- سراج الغيوب في أعمال القلوب.
لعبد الكبير عليوات، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 455.
- سلسلة الأنوار في طريقة السادات الصوفية الأخيار.
لأحمد بن عطية الزناتي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم د 1809.
- سلوة الأنفاس، ومحادثة الأكياس، بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس.
لمحمد بن جعفر الكتاني، المطبعة الحجرية بفاس، 1316 هـ.
- سلوك الطريق الوارية في الشيخ والمريد والزاوية.
لمحمد بن علي المنالي المعروف بالزبادي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 247.
- سوس العالمة.
لمحمد المختار السوسي، مطبعة فضالة بالمحمدية، 1380 هـ - 1960 م.
- الشعر الدلائي.

لعبد الجواد السقاط، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1985 م.

- شعر عبد العزيز الفشتالي، جمع وتحقيق ودراسة.

لنجاة المريني، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1986 م.

- صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر.

لمحمد الصغير اليفرني، المطبعة الحجرية بفاس.

- فريدة الدر الصفي في وصف الجمال اليوسفي.

لمحمد بن الطيب القادري، المطبعة الجديدة بفاس 1347 هـ 1928 م.

- فهرس الفهارس والأثبات، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات.

لعبد الحي الكتاني، المطبعة الجديدة بفاس 1346 هـ، 1927 م.

- قبائل المغرب.

لعبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، 1968 م.

- القنص بالصقر بين المشرق والمغرب.

للدكتور عبد الهادي التازي، من منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1400 هـ، 1980 م.

- المحاضرات.

للحسن بن مسعود اليوسي، نشر الدكتور محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1396 هـ، 1976 م.

• مرآة المحاسن في أخبار الشيخ أبي المحاسن.

لمحمد العربي بن يوسف الفاسي، المطبعة الحجرية بفاس، 1324 هـ.

- المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن.

لمحمد بن مرزوق الخطيب التلمساني مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم ق 111.

- المعسول.

لمحمد المختار السوسي، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1380 هـ، 1960 م.

- ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع.

لمحمد المهدي الفاسي، المطبعة الحجرية بفاس، 1313 هـ.

• نزهة الأخيار المرضيين في مناقب العلماء الدلائيين البكريين.

لعبد الودود بن عمر التازي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 1264.

- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي.

لمحمد الصغير اليفرني، تصحيح السيد هوداس، منشورات بردى، الرباط.

- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني.

لمحمد بن الطيب القادري، تحقيق الدكتور محمد حجي وأحمد التوفيق، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1397 هـ، 1977 م بالنسبة للجزء الأول، ومنشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1402 هـ 1982 م بالنسبة للجزء الثاني.

• نيل الابتهاج بتطريز الديباج.

لأحمد بابا التكروري السوداني، مطبعة المعاهد بالقاهرة، 1351 هـ، 1932 م.

- ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين.

لمحمد المنوني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1399 هـ، 1979 م.

الجهاد البحري في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله

1171 - 1204هـ
1757 - 1790 م

للدكتور محمد رزوق

اهتم السلطان سيدي محمد بن عبد الله اهتماما بالغا بالجهاد البحري[1] وذلك لوعيه بالدور الخطير الذي تلعبه الثغور المغربية على المحيط الأطلسي، فاتجه إلى تبني سياسة دفاعية تهدف أساسا إلى الوقوف في وجه الاطماع الأوروبية. وسنحاول في هذا العرض أن نتناول بالبحث جهود السلطان المذكور في سبيل تقوية الأسطول المغربي، واهتمامه بالثغور المغربية وكذا إلى ردود الفعل الأوروبية تجاه أعماله.

أولا : جهود السلطان سيدي محمد بن عبد الله في سبيل تقوية الأسطول المغربي

تزخر المصادر المغربية المعاصرة بالعديد من الاشارات التي تهم الموضوع، فهذا كاتبه وسفيره أحمد بن المهدي الغزال - مثلا يسجل في مقدمة كتابه **نتيجة الاجتهاد** : «جد - إليه الله - في تهيء المراكب للجهاد، واجتهد وشحنها بالعدد والعدد، وخص عساكره المؤيدة بالله على حضور النية على القتال لتكون كلمة الله هي العليا...»[2]. وهذا ما سجله أيضا محمد الضعيف الرباطي في **تاريخه** وهو بصدد الحديث عن منجزات السلطان : «... وأعظم من هذا كله ما فيه من الوجهة للجهاد وجمع آلاته وجميع ما يحتاج إليه من عدة وعدد، وقد جمع من ذلك ما لم يتفق لأحد ممن تقدمه، وسخر الله له السفن في البحر من أهل سلا ورباط الفتح وغيرهما...»[3]. وفعلا فإنه لم يذخر وسعا في سبيل تحقيق ما كان يهدف إليه رغم الصعوبات التقنية التي كانت تعترضه، فقد قام بتجديد فن بناء الإسطول، وصرف الأموال في سبيل تحديث أوراش بناء السفن[4]، وكل تفكيره كان متجها إلى شيئين أساسين : بناء سفن قادرة على مواجهة أهوال المحيط من جهة وقادرة على مواجهة الوحدات البحرية الأوربية من جهة أخرى[5]. ومن أمثلة ذلك أنه : «أمر بإنشاء السفينة الكبيرة من

1) حول الدوافع التي حدت بالباحث إلى استخدام هذا المصطلح المغربي بدل استخدام مصطلح «القرصنة»، وكذا المراحل التي مر بها الجهاد البحري إلى غاية السلطان سيدي محمد بن عبد الله، انظر : محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17، رسالة جامعية غير منشورة، محفوظة بمكتبة كلية الآداب بالرباط، 2 : 322 - 342.
2) نتيجة الاجتهاد، ص 34.

3) تاريخ الضعيف، ص 166.
4) عبد الرحمان بن زيدان، الاتحاف، 3 : 259.
Romón in **Hespéris-Tamuda**, vol. X Fasc 1-2, 1969, PP. 51-52.
Lourido, « Transformation de la Pirateria marroqui en Guerra del corso ».
5) Roger Coindreau, **Les Corsaires de Salé**, P. 201.

طبقتين، وانفق فيها مالا كثيرا، أنشأها بسلا ورئيسها هو الرايس سالم، ولما طلعت وأراد الخروج بها في البحر لم تقدر على الخروج لكبرها إلى أن أفرغ ما فيها وأخرجها بحيلة...»[6]. وهكذا نلاحظ أن الموانئ التي توجد بمصبات الأنهار لا تلائم حجم السفن التي كان يريد السلطان بناءها، فالحاجز الرملي في الشتاء ومستوى المياه المنخفض في الصيف يمنعان الفركاطات المجهزة بالمدافع من التحرك إلا خلال شهرين في السنة فقط[7]. وقد أشار إلى هذا كاتبه أحمد بن المهدي الغزال حيث حديثه عن العوائق التي تعترض السفن الجهادية قائلا : «على أن سفن سيدنا الجهادية مقصور جهادها على شهرين في السنة لاتصال المراسي بالأودية بصفة يتعذر الخروج منها قبل فتح الطمس بالأزمنة الشتوية. فهناك تقرصن وتعود لمرساها إلى القابل، وقد استعمل الحكماء، وأهل الهندسة جهدهم في تنظيف المراسي من الرمل المانع لخروج المراكب، فلم يحصلوا على طائل، وصار العدو الكافر يترك البحر في الشهرين المعلومين ويسافربقمة السنة لينال في ذهابه وإيابه ما منه...»[8].

أما عن كيفية تجهيز هذا الأسطول فنشير إلى أنه كان يحصل عليه عن طريقين :

- الطريق الأول : الاستيراد المباشر من أوربا : «وسخر الله له أجناس الروم، فما يأمرهم بالاتيان بشيء من ذلك إلا بادروا لامتثاله مسرعين وقاموا بين يديه سامعين وله مطيعين...»[9] وهكذا فقد بعث السلطان - مثلا - بسفيرين من رياس البحر وهما الحاج التهامي المدور الرباطي والعربي المستيري الرباطي، إلى السويد وانجلترا قصد جلب الذخيرة الضرورية لأسطوله.

- الطريق الثاني : الغنائم.

تقوى الأسطول المغربي في هذه الفترة أيضا عن طريق الغنائم التي كان يحصل عليها المغاربة نتيجة عملياتهم البحرية المتكررة، وهذا ما أشار إليه بكل وضوح محمد الضعيف وهو بصدد الحديث عن أعمال السلطان الجهادية : «...تكاثرت سفنه في البحر من أهل سلا ورباط الفتح وأقبلت عليه الأيام... وكان الرايس من أهل سلا والرباط يقدمون عليه بمراكش بالنصارى الأسرى في كل سنة، مثل الرايس العربي المستيري والرايس عواد السلاوي والرايس العربي حكم وغيرهم... وهؤلاء كلهم بالسفن وكلهم يأتون إليه بسفن النصارى إلى مراكش...»[10]، ويقول في مكان آخر : «...وفد (السلطان) على رباط الفتح وسلا فوجد الرايس محمد عواد مانطة السلاوي، والرايس محمد عواد المعروف بقنديل السلاوي، والرايس العربي المستيري الرباطي، أتوا بسفينة مغنومة من جنس السويد... ثم سافر القائد العربي المستيري في الحين فغنم اثنين من السفن واحدة من جنس البرطقيز والثانية من جنس السويد...»[11].

وكان من نتيجة الجهود الجبارة التي بذلها السلطان أن تقوى الأسطول المغربي في عهده وأصبح بإمكانه تقديم المساعدة للأتراك العثمانيين أنفسهم : «ثم إن السلطان - نصره الله - سمع بجور النصارى على السلطان، عبد الحميد العثماني - أيده الله - فأراد إعانته على الروم. وأصدر أمره للحاج المكي على أن يرجع ويتهيأ ليأتي بالسفن هدية من السلطان - أيده الله تعالى - للعثماني، وأن يقف على السفن بالعرائش، وصار يمد العثماني بالبارود وملح البارود نحو الأربعة آلاف قنطار بارودا ومثلها ملحا لطنجة، ومنها تسير للعثماني - أيده الله ...»[12].

ثانيا : اهتمامه بالثغور المغربية :

كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله يدرك جيدا الأهمية الستراتيجية للثغور المغربية على المحيط الأطلسي، وذلك نتيجة للاهتمام المتزايد الذي أصبح لهذا المحيط في

6) تاريخ الضعيف، ص 169.
7) Roger Con Coindreau op. cit. P. 201.
8) نتيجة الاجتهاد، ص 37.
9) تاريخ الضعيف، ص 166.
10) المصدر السابق، ص 169.
11) المصدر السابق، ص 166.
12) المصدر السابق، ص 187.

المواصلات الدولية بين أوروبا الغربية وأمريكا وبينها وبين الشرق الأقصى عبر رأس الرجاء الصالح، فأقر سياسة دفاعية لتحصين السواحل المغربية الأطلسية، وهذا ما أشار إليه سفيره أحمد بن المهدي الغزال قائلا : «وشرع سيدنا ـ أيده الله ـ في عمارة الثغور وتشييد ما هده منها تتابع الأزمنة والدهور، وحصنها بالعدد الكبير من المدافع والعدد حتى صارت ممنوعة من العدو محفوظة من عين حاسد إذا حسد»[13].

ويمكن هذا العمل من الحصول على نتيجتين أساسيتين :

ـ تأمين الحماية اللازمة للبلاد.

ـ الانفتاح على العالم الخارجي بعقد معاهدات وإرسال سفارات إلى دول أوروبا الغربية والشرق الإسلامي.

وهكذا نلاحظ أنه في إطار هذه السياسة قام ببناء حصون وتحصين أخرى وتحرير البعض الآخر.

ـ بناء الحصون :

بناء الصويرة : يذكر الضعيف في هذا الصدد : «وفي سنة ثمان وسبعين ومائة وألف أمر السلطان ببناء الصويرة، وحصنها وأنفق عليها مالا عظيما... وفي مهل ذي القعدة عام 1179 هـ قدم الصفار مع مائتي رجل من البحرية بقصد أن يأخذوا الانفاض التي بفاس الجديد ويذهبون بها إلى العرائش والصويرة...»[14].

ويرجع اختياره جزيرة الصويرة لبناء القلعة الحصينة إلى صلاحيتها للملاحة طوال السنة خلافا لمعظم الموانئ المغربية الأخرى الواقعة عند مصبات الأنهار. وقد وصفها وصفا دقيقا محمد بن المهدي الغزال قلائلا : «لها بابان شرقية وغربية تسافر منها القراصين متى شاءت من غير أن تفتقر لطيب هواء... وحصن ـ أيده الله ـ الجزيرتين الدائرتين بالمرسى كبرى وصغرى، بالعدد الكثير من المدافع، وشيد بها على صخرة داخل البحر إحكامه الصنوف الهندسة جامع، فالقاصد للمرسى لا يدخلها إلا تحت رمي المدافع، من البروج والجزيرة، فإذا جاوز المدافع وحصل المرسى لا يمكنه الخروج منها إلا بدليل له بها معرفة وبصيرة، فهي محصنة محفوظة، وبعين الرعاية ملحوظة... وقد شاع خبرها في سائر الآفاق، وأجمع الكل على تفضيلها وتقديمها على ما سواها بالاستحقاق، وبإبداعها وإنشائها تتابع الجهاد وتوالى...»[15].

ويدخل في هذا الإطار أيضا بناؤه لمرسى فضالة سنة 1186 هـ[16].

ـ تحصين الثغور :

لم يكتف السلطان ببناء قلاع جديدة، بل حصن القديمة منها خاصة تلك التي لها ماض معين مثل العرائش.[17] ويذكر الناصري في هذا الصدد : «بنى لها الصقائل والأبراج وصونها، ثم كان قدوم ابنه المولى يزيد في هذا التاريخ إلى فاس، وفي ركابه جماعة من رؤساء البحر والطبجية أهل الإجادة في الرمي، وكان قدومه بأمر السلطان لجر المدافع، والمهاريس النحاسية التي كانت بفاس الجديد ومكناسة ونقلها إلى ثغر العرائش ففعلوا...»[18]. وأراد السلطان أن يشرك معه في هذه العملية القبائل المجاورة : «... وأمر السلطان القبائل الذين بالطريق أن يتولوا جرها، فكانت كل قبيلة تجرها إلى التي تليها...»[19]. وقد رحب سكان مدينة العرائش أيما ترحيب بهذه التحصينات التي تمكنهم من الدفاع عن مدينتهم : «ثم جرها أهل العرائش وقبائل حوزها إلى المدينة، وكان يوم دخولها مهرجانا عظيما أخرجت فيه المدافع والمهاريس والبارود، وتسابقت القبائل على الخيول ولعبوا بالبارود إلى المساء...»[20].

13) نتيجة الاجتهاد، ص 37.
14) تاريخ الضعيف، ص 172 ـ 173.
15) نتيجة الاجتهاد، ص 38.
16) تاريخ الضعيف، ص 176.
17) للمزيد من الإيضاح حول مختلف المراحل التي مر منها تاريخ مدينة العرائش انظر :

Tosas Garcia Figueras y Carlos Rortriguez Joulia Saint-cyz. Larache, datos para su historia en el siglo XVII.

18) الاستقصا، 8 ـ 26.
19) نفس المصدر والصفحة.
20) أبو القاسم الزياني، البستان الظريف، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1577 د.

ـ تحرير الثغور :

عمل السلطان سيدي محمد بن عبد الله خلال الفترة الفاصلة بين سنتي 1182 هـ و 1188 هـ على تحرير عدد من الثغور المحتلة، وذلك بعد أن تمكن من إقرار الأمن الداخلي ومن تدعيم أسس وحدة البلاد. وهكذا فقد توجه بنظره إلى تحرير البريجة عام 1182 هـ، وكذا إلى محاصرة مدينة مليلية خلال عامي 1185 ـ و 1188 هـ.

ـ تحرير البريجة :

لقد حاول المغاربة ومنذ أن احتلت من طرف البرتغال تحرير المدينة سواء على الصعيد الشعبي أو على الصعيد الرسمي، فعلى الصعيد الشعبي يكفي أن نذكر أن المدينة كانت محاصرة باستمرار من طرف مجاهدي دكالة وغيرهم، بل وأقيمت نقط الوثوب على المدينة. أما على الصعيد الرسمي فنذكر المحاولات الآتية :

ـ محاولة محمد الشيخ السعدي، لكن الضغط التركي اضطره إلى مهادنة القواب البرتغالية والإسبانية بالسواحل المغربية لمواجهة التدخل العثماني بالمغرب.

ـ محاولة عبد الله الغالب. إذ كادت المدينة أن تفتح بعد حصارها لولا الضغط التركي على حدود المغرب الشرقية مما أدى به إلى التراجع.

ـ كما أصدر عبد الملك المعتصم أوامره بمحاصرة البريجة قبيل معركة وادي المخازن وذلك خوفا من خروج قوات برتغالية منها.

ـ وعندما انتهت الحملة البرتغالية على المغرب بالفشل، تدخلت قوات إسبانية بالبحر لحماية المدينة من الهجومات المغربية وحال الإسبان دون تحرير المدينة، بالإضافة إلى أن الضغط التركي تدخل من جديد مما جعل أحمد المنصور الذهبي يتخلى عن تحرير المدينة والتمسك بالهدنة مع الإسبان.

وعلى كل فقد استفاد السلطان سيدي محمد بن عبد الله من الظروف التاريخية السابقة التي حالت دون تحرير المدينة فيسعى إلى تهييء أرضية دبلوماسية ملائمة.

وهكذا فقد سعى إلى تحسين علاقاته مع فرنسا، وضمان حياد إسبانيا في أي حرب تحريرية ضد البرتغاليين، كما عقد معاهدة مع الدانمارك خلال عام 1181 هـ نص الفصل السابع عشر منها على التزام الدنماركيين بتقديم أسلحة وعتاد حربي من بينها خمسة وعشرين مدفعا من العيار الثقيل والمتوسط وقذائفها وجميع لوازمها. ويدخل في نطاق هذا الاستعداد لهذه الحرب أيضا الإمدادات العسكرية التركية التي وصلت إلى المغرب في نفس السنة[21].

وهكذا عندما هيأ الأرضية الدبلوماسية لتغطية عملياته العسكرية انطلق لتحرير المدينة، ومن المصادر المعاصرة الهامة التي يمكن الرجوع إليها للوقوف على الكثير من دقائق هذه الحملة نذكر كتاب **الحلل البهيجة في فتح البريجة**[22] لمؤلفه محمد بن أبي القاسمي بن محمد بن محمد بن سليمان المراكشي، فيذكر في هذا الصدد : «... ثم إن الملك أخذ في إصلاح شأنه وأرسل إلى جنوده وعساكره يأتون للجهاد في سبيل الله ويتهيأون للحرب كما أمرهم وأن يركبوا الخيول المُسَوَّمة ويلبسوا الثياب لقوله تعالى : ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾. ثم أرسل الملك إلى قبيلة دكالة أن ينزلوا البريجة المخلية وأن يربطوا عليها حتى يقدم الملك عليهم...»[23]. وتصف مصادر أخرى هذه العملية والدواعي التي دعت السلطان إلى ذلك : «ولما أحس ـ أعزه الله برضاه وأدام نصره وعلاه ـ من الكفار المتعمرين بالبريجة البلدة المعروفة بساحل البحر قرب أزمور الأذاية لرعيته توجه إليها بعزمه وعنايته وحاصرها بالجيوش التي لا قبل لهم بها، ورماها بالكور والبومب، فلم

21) أبو القاسم الزياني، الترجمان المعرب، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 658 د.
ملاحظة : يعتبر السلطان سيدي محمد بن عبد الله أول ملوك المغرب الذي كان يبدي عطفا كبيرا على الأتراك.
انظر : محمد بن تاويت، تاريخ سبتة، ص 190.

22) حققه أخيرا (1986) الدكتور عبد الكريم كريم.

يلبث إلا أن أخرجهم منها أذلة صاغرين وهدمها، فهي الآن تسمى المهدومة وتسمى اليوم الجديدة على أمره، وهو الذي سماها بذلك - نصره الله وأيده وأعانه ووفقه وسدده - فاستولى عليها...»[24] وفعلا فقد خرجت الحملة المغربية من مراكش سنة 1182 هـ ورابطت في فحص المجاهدين القريب من المدينة وأخذت تمطر الحصن بوابل من قذائفها، كما حاصرت في نفس الوقت الميناء، وحالت دون وصول نجدات عسكرية برتغالية قدمت من لشبونة، وظل الأمر كذلك إلى أن أعلنت الحامية البرتغالية استسلامها وطالبت بالسماح لها بالجلاء، وتم ذلك صبيحة يوم السبت 2 ذي القعدة سنة 1182 هـ، وقد دامت هذه الرحلة 58 يوما وانتهت بتحرير المدينة بعد أن خضعت للاحتلال البرتغالي نحو ثلاثة قرون.

ثالثا : رد الفعل الأوروبي تجاه الجهاد البحري :

كان رد فعل الأوروبيين تجاه الجهاد البحري قويا خاصة من الجانب الفرنسي والإسباني، إذ قررت كل من فرنسا وإسبانيا حماية سفنهم من الهجومات المغربية المتكررة بجميع الوسائل المتوفرة لديهم. وهكذا فقد كلف الفرنسيون فيما بين سنتي 1763 و 1764 القائد Fabry بمحاصرة الشواطئ المغربية لكن دون جدوى، إذ تمكن المجاهدون السلاويون أمام مدينة قادس من الاستيلاء على سفينة فرنسية كبيرة (La Sirène)، والتي سرعان ما حولت إلى سفينة جهادية[25].

وفي سنة 1765 أصدر الملك الفرنسي لويس الخامس عشر أوامره إلى الأميرال Chaffault للعمل على القضاء وبصفة نهائية على الجهاد البحري بالمغرب[26]. وهكذا في 31 ماي رسا الأسطول البحري الفرنسي أمام مدينة سلا وشرع في رمي المدينة بالقنابل انطلاقا من 2 يونيو، ورغم أحوال الطقس الرديئة آنذاك فإنه استمر في حصار المدينة لكنه لم يفلح، وأمام فشله اتجه إلى العرائش في 27 يونيو لكنه لقي هزيمة منكرة أيضا[27]. وقد سجل أحمد بن المهدي الغزال هذه الحادثة بدقة كبيرة فوضعها على الشكل الآتي : «... رمى بمرسى من الأنفاط والبونبه ما ظن أنه يحصل به على طائل فأجيب بضعف ذلك، فلم يلبث إلا وأجفانه هاربة تقفو أواخرها الأوائل، وخر هاربا مهزوما ساقط الألوية مذلولا مذموما، فعالج ما انصدع من أجفانه وأعاد الكرة يطلب حتفه بيده ويسعى في مذلته وهوانه، ووثب على مرسى ثغر العرائش... واقتحمها بالبنب والمدافع، وشحن القوارب العديدة بالشلظاط[28] والفسيان[29] مما يزيد على الثمانمائة، ظنا أن ليس لهم بها مقابل ولا مدافع وعبر المرسى بقواربه المشحونة بعساكره قاصدا حرق مركب كان أخذ لهم قبل داخل الوادي، فخلى المسلمون سبيله حيلة، حتى توغلوا في الموضع الذي لا تمكنهم الخروج منه، وركب لقطعهم من حضر من الحواضر والبوادي وقطعوهم قطعة لا يسعهم منه قرارا... واستعملوا فيهم السيف فقتل وغرق وأسر منهم عدد كبير، فهم بين غريق وقتيل وأسير...»[30]. لكن القوات الفرنسية كانت مصرة على تنفيذ أوامر الملك مهما كلفها ذلك من ثمن فظلت تحاصر قواعد المجاهدين في سلا والمهدية والعرائش، وتقطع سبيل الاتصال بين المجاهدين والعالم الخارجي، وهكذا فقد اعترضت قطع الأسطول الفرنسي سبيل سفن هولندية ودانماركية كانت محملة بالعتاد إلى السلطان وأسرتها وقادتها إلى مدينة Toulon الفرنسية[31] وأمام هذه الوضعية عقد السلطان في 28 ماي 1767، معاهدة هدنة مع فرنسا اعتبرها بعض المؤرخين الأجانب نهاية الجهاد البحري المغربي، مستنتجين ذلك من خلال الأحداث التي تلت هذه المعاهدة.

---

23) الحلل البهجة، ص 20.

24) تاريخ الضعيف، ص 166.

25) Roger Coindreau, op. cit. p. 60.

26) Loc. Cit.

27) Romón Lourido, op. cit. p. 60.

28) من الكلمة الإسبانية Soldados أي الجنود.

29) من الكلمة الإسبانية Oficiales أي الضباط.

30) نتيجة الاجتهاد، ص 36.

31) Roger Coindreau, pop. cit. p. 203.

غير أنـه وبـالرغم من تـوقيـع هـذه المعاهـدة، فـإن السلطان استمر في الحفاظ على قوة بحرية معينة مشجعا إياها على القيام بالجهاد البحري، ففي شتنبر من سنة 1773 كانت هناك مجموعة من خمس سفن تحت قيادة الهاشمي المستيري قد التقت برأس سبارتيل بفركاطة توسكانية تحت قيادة Acton ولكن بمجرد الطلقات المدفعية الأولى غرقت السفينة المغربية واستسلم القائد، وهربت باقي السفن إلى العرائش، وإثر ذلك لم يعد أحـد يتكلم عن قـوة بحريـة مغربية قادرة على مهاجمة السفن الأوروبية.

أما رد الفعل الإسباني فيتجلى بالخصوص في معاملة الأسرى المغاربة بإسبانيا إلى درجة وصل معها صدى هذه المعاملة إلى السلطان نفسه : «... فاتفق له أن وردت عدة كتب من أسارى المسلمين، منها ما هو لمطلق العامة، ومنها لبعض الطلبة وعلماء الدين، الكل من البلاد الأصبنيولية، وأصلـه للحضرة العليـة فقرئت على مســامـع سيـدنـا الشريفة...»[32]. فكتب السلطان إلى كارلوس الثالث ملك إسبانيا يبلغه اهتمامه البالغ بقضية هؤلاء الأسرى : «إننا في ديننا لا يسعنا إهمال الأسارى وإبقاؤهم في قيد الأسر، ولا حجـة للتغـافـل عنهم ممن ولاه اللـه تعـالى التصرف والأمن...»[33]. وكلف سفيره السالف الذكر أحمدبن المهدي الغزال بهذه القضية، وقد كللت سفارته بالنجاح إذ أطلق الملك الإسباني سراح الأسرى المغاربة.

ولم يكتف السلطان بالاهتمام بالأسرى المغاربة فقط بل كان يهتم بجميع الأسرى المسلمين فقد سجل محمد بن عثمان المكناسي في هذا الصدد : «... وكان ممن اختصه الله تعالى بالشفقة على عباده، والسعي في إصلاح في أرضه وبلاده، والبحث عن أسارى المسلمين الذين بأيدي الكافرين، وقد كان عند النصارى الأصبنيول قبل هذا منه أسارى المسلمين عدد كثير، وجمهور غفير، وكلهم من البلاد المشرقية مثل طرابلس وتونس، والجزائر وعمالاتها، فرج الله تعالى جلهم على يده الكريمة...»[34].

ويعد هذا جانب لامع من الجوانب اللامعة في أعمال السلطان سيدي محمد بن عبد الله حاولنا فيه أن نلقي بعض الضوء عليه، لقد حاول تطوير القوة البحرية المغربية بما يتلاءم وعصره، وحاول تبني سياسة دفاعية تمكنه من حماية ثغوره وتمكن بالفعل من تحقيق الكثير مما كان يرغب فيه. لكن القوات الأوروبية المتربصة بالمغرب كانت تقف بالمرصاد لجميع الأعمال التي من شأنها تطوير القوة البحرية المغربية، وظلت تراقب عن كثب هذا التطور.

الدار البيضاء : زروق محمد

32) نتيجة الاجتهاد، ص 39.
33) نفس المصدر والصفحة.
34) الإكسير في فكاك الأسير، ص 5.

أبحاث ودراسات

لماذا فشل النظام الاشتراكي

للأستاذ أحمد عبد السلام البقالي

منذ الثورة البلشفية، سنة 1917، والاتحاد السوفياتي، والدول الدائرة في فلكه، تخوض معركة خاسرة، هي معركة إطعام شعوبها.

ففي محاولاتها المتكررة والفاشلة لإنتاج وتوزيع كميات كافية من الحبوب، واللحوم والفواكه، أعادت تنظيم نظامها الزراعي، وإصلاحه، وإعادة بنائه، مرات متعددة، وبطرق شتى، دون جدوى.

والآن، وبعد ثلاث سنوات من «البيريسترويكا»، ما يزال الوضع كما كان عليه، وهو أن الاتحاد السوفياتي لا يستطيع أن يطعم نفسه.

وقد صرح (غورفاتشوف)، وهو آخر محاولي إصلاح النظام الزراعي، في مؤتمر، لجميع نقابات الحزب الشيوعي، في يونيو 1988، بأن «نقص المواد الغذائية المزمن هو أكبر معضلة في المجتمع السوفياتي». و(غرباتشوف) أعرف الناس بذلك، لأنه سبق له أن كان وزير الزراعة بين 1978 و1985 وهي أضعف الفترات إنتاجاً منذ الحرب العالمية الثانية. وهو أعرف الناس، كذلك، بالأخطاء «اللوجيستيكية» والسياسية للاندفاع من أجل تحقيق الكثير وبسرعة. وقد سقط آخر مصلح، وهو (نيكيتا خروتشوف) ضحية لفشل مخططاته الضخمة لإصلاح الزراعة.

التراجع عن الاشتراكية الزراعية

وأخيراً تحرك (غروباتشوف) بعزم نحو الجبهة الزراعية باقتراحه رسمياً مَدّ برنامج «إعادة البناء» ليشمل الخمسين ألف مزرعة، وتعاونية زراعية، في جميع أنحاء البلد.

وفي خطاب وجهه إلى مؤتمر اللجنة المركزية للزراعة، حضره مديرو المزارع، وكبار قادة الحزب، اعترف (غروباتشوف)، علانية، بما كان المواطنون السوفييت يعرفونه منذ مدة طويلة، وهو : «ان عمال المزارع اللامبالين والعاجزين أصبحوا بعيدين عن الأرض، وعن وسائل الإنتاج. فقد حولناهم من سادة أراضيهم إلى عمال يوميين».

وقد قرر (غورفاتشوف)، من أجل زيادة الإنتاج وتعميم تجربة بدئت منذ سنتين، على جميع مزارع الاتحاد السوفييتي، وهو تأجير الأرض، والحيوانات، والآلات للعائلات المزارعة، والجماعات العاملة في الزراعة.

وأعلن للمؤتمر بأن فكرته هي أن يسير قطاع الزراعة بأسره في هذه الطريق. وإذا تحقق هذا فسيكون أكبر انقلاب في السياسة الزراعية السوفييتية منذ 1930، حين حول الديكتاتور السفاح (جوزيف ستالين) المزارع الخاصة بالقوة إلى مزارع جماعية، وأرسل مآت الآلاف من المزارعين الموسرين، المعروفين بـ(الكولاك) إلى (سيبيريا)، وغيرها، مما كان يعرف بالمنافي الداخلية. ويعتقد أن عدد الذين ماتوا أثناء هذه الهجرة القسرية، والمجاعة التي أعقبتها، يصل إلى عشرة ملايين نسمة، خلال سنة 32 - 1933. ويعترف استالين نفسه بأنه قتل 5 ملايين فقط !

ورغم أن برنامج الإصلاح يقف دون حل المزارع الجماعية ومزارع الدولة، فإنه سيقسمها إلى وحدات صغيرة تستطيع العائلات، والجماعات العاملة في الحقول، استئجارها من الدولة لمدة قد تصل إلى خمسين سنة، وزرعها لفائدتها الخاصة.

وتطبيق (البيرويسترويكا) على المزارع من أصعب الأعباء التي تحملها الرئيس (غورفاتشوف). فليس عليه فقط أن يتراجع عن ستين سنة تقريباً من كوارث سوء التدبير، ولكن عليه أن يفعل ذلك في وقت يعترف فيه حتى الخبراء السوفييت بأن النظام أوشك على الانهيار ! وقد أصبح المواطن السوفييتي يجد الدكاكين التي تديرها الدولة أفرغ مما كانت عليه منذ 15 سنة، وذلك بسبب سوء التوزيع ومشاكله.

وفي نفس الوقت بدأ الاستياء يشتد بين المستهلكين من تكاثر الأسواق الخاصة، والتعاونيات التي تمتلئ رفوفها بأجود المنتوجات الزراعية، ولكن بأثمان تفوق طاقتهم الشرائية. فالإجاص، مثلاً، يباع في دكاكين الدولة، حين يوجد بما يعادل 75 سنتا أميريكيا للرطل، ولكنه يصل إلى ثمانية دولارات في الأسواق الخاصة. وثمن الخيار في دكاكين الدولة دولاران للرطل الواحد، وستة عشر دولارا في الدكاكين الخاصة !

المشكل هو الشيوعية

فما هي مشكلة الزراعة في الاتحاد السوفييتي ؟

يقول المحللون الغربيون انها النظام بأسره ! ويضعون اللائحة التالية :

1 - ضعف إنتاجية العامل الزراعي.

2 - سوء استعمال الأسمدة ومبيدات الحشرات.

3 - ندرة قطع الغيار، لدرجة أنه في سنة 1987 توقفت مائة ألف جرار عن العمل في الجمهورية الروسية وحدها.

4 - نقص في شاحنات النقل.

5 - نقص في مستودعات الخزن.

6 - قلة أجهزة معالجة الإنتاج.

7 - شبه انعدام كامل لشاحنات التبريد لنقل المواد السريعة الفساد مثل الحليب الفواكه.

8 - شبكة طرق بدائية في الأرياف.

9 - تعفن المنتوجات بمقادير هائلة بين المزارع، ومراكز البيع.

10 - تدخل البروقراطيين في شؤون المزارعين، وفرضهم عليهم ما يجب زرعه، وثمن بيعه.

والأهم من هذا كله، هو أن الفلاح لا يكافا على عمله الشاق، ولا على ارتفاع مستوى إنتاجه، وذلك ما يجعل أي نظام زراعي يتدهور.

البساتين الخاصة أجمل

وقد لاحظ مزارع أميريكي تجول بالسيارة داخل الاتحاد السوفييتي أن أهم ما لفت انتباهه، هو الاهتمام والعناية التي كان يوليها الفلاح لقطعة أرضه الصغيرة الخاصة.

وقد علم أن تلك القطع الصغيرة التي لا يتجاوز حجم الواحدة منها الفدان الواحد، تنتج سنوياً أكثر من 25 في المائة من طعام الاتحاد السوفييتي، وتحتوي على أكثر من ثلث أبقاره !

ويستهلك هؤلاء الفلاحون ما ينتجونه، أما ما يفضل عنهم فيباع في الأسواق الحرة بأثمان فوق القدرة الشرائية للمواطن العادي.

مفارقات مضحكة

وأكبر مشكل تعاني منه الزراعة في الاتحاد السوفييتي هو التوزيع. وقد تحدث مفارقات مضحكة في بعض الأحيان، ومنها ما لاحظه أحد زوار (لينيغراد)، في ربيع 1987، من أن البطاطس الوحيدة الموجودة في الأسواق هي بطاطس (كوبا) مع أن (لينيغراد) تقع في قلب منطقة زراعة البطاطس في البلد !

حتى موسكو !

وحتى العاصمة، واجهة الاتحاد السوفييتي، (موسكو)، لم تسلم من مظاهر التخلف والفساد فيما يصل سكانها التسعة ملايين من مواد استهلاكية.

فنظراً لعدم كفاءة وسائل جمع المنتوج الزراعي، يتعفن 15 بالمائة منه قبل مغادرته المزارع. وتتلف 10 بالمائة في الطرق إلى المدينة. وتخزن المواد بمخازن موسكو من ثلاثة شهور إلى تسعة، قبل معالجتها، بحيث تتلف ما بين 10 و 20 في المائة منها قبل توزيعها على الأربعمائة نقطة توزيع حكومية !

تشجيع النقد

وقد شجعت (البيريسترويكا) الصحافة على انتقاد النظام الزراعي، وعدم خضوعه لأي منطق سليم فنشرت جريدة (الأخبار) الأسبوعية خبراً مفاده : «أن أطنان البصل، والطماطم، والتفاح، والمشمش تعفن في مخازن العاصمة، في الوقت الذي يقف فيه الناس في طوابير لانهاية لشرائها !».

وأخبرت (البرافدا) أن 35 في المائة من البيض تفسد قبل وصولها إلى المستهلك ! وأن 2900 طن من اللحوم والدجاج، و 1200 طن من السكر لم تصل قط إلى رفوف الدكاكين، لأنها سرقت من طرف موظفي المخازن، أو حولت إلى كبار المسؤولين في الحزب ! وتباع سرا ما بين 30 و 40 في المائة من المواد قبل أن تصل إلى الدكاكين.

عودة العقل

ولا يرى الرئيس (غورفاتشوف) وأعوانه مخرجاً من المأزق إلا بتطبيق مبادئ السوق الحرة لعلاج نقص المواد الغذائية. ويقول (يوري لوجكوف) نائب عمدة (موسكو)، والمكلف بتزويد أسواقها بالمواد الغذائية :

«يجب علينا أن نعيد بناء نظام الحوافز المادية. ولا بد من إقامة نظام تشتري فيه كل حلقة من الحلقة التي تسبقها. فإذا استطعنا أن نفعل هذا، فبإمكاننا إعادة النظام بأسره إلى قاعدة اقتصادية سليمة».

ولكن تعميم المبدإ يتطلب إرضاء القبضة المتحكمة في الأسعار. وسوف يؤدي ذلك إلى ارتفاع الأسعار لتصل إلى المستوى الذي يجب أن تكون عليه، حسب مبدإ العرض والطلب، وسحب المساعدة التي تدفعها الدولة لتدعيم المواد الغذائية والتي تصل إلى 100 مليار دولار ! أي حوالي 15 في المائة من الميزانية العامة للدولة.

صعوبة الخلاص

وكما في جميع الدول الاشتراكية، فإن تجربة السوق الحرة، والخوف من التضخم، ومقاومة الجمهور المستهلك للزيادة في الأسعار، تجعل من الإصلاح موضوعا بالغ الحساسية، الأمر الذي جعل الكريملين يؤجل الزيادة في أسعار المواد الاستهلاكية إلى ما بعد 1990 على الأقل.

الجمهور

وهنا تتمثل المعضلة الشيوعية التي تهدد مخططات (غورفاتشوف) بالفشل؛ فبدون رفع الأسعار كحافز للمنتجين

على الـزيـادة في الإنتـاج ـ مع قلـة مـا يمكن شراؤه في الأسواق ـ فـإن الفلاح القلق والمنهوك سيستمر في انطـوائـه غير مقتنع بنداءات قادتـه لـه لبـذل جهد أكبر، والمجـازفـة بإنتاج أكثر. فمنـذ 1920، والفلاح الروسي يرى وضعـه يعلو ثم ينخفض، والوعود الكبرى تتلوها الإجراءات الصارمة ضـد المجهود الفردي. لذلك فإن عدم ثقتهم بـالسيـاسيين عميقـة، ولا يبدو أنها ستعود قريباً.

ويـؤكـد مستشـاروا (غـورفـاتشـوف) أنـه إذا لم تحـل مشكلة الزراعة، فإن إعادة البناء ستبقى حلماً.

وقـد لخص أحـد علمـاء الاقتصـاد الـوفييت المشكلة في هذه الجملة البسيطة :

«دعنـا من الجـدل في النظريـات الاشتراكيـة؛ إذا لم يستطع الواحد منا الحصول على أبسط المواد الغذائيـة، فلن نتحرك في أي اتجاه !».

أحمد عبد السلام البقالي



ناظر الوقف

وتعامله مع حركة التعليم الإسلامي

للأستاذ محمد بنعبد الله

- 17 -

٧ دور نـاظر الـوقف في تنظيم المكتبـة الإسلامية :

لعل من أهم مـا ينهض بعبئـه «نـاظر الـوقف» من المبرات في رحاب العلم والمعرفة والثقافة الإسلامية، قديماً وحديثاً، اهتمامه، إلى جانب قيامه بقضايا التعليم، بنشر وطبع ووقف الكتب التي تهتم بالدراسة الإسلامية التي تُعنى بالتثقيف الدِّيني الذي يبصّر الطبقات الشعبية ذات الثقافة المحدودة، بأمور دينها ودنياها، من جهة، ونشر الكتب، وإحياء التراث العلمي الجاد الهادف الذي يوجه إلى الخاصّة من جهة أخرى.

فلقد تكونت بكل مسجد أو مدرسة كبرى، منذ الفتح الإسلامي النواة الأولى لفكرة الخزانة أو المكتبة[1]، التي تجمع بين رفـوفهـا كثيراً من كتب العلم، تعتبر مصـادر لمراجعة العلماء أو الذين لا تتوفر لديهم الإمكانيات المادية للتملك والاستنساخ؛ فمجاورة المدرسة للمسجد إلى جانبهما مكتبة عامة، عادة إسلامية قديمة، ومظهر فريد من نوعه، ما أجدره بأن يعود إلى الظهور من جديد..

ولقد غَنِيَتْ فترة التاريخ الإسلامي بالتراث العربي المكتوب، وعدت الكتب المؤلفة والمترجمة في مختلف فنون المعارف الإنسانية بمئات الآلاف إن لم تقل الملايين شُرّدت ووزّعت في أنحاء المعمورة، قاصيها ودانيها، حتى وجدت مستقرّاتها في خزائن المسجد ودُور الكتب العامة. وفي خزائن الناس من العلماء والأعيان والأمراء...

كما غنيَ العصر الإسلامي في مختلف عهوده بكتب مخطوطة، في بطونها نتاج حضارة هذه الأمة التي ننتمي إليها في مختلف العلوم والفنون. وما يلحق بذلك من عطاء حضاري تكاملت جوانبُه، ورسخت أصوله وتشعّبت فروع المعارف الإنسانية فيه..

فكان لامناص، والتراث العربي المكتوب في هذا النحو من الغنى والكثرة والتنوع من أن يَنْهَدَ رجال ذوو فضل إلى لمْلَمَةِ أطرافه وجمعه والتعريف به، فوضعوا له الفهارس الوصفية وغيرها كما سيأتي..

ولما تعددت المكتبات في العالم، وتوسّع نشاطها بالنّسخ والكتب والتجديد والتذهيب والقراءة والمطالعة، اضطرّ الأمراء والأغنياء الواقفون، إلى أن يسندوا مهامها إلى ديوان الإنشاء. وحافظوا بالإشراف والمراقبة عليها، وعندما كثر توقيف الكتب من الأمراء والعلماء وطبقات المجتمع، أصبح أمر اختصاص المكتبة منوطاً بـ«مجلس الأوقاف»،

[1]) انظر الباب الحادي والأربعون من «المسند الصحيح الحسن» لابن مرزوق ص. 407، وانظر أيضاً المكتبة الإسلامية للشيخ عبد الحي الكتاني مخطوط تحت رقم 3002 حرف ك ـ الخزانة العامة.. وهو خطاب للمجمع العلمي العربي بدمشق، بمناسبة تسميته عضواً بإجماع الأصوات..

الذي كان، أيضاً، من اختصاصه السّهر على التعليم داخل المساجد الدينية التي هي جزء من مسؤوليات النّاظر..

والمكتبة المغربية، كما سيأتي، قامت بمهماتها أحسن قيام في كل مرحلة من مراحل العصور الإسلامية الزّاهرة، ولم يقف سيرها إلاّ في فترات قليلة[2].. فالمغرب عرف نشاطاً كبيراً في ميدان وقف الكتب وتحبيس الخزائن العلمية في مختلف عهوده الزاهرة، وعصوره الزّاهية، وقام بدور رائع ورائد في ازدهار الفكر والثقافة والأدب في البلاد المغربية، وغَنِيَ بالكتب المخطوطة وغيرها التي كان يقفها الملوك وأهل الفضل من طبقات المجتمع المغربي بقصد تزويد طلبة العلم والأساتيذ بالمواد الضرورية لأعمالهم العلمية، وتوسيع مداركهم الفكرية والثقافية..

☆ ☆ ☆

وفي ميدان الكتاب الإسلامي والعربي تستوقفنا ظاهرة فريدة في المجال الثقافي الإسلامي، وهي أنه لم تخلّف أمة من الأمم ذوات الحضارة قبل العرب، وبعد قيام الإسلام، ما خلفه المسلمون من تراث ثقافي وعلمي، فلا العبرانيون والسريان، ولا الفرس واليونان، ولا غيرهم ممن ظهر في أروبة بعد عصر النهضة لهم مثل تراث العرب..

والدليل على ذلك بسيط وواضح، هو أن عدد المخطوطات العربية الموجودة اليوم في مكتبات العالم من المغرب إلى الهند وباكستان، ومن طشقند إلى اليمن، وفي أروبة والولايات المتحدة، وفي المكتبات الخاصّة تزيد على الثلاثة ملايين، وقد تبلغ الأربعة...

ونحن لا نجد اليوم في مكتبات العالم، مثل ما يوجد عندنا، لأيّ أمة أخرى عن مخطوطات لاتينية أو سريانية أو يونانية أو غيرها..

والسبب في سعة التراث الإسلامي المخطوط أو المطبوع، يعود إلى أنه نبغ من المسلمين عدد كبير أوتوا الخصب في الإنتاج والقدرة على التأليف، والسّر في ذلك، أيضاً، أن الإسلام دعا بقوة وترغيب إلى العلم، وفرضه على المسلمين وكرم العلماء، فجعلهم ورثة الأنبياء، وأمر الملوك والعامة بتكريمهم، فانطلقوا يؤلّفون، فما من علم من العلوم الدينية والدنيوية، إلا ولعلماء المسلمين تواليف فيه، والناظر في كتاب : «كشف الظنون» لحاجي خليفة، وذيوله[3]، و«الفهرست» للنديم وغيرها من فهارس الكتب، وبرامج العلماء يدهش لكثرة هذه العلوم، ووفرة ما ألف فيها، كما أنه أتيح لهؤلاء العلماء المؤلفين الرعاية والإكرام في أي أمة من الخلفاء، والملوك، فكان عددهم كبيراً، وما أعتقد أنه ظهر مثل عددهم في أي أمة من الأمم، فكثيرون الذين ألفوا المئات من الكتب في آلاف من الأوراق...

وقد ذكر القلقشندي في «صبح الأعشى» : «أن الكتب المصنّفة أجلُّ من أن تحصى، وأكثر من أن تحصر، لاسيما الكتب المؤلفة في الملة الإسلامية، فإنه لم يصنّف مثلها في ملة من الملل، ولا قام بنظيرها أمة من الأمم»..

☆ ☆ ☆

وقد تبحث كثيراً عن علماء أروبيين، أكثروا من التأليف، منذ عصر النهضة، فلا تجد، بعد لأي، سوى أديب واحد هو الكاتب الصحفي الإنجليزي «دانيال دوفو Daniel Defoe (1660 ـ 1731 م) الذي يعتبر رائد القصة في الأدب الإنجليزي، ومؤلف القصة العالمية «روبنسون كروزو»، فهذا الكاتب ألف كتباً كثيرة في القصص والاقتصاد والسياسة والاجتماع والرحلات والتاريخ وغير ذلك، بلغ عددها مائتين وخمسين كتاباً، ولكن يكاد الناس لا يعرفون منها إلا قصة «ربنسون كروزو» Robinson Crusoe.

وهذه القصّة تشبه في موضوعها، قصة «حي بن يقظان» التي كتبها العالم ابن طفيل الأندلسي، (ت :

---

2) انظر : «دور الكتب في ماضي المغرب» مخطوط بالمكتبة الحسنية تحت رقم 258، للأستاذ محمد المنوني، حيث تناول تحبيس الكتب على معاهد العلم بالمغرب» ص. 30، ووقف الكتب على الحرمين الشريفين، وبيت المقدس ص : 31، والمكاتب العامة ص. 38، والمكاتب السلطانية ص. 78.

3) ذكر فيه حاجي خليفة ما يقرب من عشرين ألف كتاب، وللعلامة إسماعيل باشا البغدادي مولداً (ت 1339 هـ باسلامبول) إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، كما أن للعلامة إسماعيل باشا البغدادي (ت : 1339) «هدية العارفين» أسماء المؤلفين وآثار المصنفين»..

581 هـ)، أي قبل ستة قرون من «دوفو»، وقد ترجمت قصة «حي بن يقظـــان» إلى الــلاتينيـــة سنـــة 1617 م وإلى الإنجليزية عام 1708 م؛ وكتب بعض الباحثين مقارنة بينهما وبين «روبنســون كروزو»، وأثبت أن «دوفــو» تـــأثر كثيراً بكتاب ابن الطفيل، بل استقى موضوعه منه[4].. فهذا أديب واحـــد كتب كثيراً من الكتب، معظمهـــا غير معروف ولا مقروء..

وهناك كاتب وأديب وقصاص ومسرحي إسباني آخر هو : «لوب دي فيجـا» الـذي قـالوا عنه «إنه أغزر الكتّاب إنتاجاً في التاريخ، وقالوا إنه تعلم كيف يقرض الشعر، وكتب قصيدة في 5.200 بيت موضوعها «خناقة بين ثلاث قطط»، ولم تكن هذه هي عبقريته الوحيدة، فقد كتب 470 مسرحية، و50 مشهداً تمثيلياً رئيسياً، ومئات الأغاني، ومئات القصص والروايات، وقد ولد هذا الكاتب : «لوب دي فيجا» عام 1562، وتوفي 1635، وتحدثت عنه دائرة المعارف البريطانية، وقد كتب عنه د. حسين مؤنس مقدمة لمسرحيته : «فونتي أوبيخونا»، أو «ثورة الفلاحين»، تحدث فيها عن قيمة وغزارة إنتاجه، فقال : كانت إذا خطرت بباله فكرة لمسرحية لم تمض أربع وعشرون ساعة حتى تكون ممثلة على المسرح. وقد حصل على أرفع الأوسمة من الملوك، ومنحه البابا لقب العلامة، وكسب الكثير، وبلغ من المجد ما لم يبلغه إسباني آخر[5].. فهذا الكاتب أيضاً رغم كتبه وغزارتها كما يدعون، فهو غير معروف، ولم يبق مما ألف إلا القليل.

☆ ☆ ☆

ولعل شيوع الكتـــاب العربي دون غيره من الكتب ذات اللغات الأجنبية يعود إلى طبيعة الحرف العربي، فمن بين الكتابات المتعددة التي استخدمتها شعوب العالم، من الصعب أن نجد كتابة تستخدم الحرف، سهلة الـذيوع والانتشار كتلك التي استخدمها الشعب العربي، لأن بساطة تكوين الحروف في أشكال بسيطة جداً أحيـانـاً، دون التواءات في رسمها، وإهمال الشكل عادة، وعدم وجود رسم خـاص للحروف في أوائل الجمل، وفي الأعلام وغيرهـا يجعل الوقت الذي نحتاجه في نسخ صفحة ثلث الوقت الذي تحتاجه كتابتها باللغة اللاتينية على الأقل، كما أن صناعة الورق وتوفره، وانتشار استعماله، ورخص ثمنه بالنسبة لورق البردي أو الرق، جعل ثمن الكتب رخيصاً، والحصول عليها ممكناً، حتى من أشد طبقات المجتمع فقراً، وفي الوقت نفسه، وجدت مهنة الوراقة مجالاً عريضاً للانتشار والازدهار.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن طريقة الحياة عند الأمة الإسلامية، وغيبة المؤسسات والعادات التي نجدها عند الغرب ذات النظم المتقدمة جداً، كالتدخل في القضايا العامة عن طريق المجالس، أو تحقيق العدالة عن طريق المحلفين، وعدم وجود معارض، أو مسارح عامة، أو مجامع علمية منظمة، وغيرها، جعل من الكتاب وسيلتهم الرئيسية للتربية، وأدّت الطريقة التي يسير عليها التعليم في المدرسة، إملاء ونسخاً، إلى شيوع مهنة النسخ والكتابة أيضاً[6]..

مثل هذه الظروف، جعلت العرب يفوقون الجميع، بما فيهم الإغريق والرومان، في الكتابة، ويسبقونهم في أعداد الكتب والمخطوطات. لقد تحدث التاريخ عن ما كـان في بعض خزائن الكتب في الغرب على سبيل المقارنة، كان في مكتبة الكاتدرائية بمدينة «كنستانز» في القرن التاسع الميلادي ثلاثمائة وستة وخمسون كتاباً، وفي مكتبة دير البندكتيين عام 1032 م ما يزيد على المائة بقليل، وفي خزانة كتب الكاتدرائية في مدينة «بامبرج» عام 1130 م ستة وتسعون كتاباً فقط.

☆ ☆ ☆

بينما نجد أفراداً من العلماء المسلمين يملكون آلافاً من الكتب يضيق عنها البيت أو الخزانة، فقد قالوا إن كتب أبي عمرو وابن العلاء كانت تملأ بيته إلى السقف، وقالوا

---

4) انظر كتاب حسن محمود عباس : حي بن يقظان، وروبنسون كروزو.

5) «الشرق الأوسط» ع. 3636، 1988/12/11.

6) خوليان ريبيرا، «التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية، وتأثيراتها الغربية» ترجمة د. الطاهر أحمد مكي.

نحو ذلك في سائر رواة الأدب والشعر كالأصمعي وحماد وأبي عبيدة...

وقد ذكر قاضي قضاة حيدر آباد الهند «خودة بخش» في مقالة له، نشرتها مجلة «المقتطف»، ثم دائرة المعارف الوجدية أن كتب الواقدي تملأ ستمائة صندوق، ويقتضي حملها مائة وعشرين جملاً[7].

وقال الحافظ جلال الدين السيوطي في : «الدوران الفلكي، على ابن الكركي» : «لو جمعت أسماء الكتب التي ألفها علماء الأمة في رد بعضهم على بعض، لبلغت مجلدات؛ ونقل أبو الحسن علي الأجهوري في حواشيه على خطبة الرسالة، عن إمام الحرمين في حق مالك، أنه أملى في مذهبه نحواً من مائة وخمسين مجلّداً في الأحكام الشرعية[8]..

ومن خط أبي العباس أحمد ابن عاشر بن عبد الرحمن الحافي السلوي في كناشه نقلاً عن شرح العقيلة، قال : «المصنّفون من هذه الأمة كتبا ما لها عدد في كل فن... ثم نقل عمن رأى بغرناطة عن بعض الطلبة كتاباً كبيراً ضخما في القالب الكبير، وعلى ظهر الكتاب مكتوب : «السفر السادس والخمسون من أسماء الكتب»، ولم يدر ما بقي معه، وليس في هذا السفر إلا اسم الكتاب، واسم مؤلفه، وبلده، ووفاته خاصّة[9]، فانظر كم تضمنت هذه الأسفار من أسماء أجزاء الكتب..

ويقول ابن العربي في «العواصم من القواصم» : «لما كنت في بغداد، دخلت إحدى مكتباتها، فوجدت كتاب «التمهيد» للقاضي أبي بكر الباقلاني، وهو تفسير للقرآن الكريم في خمسمائة مجلّد، قرأت منه مائة مجلد[10].

ويسجل أبو الحسن البيهقي أنه رأى بنفسه فهارس كتب الصاحب ابن عباد، وأن تلك الفهارس كانت تقع في عشرة مجلدات[11].

وكان لمكتبة المدرسة النظامية ببغداد فهرس شامل دقيق رآه ابن الجوزي (ت : 597 هـ) وهو يقول عنه : «ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد[12]..».

ولشيخ الإسلام محمد أبي الروم البكري الصديقي المصري (ت : 1007 هـ) كتاب في «تاريخ المؤلفين على أسلوب أخبار المصنفين» للمؤرخ العلامة الشهير أبي الحسن علي ابن أنْجب البغدادي (ت : 674). وهو في مجلدات، لم يطبع.. ومنهم شرف الدين محمد بن معمر المقدسي الكاتب (ت 712 هـ) له القصيدة البائية في أسامي الكتب العلمية..

وقد عقد «النقاية، وإتمام الدراية»[13] للسيوطي، شهاب الدين أحمد السنباطي المصري (ت : 990 هـ) في زهاء ألف وخمسمائة بيت، وضم إليها أربعة علوم، هي العروض، والقوافي، والحساب، والمنطق، وسمى نظمه : «روض الفهوم، في نظم نقاية العلوم»[14]...

وجاء من ترسم ابن النديم، واتّبع سنّته في الجمع والتعريف، وضع الفهارس، والتفنن في طرائقها. فكان كتاب : «مفتاح السعادة، ومصباح السيادة» أو مفتاح العلوم لطاشكبري زادة الحنفي البروساوي (ت : 968 هـ)، والذي طبع في ثلاث مجلّدات بحيدر آباد الدكن بأمر السلطان أصف جاه السابع (ت : 1386 هـ)، وقد تكلم فيه عن العلوم وأقسامها. وتفرعها في شكل المشجّر، فذكر كيف تفرّعت العلوم، وعلاقة كل علم بسواه، وقسمه إلى شعب وأدواح، ومطالب وأصول وفروع، مما يدل على وضوح الموضوع في

---

7) المكتبة الإسلامية للكتاني ص. 6.

8) المصدر السابق، ص. 4.

9) التراتيب الإدارية ص. 2/455، وانظر ترجمة ابن عاشر في فهرس الفهارس ص. 2/217.

10) العواصم من القواصم ج. 2 تحقيق د. عمار الطالبي، ط. الجزائر.

11) معجم الأدباء، ص. 2/315.

12) صيد الخاطر، ص. 366 ـ 367.

13) نسبها السيوطي لنفسه في كتابه : «حسن المحاضرة» وقد طبع قسم منها بالأستانة ضمن التحفة البهية عام 1302 هـ، ثم طبعت النقاية تامة مع شرحها المسمى : «إتمام الدراية» بفاس عام 1317 هـ، وهذا الكتاب عبارة عن معلمة أودع فيها السيوطي خلاصة أربعة عشر علماً، وزبدة مسائلها..

14) توجد هذه المنظومة للسنباطي مخطوطة بالمكتبة العباسية..

ذهنه، فبلغ عدد العلوم عنده نحو 300 علم، قسمها إلى ستة أبواب، وإذا ذكر العلم عرفه وبين حدوده، وبحث في تاريخه بحثاً انتقادياً، ثم يشير إلى أشهر المؤلفات فيه بدون وصفها، وقد اختصره المؤلف، وسماه «مدينة العلوم»، كما كان كتاب : «مدينة العلوم» للإزنيقي[15] في القرن العاشر، وهو تلميذ قاضي زادة موسى بن محمود الرومي، وهذا الكتاب مقتصر على ذكر أنواع العلوم، وتراجم المصنّفين فيها، وهناك كتاب مختص بذكر اصطلاحات العلوم المتداولة في كتب الفنون اسمه : «كشاف اصطلاحات الفنون» للشيخ الفاضل محمد بن علي التهانوي الهندي، ذكر فيه أنواعاً من العلوم المتداولة، وطرقاً من الفنون المتناولة..

ومؤلفو كتاب «معجم المصنفين» هم عدة من علماء السند، وقد طبع في بيروت، عام 1344 هـ بأمر السلطان، نظام شاه آصف جاه السابع ملك حيدر آباد الدكن (ت : 1386 هـ)..

ولأبي الفضل محمد بن أحمد بن طيفور[16] البغدادي (ت : 280 هـ) كتاب :« أخبار المؤلفين والمؤلفات»، وهو صاحب كتاب «بلاغات النساء» المطبوع بالغرّي الشريف..

وللفقيه السيد إعجاز حسين الموسوي الهندي الكنتوري اللكنوي (ت : 1286 هـ) كتاب : «كشف الحجب والأستار عن وجه الكتب والأسفار» المطبوع بالهند...

وللفاضل البحاثة السيد عبد الله الأفندي الأنصاري كتاب خصصه للتآليف المصرية، وهو بعنوان : «جامع التصانيف المصرية»؛ ومن المهتمين بالموضوع، أيضاً، يوسف إلياس سركيس الدمشقي ثم المصري في كتابيه : «معجم المطبوعات العربية والمعرّبة» المطبوع بالقاهرة عام 1346 هـ، و«جامع التصانيف الحديثة»، وكذلك كتاب : «اكتفاء القنوع : لما هو مطبوع» الذي طبع بمطبعة الهلال بالقاهرة عام 1313 هـ لصاحبه المستشرق الدكتور «ڤانديك إدوارد الهولاندي الأصل، الأمريكي المنشأ» (ت : 1313 هـ.

ومنهم «عمر رضا كحالة الدمشقي صاحب كتاب «معجم المؤلفين، في تراجم مصنفي الكتب العربية» المطبوع عام 1378 هـ بدمشق في خمسة عشر جزءاً.. ويأتي القنّوجي[17]، فيدلي بدلوه في هذا الميدان، ويؤلف كتابه : «أبجد العلوم» في أدق ترتيب، وأحسن نظام، وأخرج ما يمكن أن نسمّيه معلمة وصفية في التربية والعلوم. وما ألف فيها من كتب عند العرب، ومن ألف في ذلك.. وهو من أضخم الكتب وأوسعها إحاطة واستيعاباً، وأجلها فائدة، وقد جعله في ثلاثة أجزاء أطلق على كل منها عنواناً، فالأول منها، أطلق عليه : «الوشي المرقوم، في بيان أحوال العلوم»، وعنوان الثاني : «السحاب المركوم، الممطر بأنواع الفنون وأصناف العلوم».. وعنوان الثالث : «الرحيق المختوم، من تراجم أئمة العلوم» و«السحاب المركوم» أضخم الثلاثة حجماً وأغناها مادة، فقد استقصى فيه ما ألف بالعربية من العلوم منذ بدء التدوين حتى عصره، في شتى ميادين المعرفة من فنون علوم القرآن والحديث واللغة والنحو والأدب والفلسفة، والسياسة والموسيقى، والطب والصيدلة، والتاريخ، والفلك، وما يتفرع عن ذلك.. تناول ذلك على سبيل الاستقصاء والحصر.

ثم أخذ بتعريف كل علم وفن بعد أن رتّبها على حروف المعجم، كما أفرد في الجزء الثالث الذي أسماه بـ«الرحيق المختوم لتراجم رجال ألفوا في العلوم والفنون التي عرف بها في الجزء الثاني من الكتاب»..

وللإمام أبي البركات محمد بن إبراهيم بن الحاج البلفيقي الأندلسي تأليف في أسماء الكتب والتعريف بمؤلفيها على حروف المعجم..

ومنهم أبو المحاسن محمد بن خليل القاوقجي الطرابلسي الذي له : «كواكب الترصيف، فيما للحنفية من

---

15) هو محمد بن قطب الدين الأزنيقي الرومي محي الدين، عالم مشارك في بعض العلوم (ت 885 ـ 1480 م).

16) أصله من أبناء خراسان من أولاد الدولة، ذكر له صاحب الفهرست خمسين كتاباً، منها : «بلاغات النساء»، طبع في مصر، أيضاً، عام 1907 [تاريخ آداب اللغة العربية، ص. 2/228].

17) أبو الطيب صديق بن حسن بن علي الحُسَيْني البخاري القنوجي، نشأ في قنوج وهي من أقدم بلاد الهند ونزل بهوبال بالهند... ولد سنة 1248 ـ 1832 م، ت 1307 هـ ـ 1889 م. له عدة مؤلفات. انظر ترجمته الكاملة في الجزء الثالث ص. 271 من كتابه «أبجد العلوم».

التصنيف»؛ كما أن لمحدث الهند وعالمه أبي الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي الأنصاري : «فرحة المدرسين، بذكر المؤلفات والمؤلفين»، ومنهم الإمام الصوفي البغدادي الذي ألف في تراجم المؤلفين في الإسلام ومؤلفاتهم كتاباً حافلاً في ثمان مجلّدات، ولأبي الحسن أحمد بن محمد بن القاسم بن جعفر القاسمي السمرقندي الكوفيخني قوّام السنة (ت : 491 هـ) نزيل نيسابور مصنّف : «بحر الأسانيد، في صحاح المسانيد» يشتمل على مائة ألف من الأخبار، وهو في ثمانمائة جزء كُبار، كما ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام[18]..

☆ ☆ ☆

وكان الحاكم صاحب الأندلس يبعث رجالاً إلى جميع بلاد المشرق ليشتروا له الكتب عند أول ظهورها، وكان فهرس مكتبته يتألف من أربعة وأربعين كراسة، كل منها عشرون ورقة، ولم يكن بها سوى أسماء الكتب..

أما في مصر، فكان للخليفة العزيز (ت 386 هـ) خزانة كتب كبيرة[19]، وقد ذكر عنده كتاب العين للخليل بن أحمد. فأمر خزّان دفاتره، فأخرجوا من خزائنه نيفاً وثلاثين نسخة، منها نسخة بخط الخليل بن أحمد، وقد اختلف المؤرخون في التقدير الإحصائي لرصيد مكتبة العزيز بالله، فمن قائل إنها كانت تقتني مائتي ألف كتاب، ومنهم من وصل برقم الرصيد إلى مليون وستمائة ألف، منها ستة آلاف وخمسمائة كتاب في النجوم والهندسة والفلسفة، واثنا عشر ألفاً في مصنّفات العلوم الأخرى مترجمة ومؤلّفة[20]، وتنقل الأخبار عنها أنها : «كانت دقيقة التنظيم والتنسيق لها فهارس وقوائم..

وللعلامة البحاثة الأثري السيد حسن حسني عبد الوهاب كتاب سمّاه : «دليل الباحثين، عمن ألّف من الأفريقيين» في ثلاث مجلّدات، واشتمل على آلاف من أسماء الكتب التي ألفها من على شرطه، وأن فيه من التراجم نحو الثمانمائة، يصف فيه كل كتاب، وصفاً مدقّقاً عن محل وجوده وجرمه وخاطّه وطبعه إن كان طبع...

وفي «الدر المختار، بشرح تنوير الأبصار» للحصفكي الحنفي، قيل إن محمداً بن الحسن صاحب أبي حنيفة (ت 189 هـ) صنّف في العلوم الدّينية تسعمائة وتسعة وتسعين كتاباً... كما ألّف الحافظ قاسم بن قطْلُوبَغا الحنفي[21] (ت 100879 هـ) كتابه «تاج التراجم، فيمن صنّف من الحنفية»، وهو موجود بالمكتبة الخالدية ببيت المقدس، وهو مختصر جمعه من تذكرة شيخه التقي المقريزي ومن الجواهر المضيئة، مقتصراً على ذكر من له تصنيف، وهم ثلاثمائة وثلاثون ترجمة..

وهكذا نجد في علمائنا، المئات ممن أكثروا من التأليف، وقد وضع العالم الدمشقي جميل العظم كتاباً سمّاه : «عقود الجوهر، فيمن له خمسون مصنّفاً فمائة فأكثر» ذكر فيه الكثيرين من المكثرين في التأليف، وقد فاته، منهم، عدد كبير..

فابن جرير الطّبري، العالم المفسّر المؤرخ بلغ تفسيره أربعة آلاف ورقة[22]، وبلغ تاريخه ثلاثة آلاف ورقة..

والمؤرّخ الدّمشقي الكبير الحافظ ابن عساكر ألف : «تاريخ مدينة دمشق» في ثمانين مجلدة حتى قال الحافظ المنذري عنه : العمر يقصر عن أن يجمع الإنسان مثل هذا الكتاب..

وابن عروة الحنبلي الدّمشقي، علي ابن الحسين، ألف كتابه : الكواكب الدراري، في ترتيب مسند الإمام أحمد في مائة وعشرين مجلداً، وفي الظاهرية[23] بدمشق اثنان وأربعون مجلداً..

وقد بلغ ما كتبه الأمير عز الملك المسبحي، المؤرخ الكاتب المصري في الأديان والأدب والتاريخ ثلاثة عشر

---

18) «الحكومة النبوية» ص. 2/216.

19) آدم متز، ص. 1/322.

20) «تراثنا بين ماض وحاضر»، د. عائشة عبد الرحمن، ص. 21.

21) القاسم بن قطْلُوبَغا عبد الله المصري الفقيه الحنفي (ت 879 هـ) له عدة مصنفات ذكرها إسماعيل باشا البغدادي في «هدية العارفين» ص. 5/830.

22) كانوا يحسبون الكتب بعدد ورقاتها.

23) أصبحت هذه المكتبة، تسمى اليوم بالمكتبة الأسدية.

ألفا وأربعمائة ورقة، منها كتاب واحد عن «أصناف الجماع» بلغ ألفاً ومائتي ورقة..

والحافظ جلال الدين السيوطي تجاوزت تواليفه، في كثير من العلوم الثلاثمائة، وربما بلغت الأربعمائة.. والبيروني اللغوي الأديب المؤرّخ الرياضي الفلكي، مؤلفاته تفوق الحصر، رأى ياقوت الحموي فهرستها في ستين ورقة بخط مكثف !!

وبلغ عدد ما كتب شيخ الإسلام ابن تيمية من رسائل في التفسير والأصول والقواعد المختلفة، والكتب الفقهية والوصايا ثلاثمائة وأربعين، عدا فتاواه التي بلغت ألوفاً..

وفي بعض التواريخ أن عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السلمي بلغت تواليفه ألفاً[24].

كما أن ابن حزم بلغت تواليفه نحو أربعمائة مجلد، كما ذكر ذلك صاعد الحافظ الذهبي في تاريخه[25]..

وقال أبو رافع الفضل بن حزم : «اجتمع عندي بخط أبي في تواليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة.

☆ ☆ ☆

وقد أصدرت اليوم إدارة الثقافة والنشر في جامعة الإمام محمد بن سعود «الفهرس الوصفي للمنشورات الاستشراقية» الذي يضم وصفاً باللّغتين العربية والإنجليزية لمجموعة نادرة من دراسات المستشرقين الأوروبيين تزيد عن مائتين وخمسين كتاباً في عدّة مجلدات.

وكان مركز البحوث في الجامعة، كما نشرت ذلك صحيفة «مرآة الجامعة»، قد اقتنى الفهرس منذ خمسة أعوام من مؤسسة برل الهولندية للتعرف على كتابات الغربيين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر والنّصف الأول من القرن التاسع عشر.

ويضم الفهرس دراسات باللغة اللاتينية بالإضافة إلى بعض النّصوص المحقّقة ودراسات باللّغات الفرنسية والألمانية والإنجليزية والهولندية والإيطالية وغيرها، إلى جانب البحوث اللغوية أمثال النصوص النحوية والمعاجم وبحوث من فروع الأدب والدين والتاريخ والجغرافيا والبيليوجرافيا.

وقد أعد الفهرس وقدم له الدكتور قاسم السامرائي الأستاذ في جامعة لايدن هولندا، وهي الجامعة التي تقتني الصورة الأصلية لهذا العمل وآلاف المخطوطات والكتابات الإسلامية النادرة.

☆ ☆ ☆

اعتنى العرب، كثيراً، بجمع الكتب، وبنوا لها الخزائن العظيمة، وقد شاع الكتاب، وانتشر دوره بين العرب، مما جعل العرب يفوقون الجميع، بما فيهم الإغريق والرومان في الكتابة، ويسبقونهم في أعداد الكتب والمخطوطات، حتى لو افترضنا أنهم كانوا مثلهم في انتشار التعليم، ذلك أن لدور الكتاب ودور العلم صلة وثيقة بالتربية الإسلامية، فقد كانت نواة الجامعات الإسلامية الكبرى، وكان لعناية المسلمين بها أثر كبير في تيسير الثقافة والتعليم وتشجيع الطلاب على الاستمرار في الدراسة والبحث العلمي..

☆ ☆ ☆

إلى جانب هذا وذاك، فقد كان للملوك والأمراء دور كبير في تنشيط حركة الكتاب، وإيجاد المكتبات والخزائن ودور الحكمة بما وقفوه على المؤسسات الإسلامية، والمساجد، بل إن هناك جانباً آخر في تاريخنا الثقافي جدير بالفخر، هو أنه ظهر عندنا في المحيط الإسلامي، وعبر تاريخه الطويل خلفاء وملوك، أوتوا نصيباً كبيراً من الحكمة والعلم، فكان لهم مؤلفات، فَقَبَسُوا المجد من أطرافه سؤدد الملك، ومجد العلم..

فالملك المؤيد أبو الفداء صاحب حماه، كان مؤرّخاً جغرافياً من فضلاء بني أيوب، وعالماً في علوم كثيرة، فألف في كل علم يعرفه مصنّفاً، أو أكثر، وقد طبع من مؤلفاته : «المختصر في أخبار البشر» المسمى تاريخ أبي الفداء، وكتاب «تقويم البلدان».

والخليفة العباسي القادر بالله، ألف كتاباً في الأصول، وكان هذا الكتاب يقرأ كل جمعة بجامع المهدي ببغداد..

24) نفح الطيب، ص. 2/6.

25) نفس المصدر ص. 2/78 و2/83.

والملك المظفر محمد بن الأفطس صاحب بطليوس في الأندلس له كتاب : «التذكرة في الأدب» في خمسين جزءاً على نمط كتاب : «عيون الأخبار» لابن قتيبة، وله «تفسير القرآن».

وهذا عبد الله ابن المعتز العباسي الاديب البليغ الشاعر له من المصنّفات كتاب : «الزهر والرياض»، و«كتاب البديع»، وكتاب : «مكاتبة الأخوان»، وكتاب «الجوارح والصيد» وكتاب «السرقات» وكتاب «أشعار الملوك»، وكتاب «طبقات الشعراء»، وكتاب «الآداب» وكتاب «الجامع في الغنا»[26]..

والملك المظفر عمر بن يوسف ابن رسول، ملك اليمن، له كتب كثيرة منها : «طرفة الأصحاب في الأنساب»، وكتاب «المعين في الأدوية المفردة» كما أن له كتاباً مخطوطاً بعنوان «معين الطلاب، على عمل الاسطرلاب».

والملك المعظّم الأيوبي عيسى بن الملك العادل، كان أيضاً، من علماء الملوك، وهو الذي جعل لمن يحفظ : «المفصل» للزمخشري مائة دينار وخلعة، وألف كتاب «السهم المصيب، في الرد على الخطيب»[27] أي الخطيب البغدادي المؤرخ المشهور، لأنه تعرض للإمام أبي حنيفة في تاريخ بغداد، وألف أيضاً شرح الجامع الكبير، للإمام الشيباني في فروع الحنفية، وغيرهم كثير..

ولمؤسس الدولة الموحّدية المهدي بن تومرت كتاب «أعَزُّ مَا يُطلَب»[28]، كما أن للمنصور السعدي كتاباً ألفه في «السياسة»، أما المولى محمد بن عبد الله العلوي، فله عدّة مؤلفات في الحديث وغيره، كـ«الفتوحات الصغرى»[29] و«الفتوحات الكبرى»[30]، و«الجامع الصحيح الأسانيد، المستخرج من أربعة مسانيد» [31]و«فتح الباري، في اقتطاف المسانيد لتخريج أحاديث البخاري»[32]، كما أن له مؤلفات في الفقه، كبغية ذوي البصائر والألباب، في الدرر المنتخبة من تأليف الإمام الحطاب[33]، وكذلك كتاب : «الفتح الرّباني، فيما اقتطفناه من مسانيد الأئمة وفقه الإمام الحطاب، والشيخ ابن أبي زيد القيرواني[34] و«طيب الأرطاب فيما اقتطفناه من مسانيد الأئمة، وكتب مشاهير المالكية، كما أن له «بغية الطلاب[35]، وفقه الإمام الحطاب، المعينة قارئها على عبادة العزيز الوهاب[36]، وكذلك «مواهب المنان، بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان[37]، كما أن للمولى محمد بن عبد الله مؤلفات في التصوف : كـ«الجواهر اللئالي، فيما اشتمل عليه كتاب الأحياء للغزالي»[38]، وله، أيضاً، ديوان في الأدب : «ترويح القلوب»[39]. وهكذا لم يقتصر الإنتاج العلمي لسيدي محمد

---

26) «أبجد العلوم» للقنوجي ص. 3/81.

27) وباسم آخر : السهم المصيب، في كبد الخطيب» يعني الخطيب البغدادي لأنه يتعصب على الحنفية، والمؤلف حنفي المذهب، توفي عيسى بن أبي بكر عام 624 هـ.

28) نشره لوسياني، الجزائر 1903، ولقد كان من رأي المهدي بن تومرت القول بعصمة الإمام علي، رأي الإمامية من الشيعة، فألف في ذلك كتابه الذي افتتحه بقوله : «أعز ما يطلبه» فصار هذا الافتتاح علَماً على ذلك الكتاب.. وقد قال فيه الحسن الصغير : «ما قولك في الهدي» ؟ فقال : «عالم سلطان». (نفح الطيب ص. 5/244).

29) توجد نسخة بالمكتبة الحسنية تحت رقم 6629، وهي في حجم متوسط، عدد أوراقها 99.

30) طبع بالمطبعة الملكية، وقد قدمه العلامة المحدث سيدي المدني بن الحسني عام 1364، كما طبع معه في نفس المطبعة كتاب مسانيد الأئمة الأربعة.. وهما معا في نحو 460 صحيفة من الحجم الكبير..

31) يوجد بالمكتبة الحسنية بالرباط ضمن مجموع يحمل رقم 7307 بخط الكاتب محمد بن الطيب بن عبد الرحمن بن سليمان.

32) توجد نسخة واحدة بالخزانة الحسنية بالرباط مسجلة تحت رقم 1794...

33) مخطوط بالمكتبة الحسنية بالرباط ضمن مجموع يحمل رقم 7307.

34) كتاب طبعته مؤسسة الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الإسبانية بالشمال بمطبعة الفنون المصورة عام 1360، وحققه وعلق عليه ألفريد البستاني.

35) نسخ هذا الكتاب موجودة بكثرة، أكثر من سبع نسخ في المكتبة الملكية (تحت رقم 628).

36) ضمن مجموع بالمكتبة الملكية يحمل رقم 7307، وهو كتاب صغير الحجم..

37) توجد نسخة بالخزانة مسجلة تحت رقم 795 ك. وفي المكتبة الحسنية تحت رقم 3747.

38) تحدث عن هذا الكتاب محمد الفاضل بن عاشور في بحثه القيم المنشور بمجلة «المغرب» ع. 6 ـ 7 عام 1385 هـ، وهو موجود بالمكتبة الحسنية بالرباط ضمن مجموع، مسجل تحت رقم 9593.

39) توجد نسخة واحدة بالمكتبة الحسنية تحت رقم 4166.

ابن عبد الله على الحديث والفقه والتصوف، بل تجاوز ذلك إلى المشاركة في الفنون الأخرى كالأدب مشاركة فعالة[40].

ولعل من أبرز الملوك العلماء الذين ألفوا كتباً عديدة في مختلف الفنون والعلوم الملك العظيم المولى سليمان بن محمد بن عبد الله العلوي الذي كان رجلاً عالماً في الدرجة الأولى، حيث اهتم بالتأليف، وشجّع عليه، ورسم للعلماء مناهجه، وراجع أعمالهم بنفسه أولاً بأول، وهي في طريق الإنجاز، وكان هذا السلطان أبو الربيع نادرة من نوادر ملوك البيت العلوي في الاشتغال بالعلم، وإيثار أهله بالاعتبار[41]، وقد قال القاضي ابن الحاج في «الاشراف» : «كان لا يجالس إلا الفقهاء، ولا يبرم أمراً إلا بعد مشاورتهم في أمور مملكته، ولا يقبل منهم إلا النّص الصّريح، ويبالغ في الثناء عليهم وتعظيمهم وصلتهم ومودّتهم، وتفقد أحوال كل من له صلة بهم.

ويكفي أن نشير إلى أنه كان من رجال دولته ثلاثة من أعيان المؤلفين والعلماء وهم محمد بن أحمد أكنسوس، وأبو القاسم الزياني، ومحمد بن عثمان المكناسي صاحب كتاب الإكسير الذي طبع بعناية الأستاذ محمد الفاسي.

فللمولى سليمان «فهرس» جمعه له كاتبه المؤرخ أبو القاسم الزياني، أسماه : «جمهرة التيجان، وفهرسة اللؤلؤ والياقوت والمرجان، في ذكر الملوك، وأشياخ مولانا سليمان» في جزء صغير، وقد اختصرها تلميذ الزياني المسند محمد التهامي بن رحمون الفاسي في نحو الخمس كراريس[42]، ومن تآليفه : «حاشية على شرح الخرشي لمختصر خليل» في مجلدين[43]، ومن بين كتبه، كتاب صغير عنوانه : «إمتاع الأسماع، بتحرير ما التبس من حكم السماع»[44] ومن مؤلفاته رسالة صغيرة عنوانها : «جواز التجمير، بالقسط[45] في رمضان[46]، ومن رسائله رسالة أخرى كتبها تعليقاً على قصّة سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام[47]، وله خطبة مشهورة وعظية ضد البدع،[48] كما نجد مؤلفات وقصائد وأراجيز للمولى عبد الحفيظ العلوي كما هو مسطر في بابه..

ولعل ممن كان له دور كبير في تنشيط حركة الكتاب وإيجاد المكتبات والخزائن ودور الحكمة، جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله الذي صنف كتاب : «التحدي» الذي صدر باللغة الفرنسية عام 1976 عن مطابع ـ ألباه ميشال ـ بفرنسا ثم ترجم إلى اللغة العربية، وطبع بها مرتين، والذي لا يعتبر ـ كما يقول ناشروه ـ كتابا ظرفيا، وإنما هو عمل يكتسي أهمية بالغة وخاصة.

☆ ☆ ☆

لقد وجدت الشكاية باندثار أكثر الكتب التي كان يملكها السّلف قبل وقعة التّتار، وذلك من الحافظ ابن الجوزي في كتاب : «صيد الخاطر»، قال : «كانت همم القدماء عالية تدل عليها تصانيفهم التي هي زبدة أعمارهم، إلا أن أكثر التصانيف اندثرت، لأن همم الطلاب ضعفت، فصاروا يطلبون المختصرات، ولا ينشطون للمطولات، ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها، فاندثرت الكتب، ولم تنسخ[49]..

لذلك أجمع الباحثون على أن الذي فقد من كتب المسلمين أكثر بكثير مما وجد أو حفظ اسمه، وكان أكثر المفقود بسبب وقعة التتر[50]..

ولابد أن كثيراً من العلماء قد أكلت الحسرة قلوبهم، وهم يستعرضون الوثائق النادرة، والكتب النفيسة التي

40) انظر باب : الآثار العلمية لسيدي محمد بن عبد الله للحسن العبادي، في كتابه «الملك المصلح، سيدي محمد بن عبد الله العلوي».
41) عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، ص. 2/330.
42) فهرس الفهارس ص 2/328.
43) نفس المصدر السابق، وتوجد نسخة خطية بالخزانة الحسنية تحت رقم 1323 في مجلد واحد ضخم يقع في أربعمائة وستين صحيفة، وانظر تحليلاً للكتاب في «دعوة الحق» ع.4/س 10، للأستاذ ع.الصحراوي، وقد طبع هذا الكتاب عام 1347 هـ بعناية الأستاذ المرحوم محمد العابد الفاسي وصدره بترجمة للمولى سليمان.
44) الخزانة الحسنية تحت رقم 6040 ويقع في نحو مائة وست وعشرين صحيفة.
45) القُسط بضم القاف معناه العود الذي يتبخّر به..
46) توجد نسخة خطية من هذه الرسالة بالخزانة الحسنية ضمن مجموع تحت رقم 5633.
47) وهي ضمن مجموع بالمكتبة الحسنية تحت رقم 911.
48) وهي مطبوعة في كراسة مستقلة بعناية الأستاذ إبراهيم الكتاني.
49) «المكتبات الإسلامية» للكتاني ص. 36.
50) المصدر السابق، ص. 38.

أحرقت بسبب الإحباط واليأس من جهة، أو الجهل والخوف من جهة أخرى، ولو كانت هذه الوثائق والمخطوطات ـ ملايين المخطوطات ـ باقية في أيدينا لعرفنا الكثير عن سرّ الكون، وأسرار الحياة، ونواميس الطبيعة...

وكان من شأن الناس في تلك العصور الزاهية أن الأكابر كانوا يدفنون كتبهم عند موتهم، وقد أوقف الإمام الزمخشري جار الله كتبه على مشهد الإمام الأعظم أبي حنيفة ببغداد، وأصفر منها يده، بعدما قال : «...فبنات خلعتُ على تربيتهنّ الشباب، ثم دفنتهن، وحشوت عليهن التراب[51]، وذلك حين آثرت الطريقة الأويسية..

☆☆☆

كما أن كثيراً من العلماء المسلمين أحرقوا، باختيارهم، كتبهم، وسجروها بالنار، أو رموها في الآبار والأنهار، أو مزقوها، أو طيروها في الرّيح أو اختطفها القراصنة وهي تمخر عباب البحار..

فهذا سفيان الثوري مزّق ألف جزء، وطيرها في الريح، وقال : ليت يدي قطعت من هاهنا، بل من هاهنا، ولم أكتب حرفاً..

وهذا أبو سليمان الداراني جمع كتبه في تنّور، وسجرها بالنار، ثم قال : «والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك..

وهذا داود الطائي، وكان من خيار عباد الله زهداً وفقهاً وعبادة، ويقال له تاج الأمة، طرح كتبه في البحر، وقال يناجيها : «نعم الدليل كنتِ، والوقوف مع الدليل بعد الوصول، عَناء وذهول، وبلاء وخمول..

وهذا يوسف بن أسباط، حمل كتبه إلى غار في جبل، وطرحها فيه، وسَدّ بابه، فلما عوتب على ذلك، قال : «دلّنا العلم في الأول، ثم كاد يضلنا في الثاني، فهجرناه لوجه من وصلناه، وكرهناه من أجل ما أردناه..

وهذا أبو عمرو بن العلاء، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر، وورع معروف، دفن كتبه في بطن الأرض، فلم يوجد لها أثر..

وهذا سيد العلماء أبو سعيد السيرافي، قال لولده محمد : «قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجَل، فإذا رأيتها تخونك؛ فاجعلها طعمة للنار[52].

ولقد أحرق أبو حيان التوحيدي كتبه النّفيسة بالنار، وغسلها بالماء، وقد عاتبه القاضي أبو سهل علي بن محمد الذي عذله على صنيعه، وعرّفه قبح ما اعتمد من الفعل وشنيعه، فأجابه التوحيدي بأنه ما انبرى لهذا الصّنيع، ولا اجترأ عليه، حتى استخار الله عز وجل فيه، أياماً وليالي، وحتى أوحى إليه في المنام، بما بعث راقد العزم، وأجَدّ فاتر النية، وأحيا ميّت الرأي، وحث على تنفيذ ما وقع في الروع، وتَرَبَّع في الخاطر.. ثم قال :

«وهل جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب ؟...

وهل المنهوم بها إلا كالحريص الجشع عليها ؟.

وهل المُغرم بحبها إلا كمكاثرهما...

هيهات، الرحيل والله قريب، والثواء قليل، والمضجع مُقضٌّ، والمقام مُمض، والطريق مخوف، والمعين ضعيف، والاغترار غالب، والله من وراء هذا كلّه طالب[53]..

وقد رأى عبد الوهاب الشعراني في منامه أن شيخاً من شيوخ الطرق الصوفية يأمره بأن يحرق كتبه، فحرقها عند الصباح!.. بل إننا نجد كثيراً من العلماء يحجمون عن التأليف، أو يوقفون القلم، ويكسرونه، ويتمثل هذا في بيت للإمام الغزالي الذي يقول :

غـزلت لهم غـزلاً رقيقـاً، فلم أجـد
لـغزلي نسـاجاً، فكسرت مغـزلي

☆☆☆

وقد شاع إحراق الكتب بين الغرب والأمم قديماً، وفي الكتاب المقدس في سفر «أعمال الرسل» نجد أن القديس بولس قد أحرق كتبا بها «أشياء غريبة»، وقد تم إحراقها أمام الناس !!

وفي عام 240 ق.م أحرق الأمبراطور الصيني تشي هوانج كل كتب التاريخ والفلك والفلسفة والطب والكيمياء في عصره، لأن فيها خطورة على عقول الناس !!

---

51) انظر رسالته للحافظ أبي طاهر السلفي [أزهار الرياض، للقاضي عياض ص. 3/284].

52) «معجم الأدباء» ص. 21 ـ 15/22.

53) نفس المصدر، ص. 16 ـ 15/17.

وفي القرن الثـــالث، في رومـــا، أحرقت كتب الكيميـــاء، وكتب تحـويـل المعـادن بعضهـا إلى بعض، وخصوصاً كتب تحويل النحاس والحديد إلى ذهب، وأعلن «ديوكلينيـان» في ذلـك الـوقت : أن هـذه السموم يجب القضاء عليها؛ وقد أحرق مكتبة الأسكندرية أحد البطالسـة، فأهلك بذلك ما يقرب من مليون مجلد، عندما أحرقها، أعلن أنها خطيرة، لأنها تتحدّث عن أسرار غريبة يخشى أن تصيب الناس بالجنون.. ثم أحرقت مكتبة الأسكندرية، مرّة أخرى، عـام 641 م، واستخـدم أهـل الأسكـنـدريـة ألـوف المجلدات في الأفران لتسخين ماء الحمامات، ولا أحـد يعرف كم من الأسرار قد أكلتها النار...

وفي إحراق مكتبة الأسكندرية يجب أن نشير، هنا، إلى مـا جـاء في الفصل الرابع : «في تجـدد العلوم في الجنـوب» للعـلامـة «دْرابَر» الأمريكي المشهـور صـاحب كتاب : «اختلاف العلم والدين»[54]، الذي يعد كتاباً نادر المثال في تاريخ الحركة الفكرية العلمية في العالم، وما كان بإزائها من العقائد والأديان، وما وقع من المصارعة بين المبدإ العلمي والمبدإ الديني؛ قال العلامة «درابر» من كتابه المذكور : «... قـال الإمـام علي : لاحظت كثيراً، في مـدة حياتي الطـويلة أن النـاس بزمـانهم أشبه منهم بـآبـائهم» ولعمري أن هـذه المـلاحظـة الفلسفيـة البعيـدة المرمى التي أتى بهـا صهر محمـد لهي عين الصواب، فإنـه مهمـا كـانت ملامح المرء، وتقـاطيعـه دالـة على نَسَبِه، فإن البيئـة التي يـوجد فيهـا، لهي منشـأ طبيعتـه الفكريـة، وحـد وجهتـه العقلية، ولما فتح عمرو بن العاص نائب الخليفة عمر، أرض مصر. وضمها إلى المملكة العربية، وجد في الأسكندرية نحوياً يونانيـا اسمه يُوحنا فيلو بونوس[55]، فحصلت بينهما مودة، ورغب هذا الرجل إلى عمرو أن يتخلى لـه عن بقية المكتبة الكبرى، مما لم يكن أخنى عليها الدهر، ولا ذهب به التعصب، ولا أفنته الحروب، فاستأذن عمرو الخليفة في ذلك، فأجابه : «هذه الكتب إما أن تكون موافقة للقرآن، أو مخالفة له، فإن كـانت موافقة، فنحن في غنى عنها، وإن كانت مخالفة فهي ضارة، وواجب إحراقها» فوزعت على حمـامـات الاسكندريـة، وبعـد سـتـة أشهر، لم يبـق منهـا شيء»[56] !!

ومهما وقع من المراء في هذه المسـألـة، فمما لاشك فيـه صـدور هـذا الأمر عن الخليفـة، لأن عمر لم يكن من الطبقة المشتغلة بـالعلوم، ولم تكن الجمـاعـة التي حوله إلا من الرجـال المتحمسين في الـدين الـذين ليس لهم هـوس بشيء آخر.. فعمـل عمر، قـد حقّق مـلاحظـة علي !!؟ ثم قال : ولا ينبغي أن يظن أن الكتب التي طمع فيها «يوحنا محب الشغل» كـانت كتب الخزانة الكبرى المنسـوبـة إلى البطالـة، وإلى «أوماتوس» ملك برغام، بل كـان قـد مضى ألف سنة على العهد الـذي ابتـدأ فيـه «فيلادلفيوس» بجمع كتبه، وكان يوليوس قيصر، قد أحرق أكثر من نصفها، وكان بطارقة الإسكندرية، قد سعوا سعياً حثيثاً في إحراقها.. وقد روى «أوراسيوس» أنـه كـان قـد شـاهـد قِمْطرات المكتبـة فـارغـة، قبـل أن يصـدر أمر الإمبراطور «لتـاوفيلوس» عم القديس «كيرلـج بإحراق الكتب بمدة عشرين سنة.. وعلى فرض عدم جريان هـذه الأحوال، على هـذه المكتبـة، فـإن طول الاستعمال، وكثرة الممارسـة، ومـا هنـاك من العوارض والحوادث اليومية، والسرقات على طـول مـدّة عشرة قرون

54) لقد اطلع على هـذا الكتـاب أمير البيـان شكيب أرسـلان، وهـو في الثامنة عشرة من عمره، وأجمع ترجمته إلى العربية، ولأجل زيادة الضبط والتدقيق أطلع عليها العلامة الشهير الدكتور ڤانديك، وهذا الدكتور والأستاذ الشيخ محمد عبده هما اللذان صححا عزم أمير البيان على ترجمة هذا الكتاب، ولقد شهد الدكتور ڤانديك لأمير البيـان بصحة الترجمـة، وهـو في ذلك السّن، وقـال لمن سـألـه عن شكيب أرسلان هكذا : «جاء بالصنعة».

55) «يوحنـا فيلـوبونوس»، ومعنـاهـا : محب الشغل «الغرامـاطيقي» فيلسوف يوناني مسيحي، عاش في الأسكندرية (القرن : 6) قال : إن الطبيعة الإلاهية مثلثه، فجرمه مجمع الأساقفة في مصر، له كتاب «في أبدية العالم».

56) قال الأمير : قد علق الدكتور فانديك على هذه الجملة : «هذه القصة حكاها غريغور يس أبو الفرج، وعليها رد، وعلى كل يشك بهاء، وتنسب رواية أخرى عن الفرس، فقد كتب سعد بن أبي وقـاص إلى عمر بن الخطاب يستأذن في شأن كتب وعلوم الفرس التي وجدها المسلمـون في بلاد فـارس، فكتب إليـه عمر رضي اللـه عنـه أن اطرحوها في الماء، فإن يكن ما فيها هُدىً، فقـد هدانا الله تعالى بأهدى منه، وإن يكن ضلالاً، فقد كفانا الله تعالى، فطرحوها في الماء أو في النار فذهبت علوم الفرس فيها [أبجد العلوم، للقنوجي ص.2/250].

متوالية، لمن الأسباب التي تخفى على كثير من موجود المكتبة، ولا جرم أن «يوحنا النحوي لم يكن له طاقة بنصف مليون مجلد.. ولم يكن ليقدر أن ينفق عليها إنفاق البطالسة والقياصرة، هذا، وإن المدة التي زعموا استغراق الحريق إياها لا ينبغي أن تكون قاعدة للحساب، فإن ورق البردي سهل الوقد، ولكن الرق لا يتقد بسهولة، ولهذا لم يكن الحماميّون يؤثرونه ما وجد غيره، وقد كان القسم الأكبر من كتب مكتبة الاسكندرية من الرق المذكور».

قال الأمير شكيب أرسلان[57] : «وأوضح وأوثق من إحراق عمر لمكتبة الاسكندرية، إحراق الصليبيين لمكتبة طرابلس الشام. التي قيل إنهم وجدوا فيها نحواً من ثلاثة ملايين مجلّد، فقد كانت المسألة دينية من الجانبين، ويقال إن الصليبيين لما دخلوا القاعة الأولى من المكتبة الطرابلسية، لم يجدوا إلا المصاحف، فظنوا الأمر كذلك في سائر القاعات، فأضرموا النار في الجميع، وليعلم أن خبر هاتين الواقعتين لابد أن يكون وقع فيه شيء من المبالغة، ولكن لابد أن يكون له أصل من الصّحة.. وهكذا لايزال التحمس الديني له هذه الأمثال...

وفي القرن السادس عشر جاء القساوسة الإسبان، وأحرقوا عشرات الألوف من المخطوطات النادرة في الكنيسة، تلك الخسارة التي لا تعوض، وأحرقوا الرسومات العجيبة التي تصور جماعة من الغزاة، جاءوا من فوق، هؤلاء الغزاة كانوا يذبحون الأطفال، ويقطعون أثداء النساء، وقد استنكر القساوة هذه المناظر البشعة واستعادوا بالله من هؤلاء الشياطين، وأحرقوا كل شيء.

وفي عام 1566، أعلن ملك «بيرو» واسمه «فرانشيسكو الطليطلي»، أن هناك رسومات على القماش، وعبارات أيضاً، وأنها جميعا تتحدث عن الفلسفة والفلك وأنه لا ضرورة لها، فالناس في حاجة إلى طعام وإلى علاج، وإلى إيمان، وليسوا في حاجة إلى هذه الخرافات، وأحرق الكثير منها، وجاء القساوسة اليسوعيون وأنقذوا بضعة آلاف من المخطوطات واللفائف، وبعثوا بها إلى مكتبة الفاتيكان...

57) «حاضر العالم الإسلامي» ص. 1/143.

58) «الذين هبطوا من السماء» ص. 133.

وفي كتاب من تأليف : «سافاري» اسمه : «رسائل عن مصر»، يقول المؤلف : إن الأب سيكار قد جاء إلى مصر في نهاية القرن الثامن عشر» ووجد في ميناء صغير برجاً للحمام، وفي هذا البرج عشرات الألوف من أوراق البردى، وكان البرج يملكه جماعة من أقباط مصر، فاشترى منهم هذه الأوراق، وأعطاهم صليباً ذهبياً، ثم أحرقها كلها دون أن يقرأ منها شيئاً، وقال لأقباط مصر : إنني على يقين من أن مصائب الدنيا كلها سوف تجيء من هذه الأوراق القديمة، وأن الفراعنة يعرفون كل أسرار الكون، وأن العالم ليس في حاجة إلى هموم أكثر، ومصاعب أعمق، ومن أجل راحة البشرية سوف أحرق كل ما أجده أمامي من أسرار الفراعنة.. وفي إيرلاندة أحرقوا أيضاً عشرة آلاف مجلد، كانت تتحدث عن أسرار الأرض والكواكب، وعن حركات مريبة وعجيبة بين الأرض والشمس، وعن كائنات متوحشة مشتعلة اعتدت على أهل الأرض ثم اختفت[58] !!

وهكذا كان ضيق الأفق يفعل بأهله، فيأتي بالدمار والخراب، وهكذا كان الغرور والجهل يركب بعض الرؤوس، فيقومون بتخريب حضارة ومدنية تتمثل في الخزانات والمكتبات، وما جاء عفو الخاطر وثمرة القريحة، أفلم يحرق الكردينال كسيمنس في ساحة غرناطة ثمانية آلاف كتاب عربي، قسم كبير منها تراجم للعلماء والمؤلفين، وقد علق أمير البيان على هذا الخبر بقوله : الذي قرأته في بعض الكتب الاسبانيول أن الذي أحرقوه في غرناطة من الكتب العربية أكثر من هذا العدد بكثير. قيل مائة ألف، وقيل أكثر، وأنهم أحرقوا كل الكتب بدون استثناء، سوى كتب الطب والطبيعة والحساب..

ولما ورد السلطان محمود الريَّ استخرج من بيت كتب الصاحب كل ما كان في علم الكلام، وأمر بحرقه[59].

ويذكر التاريخ العربي عن مدينة قرطبة بالأندلس، أنها كانت أكثر بلاد الله كتباً، وأن مسيحيي إسبانيا لما استولوا على قرطبة، أحرقوا كل ما طالت إليه أيديهم من مصنّفات المسلمين، وعددها مليون وخمسون ألف مجلد،

59) الإرشاد لياقوت ج.315/2، عن الحضارة الإسلامية، لآدم ميتز ص. 1/326.

وجعلوها زينة وشعلة في يوم واحد، ثم رجعوا على تسعين مكتبة في الأندلس، وصاروا يتلقون كل ما عثروا عليه في كل إقليم من مؤلفات العرب، ذكر ذلك موندي في تاريخه[60].

☆ ☆ ☆

وقد كان لكل أمير، في المملكة الإسلامية، مكتبة عظيمة يفتخر بها، ويسعى في تنميتها،[61] كما كان الملوك يفاخرون بجمع الكتب حتى كان لكل ملك من ملوك الإسلام الثلاثة الكبار، بمصر وقرطبة وبغداد في أواخر القرن الرابع ولع شديد بالكتب..

وقالوا عن المامون إنه استجلب إلى بغداد مقدا مائة حمْل جَمَلٍ من الكتب، وكان من جملة شروط معاهدة له مع الامبراطور ميخائيل الثالث، أن يتخلى له عن إحدى مكاتب القسطنطينية، وكانت وجدت في بعض الخزائن رسالة بطليموس في الرياضيات السماوية، فأمر المامون بنقلها إلى العربية باسم «المجسطي[62] Al Mageste»، وما زال المامون يُعنى بأمر المكاتب حتى كانت خزانة كتب القاهرة تشتمل على أزيد من مائة ألف مجلد جيدة النسخ والتجليد ، وكان فيها ستة آلاف وخمسمائة مجلد في فني الطب والفلك، لاغير، وكان قانون هذه الخزانة لا يمنع إعارة الكتب للدارسين المقيمين بالقاهرة.[62 مكرر]

ولجلالة الحسن الثاني ملك المملكة المغربية عدة مكتبات ملكية في مختلف مدن المملكة. ويكفي أن الخزانة الحسنية بالرباط وحدها، تحتوي على نحو 12757 مخطوط على حسب الأرقام، وكل كتاب، تقريباً، يضم عدة أجزاء ككتاب : «اختصار الأغاني لأبي الفرج الاصبهاني في خمسة وعشرين جزءاً، و«البيان والتحصيل لابن رشد» في عشرين مجلّداً...، وهذا موضوع سيأتي الكلام عنه في حلقة قادمة..

كما كان للوزراء مكتبة ضخمة حوت آلاف الكتب والمجلّدات، وقد كانت كتب أحدهم العلمية تحمل على أربعمائة جمل، أو أكثر، وتقع فهارسها في عشر مجلدات[63]..

وذكر القاضي ابن خلكان في ترجمة الصاحب ابن عباد الذي كان من أهل المائة الرابعة (ت 385 هـ) أنه كتب إليه نوح ابن منصور السامانى أحد ملوك بخارى يستدعيه ليفوض إليه وزارته، فكان من اعتداره أن قال له : «إنه يحتاج لنقل كتبه خاصّة أربعمائة جمل، وقد ذكروا أن عبد الرحمن الناصر الأموي جمع في قرطبة على ما يقال أربعمائة ألف مجلد، وستمائة ألف على قول البعض، وكان فهرس كتبه يقع في عشرة مجلدات[64]..

☆ ☆ ☆

لقد كانت دُورُ الكتب والمكتبات في المسجد موئلا للعلماء والباحثين يتنافسون، ويبحثون مختلف المواضيع.. وكانت المكتبات طريقة القدماء في نشر العلم، كما كانت الكتب نواة الجامعات الإسلامية الكبرى بحيث كان من الصّعب أن تجد مسجداً أو مدرسة دون أن تزود بمجموعة من الكتب يرجع إليها الطّلاب والباحثون.. فكان لكل مسجد من المساجد خزانته، يشرف عليها ناظر الوقف، ويجلب لها ما جد من جديد في عالم التأليف، بيد أن هذه الطريقة جلبت الضرر معها، لأن أي كتاب تحوم حوله الشبهات، أو يحتوي علماً غير محبب إلى الناظر أو إلى الرجال الأتقياء وعلماء الدين، ورجال الفقه، لا يستطيع. تقريباً أن يأخد طريقه إلى المسجد، وكانت مكتبات المساجد تمتلئ بالكتب الغالية، للجهد الكبير الذي بذل في نسخها بخط جميل، أو لروعة تجليدها، وبالمصاحف، وكتب الأدعية، والفقه وعلم الكلام، وكلها تمثل المحور

---

60) «الحكومة النبوية» ص. 2/454.

61) «ظهر الإسلام» أحمد أمين ص. 2/219. ـ الحضارة الإسلامية، آدم ميتز، ص. 1/322.

62) أقدم كتاب وصل إلينا مما وضعه الفلكيون في علم الهيئة.. معرّب عن اليونانية، ومعناه : «الأكبر»، لقبه به أهل ذلك العصر لتقديرهم له، فيه القواعد لمعرفة إثبات الأوضاع الفلكية والأرضية بأدلتها التفصيلية.. ألفه بطليموس (148)، وعرّبه حنين بن إسحاق..

62 مكرر) حاضر العالم الإسلامي ص. 1/149.

63) آدم ميتز، ص. 1/246. انظر الفصل الثاني من الباب الرابع من كتاب : «الأندلس في نهاية المرابطين، ومستهل الموحدين للدكتور عصمت عبد اللطيف دندش التي أشارت فيه المؤلفة إلى ظاهرة انتشار الكتب والمكتبات في الأندلس والمغرب.

64) الحضارة الإسلامية، ص. 1/326.

الرئيسي في المكتبة، وكانت تقل فيها كتب الشعر غير الديني، ولاشيء من كتب العلم القديم، أي ما يتّصل فيها كتب الشعر غير الديني، ولاشيء من كتب العلم القديم، أي ما يتصل بالدراسات الإغريقية، وكانت هذه نادرة جداً حتى في المكتبات الخاصة[64 مكرر].

وقد فتح الخليفة الحاكم بأمر الله في عام 395 هـ الدار الملقبة بدار العلم بالقاهرة، وحمل الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة، ودخل سائر الناس إليها يقرأون وينسخون وأقيم لها خُزّان وبُوّابون، ورُتب فيها قومٌ يدرسون للناس العلوم، ولكن الحاكم أبطل ذلك بعد قليل من الزمان، وقد بقيت هذه الدار إلى أن أبطلها الأفضل بن أمير الجيوش، لأنه اجتمع بها فريق من العلماء، فاستفسد بعضهم عقول جماعة، وأخرجهم عن الصواب[65].

وكثيراً ما كانت الأوقاف هي المصدر الذي ينفق منه على المكتبات وما يلزمها، ويشمل ذلك ترميم البناء، ومد المكتبة بالكتب الجديدة، ودفع مرتبات الموظفين وغير ذلك، وكان المشرف على المكتبة، يحصل ربع الوقف، وينفقه على مصارفها السابقة، فلم تكن هناك، إذن، مرتبات ثابتة، بل كان المرتب يتبع في ارتفاعه وانخفاضه ما يستطيع المشرف أن يحصل عليه من إيراد الوقف[66].

☆ ☆ ☆

ويدل على استخدام هذه المكتبات مكاناً للعلم والتعليم ما جاء في وصف خزانة كتب علي بن يحي بن المنجم الذي بنى خزانة كتب عظيمة في ضيعته، ووقفها على الطلاب، وسماها : خزانة الحكمة، فكان يقصدها الناس من كل بلد، فيقيمون فيها، ويتعلّمون منها صنوف العلم، والكتب مبذولة لهم، والصيانة مشتملة عليهم، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحي، فقدم أبو معشر المنجم من خراسان يريد الحج، وهو إذذاك لا يحسن كبير شيء من النجوم، فوُصفت له الخزانة، فمضى ورآها، وهاله أمرها، فأقام بها، وأضرب عن الحج، وتعلم فيها علم النجوم[67]، وأغرق فيه حتى الحد، وكان ذلك آخر عهده بالحج والدين والإسلام أيضاً[68]... ويدل ذلك على أن دار الكتب هذه قد توفر لها بعض مستلزمات معهد التعليم، فروّادها، كما يبدو، كانوا يقيمون بها مدّة، قد لا تكون قصيرة، ليتمكنوا من مطالعة ما توفر فيها من كتب أو ليتعلموا ما شاؤوا من العلوم، كما فعل أبو معشر حين أقام بها، وتعلم علم النجوم، وكان علمُه به من قبل قليلا[69]..

يقول صاحب الأغاني : إن رجلاً اسمه عبد الحكم بن عمرو الجمحي، أسس في منتصف القرن الأول الهجري مكتبة عامة، اشتملت على الكراسات التي تتناول موضوعات مختلفة، وأدوات ألعاب متعددة، وأن الناس كانوا يأتون إليها للقراءة والتسلية[70].

هكذا ساهمت، دور الكتب في النهوض بالحركة التعليمية عند المسلمين، وهكذا انتشرت مكاتب الوقف في إيجاد عدة مكتبات في أنحاء العالم الإسلامي.

لقد كان في كل جامع كبير مكتبة، لأنه كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على الجامع، ويقال : إن خزانة الكتب بـ«مرو» كانت تحوي كتب يزدجرد، لأنه حملها إليها وتركها.

فقد ذكر ياقوت في معجمه أنه ترك «مرو الشاهجان» أشهر مدن خراسان يومئذ عام 616 هـ، وفيها عشر خزائن للوقف، لم ير في الدنيا مثلها كثرة وجودة، وقد فصل أخبارها وأخبار واقفيها، وذكر أن واحدة منها كان فيها 1200 مجلد، وأنه أخذ علمه منها..

لقد ترنم ياقوت بذكر مكاتب «مرو». يقول ياقوت : «وكانت الخزائن سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن، تكون قيمتها مائتي دينار، فكنت أرتع فيها، وأقتبس من فوائدها، وأنساني حبّها كل بلد،

64 مكرر) التربية الإسلامية في الأندلس ص. 157. خوليان ريبيرا.
65) الخطط للمقريزي ص. 1/458.
66) شذرات الذهب ص. 3/104.
67) تاريخ التربية الإسلامية ص. 156.
68) الإرشاد ص. 5/467. الحضارة الإسلامية، لآدم ميتز ص. 1/325.
69) آدم ميتز، الحضارة الإسلامية ص. 1/245.
70) كتاب الأغاني، ص. 4/253.

وألهاني عن الأهل والولد، [معجم البلدان، ص. 509 - 4/510 عن الحضارة الإسلامية].

ولقد أنشأ البغداديون أيضاً المكتبات على مثال بيت الحكمة، أشهرها مكتبة وقفها أبو نصر سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة في محلة بين السورين في الكرخ في عام 381 هـ، وجعل فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد كلّها بخطوط الأئمة المعتبرة، وكان المؤلفون يقفون عليها نسخاً من مؤلفاتهم، وكان بها مائة نسخة من القرآن بأيدي أحسن النّساخ.

وقد أنشأ الشريف الرضي نقيب العلويين ببغداد دار العلم، كانت موضعاً لدراسة الطلاب وسكناهم في الوقت نفسه، فتح أبوابها لطلبة العلم، وعين لهم جميعاً ما يحتاجون إليه من الكتب، ومن كل شيء، حتى دهن السراج، ولما علم بأن خازن دار العلم كان غائباً حين احتاج أحد الطلبة إلى دهن لسراجه، وليس معه مفتاح لخزانة الدهن، أمر بأن يتخذ للخزانة مفاتيح بعدد الطلبة ليستعمل كل طالب مفتاحه دون حاجة إلى الخازن[70 مكرر].

ويظهر من هذا أن دار علم الشريف الرضي كانت أشبه بالمدرسة حيث يدرس الطلبة ويسكنون، وكانت نفقة الطلاب على صاحب الدار..

كما أنشأ أخوه الشريف المرتضى مدرسة أسماها : «دار العلم» ووقف قرية من قراه تصرف مواردها في قراطيس الطلبة والفقهاء وقد ظهرت إلى جانب دور الكتب مؤسسات علمية تزيد على دور الكتب بالتعليم، أو على الأقل بإجراء الأرزاق على ما يلازمها.

ومن هذا النوع دار العلم التي أنشأها بالموصل أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الفقيه الشافعي (ت 323 هـ ،935)، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفا على كل طالب لعلم، لا يمنع أحد من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب، وكان معسراً أعطاه ورقاً وورقاً، وكانت تفتح في كل يوم، ويجلس فيها إذا عاد من ركوبه، ويجتمع إليه الناس، ويملي عليهم من شعره وشعر غيره..[71]

وقد عمل القاضي ابن حبان (ت 354هـ) في مدينة نيسابور داراً للعلم وخزانة كتب ومساكن للغرباء الذين يطلبون العلم، وأجرى لهم الأرزاق، ولم تكن الكتب تعار خارج الخزانة[72].

☆ ☆ ☆

وقد أنشئت مكتبات الأستانة في أوقات مختلفة، أكثرها ينسب إلى رجال من الخاصة، وقفوا مكتباتهم لمنفعه العامة، وبعضها وقفها السلاطين وأبناؤهم ونساؤهم[73]

ويوخد مما نشره البحاثة السيد «فلوغل غوستاف» (ت 1287 هـ) في ذيل طبعة كشف الظنون[74] بالفرنسية أنه كان في الأستانة اثنان وعشرون مكتبة، مجموع كتبها نحو ثلاثة آلاف مجلد.

فمجموع ما في خزائن الأستانة من الكتب نحو 200000 مجلد في اللغات العربية والفارسية والتركية، أكثرها في العلوم الشرعية الإسلامية والتاريخ واللغة والأدب، وفي مكتبات الأستانة كثير من المخطوطات النادرة ولاسيما في «طوبقبو وكوبرلي، وأيا صوفيا، و«نور عثمانية».

☆ ☆ ☆

وكان في مصر خزائن للكتب في المساجد، وبينها موقوفات كثيرة من المخطوطات الجميلة، ولاسيما القرآن، غير الكتب الفقهية والحديث والأدب والتاريخ من بقايا العصور الماضية، فهذه الكتب كانت تتولى شؤونها المساجد، وهي تابعة لديوان الأوقاف، وظلّت تلك الخزائن على هذه الحال إلى زمن إسماعيل». وأهم كتب المساجد، في مصر، مما وقفه السلاطين وغيرهم من الكتب النفيسة، وكان الإفرنج والأتراك، قد نقلوا كثيراً منها إلى أوروبا

70 مكرر) الشريف الرضي. محمد عبد الغني حسن ص. 18.

71) معجم الأدباء ص. 2/420، الإرشاد لياقوت ج. 420/2؛ الحضارة الإسلامية. ص. 1/329.

72) آدم ميتز ص. 1/329.

73) تاريخ آداب اللغة العربية، لجرجي زيدان ص. 4/97.

74) طبع وانتشر هذا السفر النفيس مراراً منها طبعة في بلدة «ليبزك» بألمانيا الشرقية بين عام 1835 و1858م، و«الندرة»، في سبعة أجزاء باعتناء البحاثة «فلوغل غوستاف».

ومكاتب الأستانة، مع أن الواقفين لما وقفوها اشترطوا أن لا تخرج من المسجد الموقوفة فيه..

وكان في الأزهر خزانة كتب، كما كان في غيره من المساجد، كما أن في الأزهر مكتبات وقفية أخرى غير المكتبة الأزهرية، يقال لها «مكتبات الأروقة» لكل رواق مكتبة يطالع فيها تلاميذ ذلك الرواق ويبلغ مجموعها كلها نحو 20000 مجلد منها نحو 8000 في رواق المغاربة، وفي القاهرة مكتبة وقفية تسمى مكتبة الدردير، فيها نحو 1078 كتاب وسميت بذلك نسبة إلى الشيخ الدردير العدوي المالكي (ت : 1201 هـ) وضع فيها ما كان عنده، ثم انضم إليها ما كان أهداه محبوه، ومقرها في مسجد صاحب الضريح، وهي موقوفة على طلاب العلم..

كما أسس الشيخ عبد الفتاح البنا بالأسكندرية المكتبة العباسية عام (1321 هـ 1903 م)، وذلك أن الحاج علي شتَا من أعيان الأسكندرية كان عنده كتب عرضها للبيع، فأشار عليه الشيخ عبد الفتاح أن يقفها على مكتبة تكون برسم سيدي أبي العباس المرسي...

ولما زار السلطان عبد العزيز مصر عام 1282 هـ 1865 م، وشاهد مساجدها، وآثارها، أشار على إسماعيل (باشا) بإنشاء مكتبة عامة تجمع شتات الكتب المتفرّقة في المساجد والتكايا ليستفيد منها الناس لمطالعتها، فوقعت هذه الإشارة موقعاً جميلاً لدى إسماعيل[75]..

☆ ☆ ☆

وفي سوريا لا يوجد مسجد من مساجدها الكثيرة في إبان التمدن الإسلامي دون أن تكون فيه خزانة موقوفة للدرس أو المطالعة.. وقد ضاعت أكثر خزائن الكتب الموقوفة في سوريا، بتوالي الغزو في أيام التتر، أشهرها مكتبة الجامع الأموي، ذكروا أنه كان فيها نحو 5000 مجلد من المخطوطات سلب منها أحد المتغلبين من الأتراك ملء جولق.. وجاء تيمورلنك، فأجهز عليها، ولم يبق لها أثر، ثم جددها محمود السياف، أحد بني السياف عام 1300 هـ، فجمع فيها كتباً أكثرها مطبوع[76]..

وفي سوريا أيضاً المكتبة الظاهرية التي كانت تضم نحو 3566 مجلد، وقد اعتنى بها مدحت باشا لما جاء إلى سوريا عام 1878 م وألف جمعية من علماء دمشق، سماها : الجمعية الخيرية، لإنشاء المدارس، وترقية المعارف، وكلفها في جملة ذلك بالبحث عن المكتبات المهملة، وجمع ما تيسر جمعه منها في مكان واحد عينه لها قرب التربة العادلية في مكان يعرف بالظاهرية، نسبة إلى ضريح الملك الظاهر، وخصصوا لها قاعة كبيرة، وقد ألف حبيب الزيات كتاب : خزائن الكتب في دمشق وضواحيها، استوفى فيه درسها، وتسمى اليوم هذه المكتبة الظاهرية بالمكتبة الأسدية. نسبة إلى حافظ الأسد...

☆ ☆ ☆

وقد وقف في القدس راغب الخالدي «المكتبة الخالدية» التي كانت تضم نحو 4000 مجلد، وكانت في أصل وضعها كتباً لبيت الخالدي، ثم أضيفت إليها كتب ضيا (باشا) الخالدي، ثم أضيفت إليها كتب روحي (بك) الخالدي[77].

☆ ☆ ☆

ولما ذكر أبو محمد عبد الله التجاني في رحلته أنه كان بخزانة أبي زكريا الحفصي بتونس ثلاثون ألف مجلد، فنقصت إلى أن صارت ستة آلاف مجلد، قال : حكى ذلك إلى الحسن بن معمر الهواري الطرابلسي قاضي باجة، وكان من خواص السلطان المذكور، ومن علماء دولته، وسئل عن السّبب ؟ فقال : المطر وأيدي البشر !!.. وهكذا تنقص الكتب، بالرغم من أن المؤلفين والمؤسسين يعيشون في شظف العيش، ويقترون على أنفسهم حتى يوفرون ما يشترون به من الكتب!... ويحكي التاريخ عن الشيخ سيدي محمد بن ناصر، أنه كان ينام مع أهله على التراب،

---

75) تاريخ اللغة العربية ص. 4/100.

76) تاريخ اللغة العربية ص. 4/120.

77) انظر في وصف نفائس هذه المكتبة مجلة المجمع العلمي العربي مجلد 4، 366 ـ 409، ومجلد 9، 326. وخطط الشام» لكرد علي، مجلد 6، 601.

ويعيش في فقر مدقع، وعيشة متقشفة لأجل اقتناء الكتب وشرائها، فيجعل الحصير لوضع الكتب عليه، وكذلك الشأن في الزاوية العياشية زاوية سيدي حمزة، فإن أصحابها استطاعوا أن يحتفظوا بمجموعة مهمة من محتويات خزانتهم.. إذ أن كثيراً من المكتبات الوقفية تفرّقت وضاعت شذر مذر.

☆ ☆ ☆

وبعد؛ فهل مازالت المكتبة الإسلامية محتفظة بقدسيتها ونفاستها، والاعتناء بذخائرها وأعلاقها التي كانت تنعم به في القديم ؟.

وهل مسها تطور العصر الحديث الذي وصل إلى المكتبات العالمية الأخرى ؟ فأفاقت من غفوتها ؟ !

وهل أصبح علم الببليوغرافيا ضرورة حتمية لأجيالنا القادمة ؟ وما هي الجهود المبذولة لتحسين وتطوير المكتبة العربية، وتسهيل نقل الأعمال الفكرية والعلمية المنشورة، حتى يتسنى نظام إعلامي ببليوغرافي ناجح ؟

وهل ائتمر خبراء المكتبات والمتخصصون في صنع القرار في الوطن الإسلامي للبحث عن التطور التكنولوجي الذي لحق فن تنظيم الببليوغرافية في العصر الحديث ؟

لقد توصل المشاركون في الجلسة الختامية، في ندوة دولية نظمها مؤخراً مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول، التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، في مقره بقصر جيت الواقع ضمن «قصور «يلدز» التاريخية في مدينة استانبول تحت شعار : **نظرة على العقد القادم».**(78) توصلوا إلى عدّة نتائج واقتراحات بهذا الصّدد، أكدوا من خلالها مسؤولية الأمة الإسلامية في الحفاظ على استمرارية التراث الحضاري الإسلامي، وتناقله عبر الأجيال، ضمن خطة مدروسة، كما أكدوا على أهمية إعداد ونشر فهارس موحدة للكتب، وبرامج للتدريب في مجال تقنيات الإعلام، وترجمة كتب الحضارة الإسلامية إلى مختلف اللّغات الإسلامية والاهتمام بالمعلومات وتشجيع أسواق النّشر في إفريقيا وآسيا والشرق الأوسط...

وقد دعا السيد أحمد عيسى مستشار رئيس جامعة القاهرة لشؤون المكتبات والمتاحف، في نطاق الإعلام الببليوغرافي كضرورة حتمية لأجيالنا القادمة، إلى تطوير المكتبات والمتاحف ودور المخطوطات، والوثائق، وذلك لافتقارها لوسائل التكنولوجيا الحديثة، وإلى الفريق المدرب من العاملين لتقديم ببليوغرافيات دقيقة، وكتالوغات شاملة، وقوائم دورية إعلانية عن المطبوعات، وإحصاءات لنماذج النتاج الثقافي، وأدلة للمطبوعات أو للناشرين، والمؤلفين ونظام لتبادل المواد المطبوعة، وتسهيل نقل الأعمال المنشورة، حتى يتسنّى إنشاء نظام إعلامي ببليوغرافي ناجح...

كما دعا الدكتور عبد اللطيف عبد الله بن دهيش، وهو أستاذ في جامعة أم القرى، إلى أهمية إنشاء مكتبة عالمية مركزية تضم ملايين الكتب المتخصصة، في جميع الحضارة الإسلامية، بحيث تساهم كل الدول العربية والإسلامية في جهود إنشائها، وتزويدها بالكتب النادرة، لتضاهي مستوى المكتبات العالمية المشهورة، وتكون زاداً لكل الباحثين في العالم الإسلامي...

وهكذا تركزت أبحاث النّدوة، بالنّظر إلى التّحدي الكبير الذي يواجهه علماء الحضارة الإسلامية، في كيفية مواجهة «العقد القادم»، حول ثلاثة محاور، هي مناهج وبرامج البحث، وأهمية المعطيات والمعلومات والموارد اللازمة والحاجة إلى الطاقة البشرية..

ومن بين الذين شاركوا في أعمال هذه النّدوة الدولية، الدكتور إحسان عباس أستاذ بعمادة البحث العلمي بالجامعة الأردنية، والدكتور خليل جين رئيس جامعة سلجوق بقرنية ـ تركيا، والدكتور ضياء الدين ساردار مؤلف عدة كتب حول الحضارة الإسلامية. أنجلترا، ـ والدكتور عبد

---

78) كان الهدف من هذا المؤتمر، إتاحة الفرصة، أمام المتخصصين، وصانعي القرار في الدول بمنظمة المؤتمر الإسلامي، والمخططين والإداريين والعلماء والمشتغلين بالدراسات والأبحاث لمناقشة أساليب تطوير التعاون والتنسيق من حيث التخطيط والتنفيذ للبرامج والنشاطات وصولاً إلى تكوين نظرة شاملة، كفيلة بالتعامل مع حجم التحديات المحتملة في «العقد القادم»...

الرحيم أبو حسين أستاذ بالجامعة الأمريكية في بيروت - لبنان، والدكتور محمد أيوب، أستاذ بمركز الدراسات الدينية، مدرسة الدراسات العليا جامعة تورنتو، كندا - والدكتور مصطفى الشكعة، عميد كلية الآداب، جامعة القاهرة، والدكتور أنكو عبد العزيز نائب رئيس جامعة الملايو سابقاً - ماليزيا، والدكتور عبد الوهاب بوحديبة مدير مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية بتونس، والدكتور عبد العزيز الدوري عضو في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية «مؤسسة آل البيت» عمان، وأستاذ بكلية الآداب في الجامعة الأردنية، والدكتور عبد الجليل التميمي مدير مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، تونس، والدكتور عدنان البخيت عميد البحث العلمي بالجامعة الأردنية، الأردن.

☆ ☆ ☆

وإننا لندهش، الدهش الكبير للاهتمام الذي يوليه الأجانب، اليوم، لقيمة الكتاب النادر، أو المخطوط[79].. فهم يقدمون لاقتناء مخطوط أغلى الأثمان، ويستقطبون مواقع الكتب النادرة أو المخطوطة.. فقد توقع المسؤولون في «بيت - زادات سوذبي» بلندن، أن يبلغ سعر النسخة الأصلية المكتوبة بخط يد «فرانز كافكا Franz Kafka»[80] لروايته المشهورة : «المحاكمة»، أو «القضية» Le Procès، حسب الترجمة العربية، مثلا رقماً قياسياً هو مليون جنيه استرليني (1.8 مليون دولار) عند بيعها في المزاد بلندن أخيراً، لتكون بذلك أغلى وثيقة أدبية بيعت على الإطلاق.. وهذا الرقم يشكل ظاهرة متفردة في «سوق المخطوطات» الذي بلغ سعر الرقم القياسي فيه : 325,000 دولار عام 1985، وكان من نصيب مخطوطة ضمت مسودات لأشهر قصائد الشاعر «ييتس»[81] William Butler Yeats..

يملك مخطوطة «المحاكمة» رجل رفض المسؤولون في «سوذبي» الإفصاح عن اسمه، فيما أوضحوا، أنها مكتوبة بكراسة مذكرات، وتتضمن إعادات وحذوف، وهي النسخة الأصلية الوحيدة للرواية، ومعروف أن الرواية من نصوص القرن العشرين الرئيسية أدبياً وثقافياً وتاريخياً، وأنها مثلت فتحاً كبيراً في الفن الروائي، بذاتها، كأعمق وأوسع رؤيا أدبية للشرط السياسي لإنسان القرن العشرين، وفي عمومها الذي تمثل في تيار احتل موقعاً مهماً في المدرسة الأدبية الحديثة، وقد عرف هذا التيار باسم «الكافكوية».

وزيادة في الإيضاح والإفادة، تحكي «المحاكمة» التي كتبها «كافكا» عام 1914، وكان في سن الـ 31، وفي خضم ظروف فشل خطبته من حبه الأعظم والوحيد (فيليس بوير Felice Bauer)، قصة جوزيف ك. الذي قبض عليه في ظروف غامضة دون اتّهام محدد، وأعدم بعد عام واحد؛ وكان «كافكا» من الأقلية في «تشيكوسلوفاكيا» عانى من علاقته بوالده الطاغية الذي عامله بتعنّت عذبه طوال حياته، حتى إنه كتب ذات مرّة في مذكراته يقول : «كل ما كتبته كان عنك يا أبي».

وهكذا تطالعنا الصحف ووكالات الأنباء بأنباء جديدة عن بيع كتاب أو لوحة، أو عمل فني... وبقية من بقايا المشاهير، سواء من عاش منهم منذ عدة قرون، أو حتى الأحياء، وبمئات الآلاف من الجنيهات في أكثر الحالات معقولية، أو بعدة ملايين منها، وفي تلك الحالات التي تفوق الدهشة، ولا تترك في أذهان العاديين من الأفراد

---

79) هناك عدة مكتبات في العالم تزخر بعدة مجلدات، وتعد مكتبة «لينين» بالاتحاد السوفياتي على رأس المكتبات في العالم من حيث عدد المجلدات، فهذه المكتبة أنشئت عام 1924، ويبلغ عدد مجلداتها 14 مليون مجلد.. ويليها في عدد الكتب مكتبة الكونجريس، إذ تحتوي على 9 ملايين كتاب، وقد أنشئت عام 1800 م. أما مكتبة باريس الأهلية التي أنشئت في القرن السادس عشر، فتعد ثالث مكتبة في العالم من حيث عدد الكتب، إذ تحتوي على 6 ملايين من الكتب المخطوطة والمطبوعة... بينما نجد أن مكتبة نيويورك العامة تحتوي 5 ملايين كتاب.. وتعد مكتبة «أبروزو» بإيطاليا التي أنشئت عام 1609، والتي تحتوي على 600 ألف كتاب مطبوع و25 ألف مخطوط، و2000 كتاب نادر... ثم مكتبة الأزهر الشريف التي أنشئت عام 1797 م التي كانت تحتوي على 8 آلاف مجلد، ثم أصبحت الآن تحتوي على 100 مجلد، منها 25 ألف مخطوط في الحديث والتفسير والفقه وعلوم الدين ، فإنها تأتي في مرحلة تالية لتلك المكتبات الكبرى من حيث عدد الكتب.

80) ولد الكاتب اليهودي «فرانز كافكا» «ببراغ» عاصمة «تشيكسلوفاكيا» في 3 يوليوز 1883، ومات 3 يونيو 1924 بذات الرئة..

81) كاتب إيرلاندي، ولد بقرية قرب «دوبلان» بإرلاندة. (1885 - 1933) كاتب مقالات وقصائد نال جائزة نوبل عام 1923.

سوى علامات الاستفهام، ومزيد من مشاعر الغرابة. ومن أطرف ما بيع في مزادات قائمة سُوذبي الشهيرة، في وسط لندن عام 1985 إحدى نسخ الصحيفة المسائية اللندنية «الايفننج ستاندارد» لأحد هواة جمع النسخ التذكارية بمبلغ 110 ألف جنيه (سعرها الأصلي 20 سنتاً) ولأن الصفحة الأولى احتلها مانشيت من ثلاث كلمات : «مقتل جون لينون» نجم الغناء الشعبي الإنجليزي.

☆ ☆ ☆

ومما يثلج الصدر ويبشر بنجاح المكتبة الإسلامية، أنه أقيم في الشهور الأخيرة بمدينة الدار البيضاء المعرض الدولي الثاني للنشر والكتاب الذي عرف إقبالاً كبيراً من طرف جمهور المثقفين والطلبة ترجم الحاجة الملحة لمثل هذه التظاهرة الثقافية، شارك في هذا المعرض نحو 325 دار للنشر تمثل ستة وعشرين دولة عربية وأسيوية، وداراً أمريكية للنشر، وقد تميز هذا المعرض بصفة خاصّة بمشاركة مصر بثماني دور للنشر عرضت حوالي 12 ألف عنوان، ويقدر عدد الكتب بحوالي 500 ألف كتاب، بلغت شحنتها نحو 20 طناً.. ومن أهم المؤلفات التي استقطبت اهتمام الباحثين الجامعيين كتاب «المصنف» لابن جني، والكتاب النحوي : «المسائل البصريات لأبي علي الفارسي»، وبجانب مصر تميزت مشاركة العراق بعرض مؤلفات لغوية وتراجم لها قيمة كبيرة...

بل إنه احتضنت العاصمة المصرية في الفترة من 24 نوفمبر إلى خامس دجنبر من العام الماضي «معرض القاهرة الدولي الخامس» لكتب الأطفال الذي شاركت فيه أكثر من ثلاثين دولة. كما شارك في هذا المعرض نحو 450 ناشر، عرضوا حوالي مليونين ونصف مليون كتاب للأطفال، بالإضافة إلى مجموعة من لعب ورسوم الأطفال، وأجهزة الكمبيوتر، ونماذج لبعض الآثار الإسلامية.

لقد سجل الكتاب الإسلامي أكبر نسبة مبيعات في معرض القاهرة الدولي للكتاب حيث وصلت النسبة في معظم دور النشر إلى 90 ٪ من مبيعات الكتب. واحتلت كتب التراث الإسلامي ومؤلفات الشيخ محمد متولي الشعراوي قمة المبيعات يليها كتب الدكتور يوسف القرضاوي والشيخ محمد الغزالي والمفكر الإسلامي خالد محمد خالد.

ويقول د. سمير رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب : عن سر الإقبال المتزايد على الكتاب الإسلامي :

«من الملاحظ في السنوات الأخيرة حدوث ازدياد كبير في إقبال الجمهور على شراء الكتب الاسلامية خاصة كتب التراث الاسلامي «وكتب تفسير القرآن الكريم» ولذلك رأت هيئة الكتاب المصرية أنه لابد أن توفر هذه النوعية من الكتب للقارئ المصري والعربي وبأسعار معقولة ومن أهم إصدارات الهيئة في هذا المجال كتاب تفسير القرطبي الذي يعد حجة في تفسير القرآن الكريم وهو عبارة عن عشرين جزءا، وهذا الكتاب محقق عن النسخة الأصلية المحفوظة في دار الكتب.

وفي إطار توفير الكتاب الإسلامي للشباب وبعيداً عن الكتب التي يحتاجها المتخصصون وكبار العلماء فقد أصدرت الهيئة سلسلة شهرية جديدة تسمى سلسلة قضايا إسلامية يشارك في تحريرها كبار العلماء والمفكرين، وتعالج مختلف القضايا الإسلامية التي تهم الشباب وبرزت في السنوات الأخيرة. ومن الملاحظ بالفعل أن أكثر الفئات إقبالا على الكتب الدينية طلبة الجامعات والشباب.

ويقول الناشر إبراهيم المعلم صاحب دار الشروق : الكتب الدينية حتى الآن هي الأكثر توزيعاً وهي أنواع منها المتعلق بتفسير وشرح الأحاديث النبوية ومنها كتب التراث والكتب الإسلامية الحديثة وهناك تنافس منذ عدة سنوات بين كتب التراث وبين الكتب الإسلامية الحديثة.

ومن الكتب الإسلامية الجديدة في معرض الكتاب هذا العام كتاب «تزيف الوعي» لفهمي هويدي وكتاب «حوار لا مواجهة» للدكتور أحمد كمال أبو المجد ومجموعة المؤلفات الكبيرة للشيخ محمد الغزالي وكتاب «مشكلات في طريق الصحوة الإسلامية» للمؤلف نفسه، وهناك مجموعة من كتب الدكتور محمد عمارة منها مسلمون ثوار والإسلام والثورة والإسلام والعروبة والمعتزلة والفكر الإسلامي وكتاب رؤيا إسلامية جديدة للدكتور زكي نجيب محمود.

وعن أكثر نوعيات الكتب مبيعاً يقول : القرآن الكريم هو الكتاب الأول بلا منازع، القرآن بتفسيره وبعلومه وهناك كتاب في ظلال القرآن للمرحوم سيد قطب الذي يعتبر أكبر تفسير عصري للقرآن، وأظن أنه بعد القرآن نفسه أكثر كتاب بيع في القرن العشرين في مصر وكل العالم العربي والعالم الإسلامي.. وبصفة عامة الشباب هم الأكثر شراء لجميع أنواع الكتب الآن.

أما أحمد رائف مدير عام الزهراء للإعلام العربي فيقول : بالنسبة لمعرض الكتاب هذا العام فأعلى المبيعات الكتاب الإسلامي ثم الكتاب السياسي وكتب التراث والملاحظ أن الكتاب الأكثر رواجاً والأكثر مبيعاً هو الكتاب الإسلامي المرتبط بالجانب السياسي أو الجانب الخاص بالدراما الإسلامية عبر التاريخ يأتي بعد ذلك الكتب الفكرية المتعددة التي تناقش شتى الأفكار الإسلامية مثل الكتب الخاصة بدور الصهيونية في القضاء على الشخصية الإسلامية ووسائل النهوض من الكبوة أو الانحطاط المعاصر للمسلمين والكتب التي تتناول الإسلام من زاوية حضارية يتلوها كتب التراث.

ومن الإصدارات الجديدة في المعرض كتاب «أطلس تاريخ الإسلام» من تأليف الدكتور حسين مؤنس وعمل في تأليفه مدة تزيد على عشرين عاماً وهو مجلد واحد كبير في 528 صفحة به 220 خريطة كبيرة ورغم ارتفاع سعره إلا أن الإقبال عليه تزايد عما كان متوقعاً.

وهناك مخطوطات عربية تطبع لأول مرة مثل «عجائب علوم القرآن» لابن جوزي وكتاب «الخلافة» للشيخ محمد رشيد رضا وهو رسالة الدكتوراه الخاصة بالدكتور السنهوري وترجم إلى العربية من الفرنسية بواسطة ابنته الدكتور نادية السنهوري وزوجها الدكتور توفيق الشاوي.

ويشير عبد الله حجاج مدير مكتبة دار التراث الإسلامي إلى أن كتب التراث الإسلامي جاءت في مقدمة مبيعات المعرض هذا العام.. نظراً لتعطش مختلف القطاعات لمعرفة أمور دينهم من خلال الاستفادة من كتب قدامى العلماء الذين أفنوا حياتهم في سبيل العلم وأناروا الطريق أمام المسلمين وكانوا خير دعاة.

وقد لاقت كتب أمهات التفاسير والحديث والفقه قبولا، خاصة أنه قد تم إعادة نشرها وطبعها في طبعات جديدة توائم التطور الطباعي كشرح الأحاديث القدسية الذي يطبع لأول مرة، وكتب «قاعدة في المجد» للإمام ابن تيمية، و «بستان العارفين» للإمام النووي و «عذاب القبر» للبيهقي، و «التوكل على الله» لابن أبي الدنيا.

وأضاف عبد الله الحجاج : أن كتب الشيخ الشعراوي تحتل المرتبة الأولى من كتب المفكرين الإسلاميين المعاصرين ومن أحدث الإصدارات له : «الفتاوي الكبرى».. يتلوها مؤلفات المفكر الإسلامي الدكتور يوسف القرضاوي حيث صدر له لأول مرة مؤلف جديد تحت عنوان «هموم المسلم المعاصر في فكر يوسف القرضاوي».

وتفسير ظاهرة ارتفاع نسبة مبيعات الكتاب الإسلامي أن سببها الطبيعي هو هذه الصحوة الإسلامية التي يعيشها العالم الإسلامي.

أما عن الكتب الأكثر توزيعاً فهي في الغالب كتب التراث والكتب الفكرية التي تفسر كتب التراث وتوضحها.. ويعتبر كتاب «في ظلال القرآن» للسيد قطب أكثر الكتب توزيعاً، وكذلك كتاب «معالم في الطريق» وأيضا كتب الشيخ محمد متولي الشعراوي.. والدكتور القرضاوي ومن أهم الإصدارات الجديدة في المعرض هذا العام.. كتاب أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ وكتاب «محمد ﷺ في الشعر الحديث».

ويقول أحمد أنس عبد المجيد صاحب مكتبة الثقافة الدينية أن الكتاب الإسلامي هو أكثر الكتب مبيعاً في المعارض على مستوى الدول العربية كلها وأكثر هذه الكتب مبيعاً تفسير ابن كثير، وتفسير الجلالين، والمصحف المفسر، والقرطبي والفخر الرازي.

وعن الجديد في المعرض يقول : هناك عدة كتب وجميعها إصدارات حديثة منها في صحة أصول مذهب أهل المدينة لابن تيمية، وكتاب «إغاثة اللهفان في حكم طلاق



مخطوطة ثمنها مليون جنيه

بيعت في لندن رواية للكاتب الشهير كافكا مكتوبة بخط يده بمليون جنيه استرليني

دفعها أحد الناشرين الألمان وفي الصورة تبدو الرواية المباعة

الغضبان» لابن القيم وكتاب «مفتاح الجنة بالاحتجاج بالسنة» وكتاب «في دلالة التوحيد للقاسمي، وعصمة الأنبياء لفخر الرازي.

ويرى سعد زغلول مدير دار نشر المنار الإسلامية.. أن كتب التفاسير والشرح هي أكثر الكتب الإسلامية توزيعاً هذه الأيام ويبرر ذلك بقوله أن هناك نسبة كبيرة من الناس تشعر الآن في حاجة كبيرة للعودة إلى الله.. ولذلك تحاول أن تلجأ إلى كتب التراث لتعرف الصحيح من الخطأ.

ويرى أن هناك بعض الكتب الإسلامية الكبيرة لا تأخذ حظها من التوزيع، مثال ذلك كتاب «منهاج الصالحين» وهو كتاب يقسم كل حياتنا إلى أبواب وفصول ويتناول فيه كل جزء في حياتنا وما يتعلّق بها من آيات قرآنية وأحاديث نبوية، وهو يعتبر من أقدم الكتب.

وعن أحدث الكتب الدينية هذا العام يقول.. كتاب «الغضب في القرآن والسّنة» ، وكتاب «زراعة الأعضاء وحكم الشرع فيها»، أما عن أكثر الكتب توزيعاً فهو كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق الذي وصل عدد النسخ المطبوعة منه حتى الآن خمسة ملايين نسخة، وأيضاً كتاب الشيخ الشعراوي.

☆ ☆ ☆

وتطور المعرض سنة بعد سنة منذ 20 عاماً حيث أقيم «المعرض الأول في 1938 كتقليد جديد بمناسبة العيد الألفي لمدينة القاهرة» كما صرحت رئيسة مجلس إدارة المؤسسة المصرية للتأليف والنشر سهير القلماوي.

وأصبح يضم 1700 دار مصرية عربية وعالمية، وكذلك انعكس في تحويل هذا المعرض من مكان يعرض فيه الكتاب إلى ملتقى ثقافي واسع ومتعدد. فإضافة إلى الأعوام السابقة دخلت إلى المعرض هذا العام كما يقول سمير سرحان «عروض مسرحية وسينمائية وموسيقية وتكثيف اللقاءات والندوات الفكرية التي تقام في جو ديمقراطي وحر لأننا ـ كما يضيف سرحان ـ نحتاج أكثر من أي وقت مضى إلى التعدد وإلى سماع الآخر إلى الديمقراطية».

☆ ☆ ☆

وما إن تتجاوز عتبة إحدى البوابات الاثنتا عشرة أرض المعارض بمدينة نصر بالقاهرة حيث يقام المعرض الدولي العشرون للكتاب حتى تستقبلك الأصوات والأصدقاء والموسيقى والغناء التي تبث بمكبرات فتختلط في مزيج غريب لا تسمعه إلا في الأعياد أو في الاحتفالات. وإذ تتقدم في أرض المعارض المزروعة بالأشجار والمفصلة حدائق تكتشف أنك محاط بألوف الرواد يتدفقون من جميع البوابات وفي كل الاتجاهات ومن كل الممرات زمرا زمرا وفرادى يتأبطون الكتب والمجلدت أو يحملونها في أكياس أو يقلبونها أو يجلسون على المقاعد ويقرؤون أو يقفون متفحصين صفحة أو جملة أو عنوان كتاب أو غلافا مزركشاً.

هذا الاختلاط يتم في حيوية تتصاعد أكثر فأكثر عندما تدخل إحدى القاعات الاثنتا عشرة المخصصة لعرض الكتب وهناك تختزل مسافة هذا الخليط وتتحول الأصوات والأجسام والكتب والرفوف إلى ما يشبه الكتلة الواحدة المزركشة الملونة المتموجة المهمهمة.

هكذا يشعر الزائر عندما يجد نفسه مزروعاً في إحدى سرايات معرض القاهرة العشرين الدولي للكتاب الذي بدأ في الواحد والعشرين من يناير 1988 إلى الثامن من فبراير، وتتقدم وتسأل، كم زائر حتى اليوم الثاني عشر من بدء المعرض فيأتيك الجواب «ستة ملايين زائر حتى الآن ونتوقع ارتفاع العدد إلى ثمانية ملايين مع انتهاء المعرض». ويعلق أحد المخرجين السينمائين المعروفين الذي لم يشأ أن يذكر اسمه «جمهور الكتاب أكبر من جمهور السينما».

20 مليون كتاب

وتكمل السؤال و«البيع» فيجيبك رئيس هيئة الكتاب د. سمير سرحان» عشرون مليون نسخة حتى الآن ونتوقع أن يصل إلى ثلاثين أو أكثر بعد عدّة أيام».

ويعلّق المخرج السينمائي مرة أخرى «تفوق هذه الإيرادات إيرادات عشرة أفلام شعبية» باللمفارقة. نتكلم بالأرقام كأننا نتكلم عن سوق تجارية «لا،... إنه معرض الكتاب وليس سوقاً تجارية» يضيف سمير سرحان. «بل إنه

تظاهرة ثقافية عربية وعالمية ضخمة» كما يقول وزير الثقافة المصري فاروق حسني في كلمة الافتتاح.

السرايات الاثنتا عشرة التي تحضن الكتب والناس معاً مقسمة أحياناً حسب عناوينها الأدبية والعلمية أو التراثية والفكرية والفنية وأحياناً مسترسلة في خليطها حيث تتداخل الأنواع والأجناس واللغات والأسماء والعناوين. ترصد هذه الأقسام لتحاول أن تبين أي الكتب «الأكثر مبيعاً» وتتبع تجمعات الوافدين وتلاحظ أن الكتب التراثية ليست مركزاً ملفتاً للتجمع وتلتفت إلى أقسام كتب الأطفال فإذا بها أكثر ألفة والتصاقاً بالزوار.

☆ ☆ ☆

وفي عالم الغرب، نجد أن للكتاب الإسلامي حضورا مميزا، وإقبالا متزايدا، ولا سيما من طائفة رجال الاستشراق، والمسلمين المقيمين بأوروبا، وقد افتتح الرئيس النمساوي الدكتور كورت فالدهايم معرض الكتاب الإسلامي في «فيينا» الذي نظم لأول مرة من قبل الجاليات الإسلامية في النمسا، وقد حضر مراسم الاحتفال بعض المسؤولين النمساويين وسفراء الدول الإسلامية، وأعضاء الجالية الإسلامية في النمسا... وقد ألقى رئيس مجلس الأمناء في المركز الإسلامي السفير السعودي في النمسا السيد عيسى النويصر كلمة موجزة نيابة عن سفراء الدول الإسلامية أعرب فيها عن تقدير الجميع لحضور السيد كورت فالدهايم.

☆ ☆ ☆

ولقد أقام «ناظر الوقف» في المملكة المغربية في الأيام الأخيرة المعرض الخامس عشر للكتب الإسلامية التي تطبعها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الذي أقيم بمدينة وجدة، وهو معرض يقام في مختلف المدن المغربية وخارجها، تقدم فيه وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية إلى العلماء والطلبة ما تطبعه من كتب ومجلات ودوريات، فتوزع البعض، وتبيع الباقي بأثمان مناسبة، كل ذلك لتقريب الكتاب من عامة المواطنين، وتلبية للروح العلمية التي تعمل الوزارة، في غير ما مناسبة لإشاعتها بين الناس.

الرباط : محمد بنعبد الله

عثرات الأقلام والألسنة

للأستاذ محمد المنتصر الريسوني

4 ـ أشر على...

هذا أسلوب يستعمل غالبا في الإدارات الحكومية في المغرب والمشرق فيقال (أشَّر المسئول على طلب فلان بالموافقة) ويستعمل أيضا بصورة أوضح في دوائر السفارات، وذلك عندما يحتاج المرء إلى إذن للانتقال من بلد إلى بلد آخر أجنبي، فيقال له : (لابد من أن توشر على الجواز) أولا (لابد من الحصول على التأشيرة) من السفارة الفلانية.

وقد ورد في الجواز المغربي في أعلى الصفحة منه جهة اليمين كلمة (التأشيرات)، وجهة اليسار اللفظ الفرنسي (visas) وهو نفسه الذي استعمله قاموس (المنهل) إلا أنه أضاف إلى ذلك فعلا آخر هو (وسم)[1] ولاشك أن هذا أجود من سابقه كما سيأتي.

وورد فيه أيضا في الصفحة الأخيرة تحت عنوان (نصائح هامة) «يجب على حامل الجواز قبل أن يسافر إلى قطر أجنبي أن يتأكد من الالتزامات التي يخولها له جوازه للتمكن من الدخول إلى الأقطار التي يقصدها أو الأقطار التي يمر بها، وأن يحرز أيضا على التأشيرات الضرورية من طرف القنصلية أو القنصليات الأجنبية المختصة، ومن مصلحته أيضا أن يستخبر عن مدة الإقامة التي يسمح له بها الجواز أو التأشير، وعند الاقتضاء عن الشروط المطلوبة للقيام بعمل مهني».

و(أشر) بتشديد الشين أو تخفيفها تعني في اللغة نشر الخشبة، وما ينشر به يدعى المنشار بالهمز[2] وتعني كذلك تحديد المرأة أسنانها وتحزيزها إياها، وهذا المعنى يختلف عن المعنى المصطلح عليه إداريا، وليس هناك رابط يجمع بين الحقيقة اللغوية وبين المضمون الاصطلاحي الذي أصبحت تدل عليه إلا إذا تكلفنا ذلك تكلفا، وحملنا اللغة مالا يمكن تحمله كما سنعرف بعد قليل.

ويحاول الأستاذ محمد على النجار في كتابه (لغويات) أن يقدم لنا تخريجا لهذا الاستعمال نظرا لاشتهاره بقوله : «وفي هذا البحث يعن لي وجه آخر، وهو أن يكون التأشير غير محرف عن الإشارة، بل أصله التأشير الذي هو تحديد الشيء وشحذه وإرهافه، يقال أشرت المرأة أسنانها : حددتها ورققتها، ولما كان الرئيس إذ يوقع

---

1) ص 1083، 1084 ـ دار الآداب ـ ط 5 دار العلم للملايين 1979.

2) وهو من أسماء الآلة التي تصاغ من مصدر الثلاثي المتعدي للدلالة على ما وقع الفعل بواسطته وهو مشتق وجامد، فالمشتق له أوزان ثلاثة : مفعل مثل مبرد، ومفعال مثل مفتاح، ومفعلة مثل ملعقة. وجامد لا ضابط له لأنه سماعي : مثل قلم وسكين، وإلى القياسي يشير ابن مالك في (لامية الأفعال) بقوله :

كمفعل وكمفعال ومفعلة ... من الثلاثي صغ اسم ما به عملا

الطلب بما يراه يشحذه ويجعله ماضيا نافذا غير منثلم لم يكن من البائن عن الصواب أن يستعمل في هذا الموطن مادة التأشير»[3].

ويحاول الأستاذ النجار أيضا أن يعضد تخريجه ذاك بقوله : «والتوقيع في بعض معانيه يرد لشحذ السلاح وإرهافه يقال : سيف موقع : حدد بالميقعة».

إلى أن يقول : «فترى أن التأشير والتوقيع يرجعان إلى معنيين متماثلين»[4].

فهذه المحاولة من الأستاذ النجار محاولة متكلفة، لأنها لم تدرس دراسة علمية العلاقة الرابطة بين الحقيقة اللغوية والحقيقة الاصطلاحية الجديدة، أو قل لم يدرس دراسة علمية تحول اللفظ من الحقيقة إلى المجاز كما في أسلوب علماء البيان[5]، لكون التأشير يقتضي التشذيب، والشحذ في الخشب أو في الأسنان حتى ولو كان عن طريق الصورة التجريدية لأن النقل من المحسوس إلى التجريد معروف في اللغة العربية، ذلك أن الخشب في أشد الحاجة إلى التأشير وهو التشذيب والطلب ليس في حاجة إلى التشذيب الذي يمكن أن نسميه تقليب النظر على سبيل المجاز، ما دام يتوافر على الشروط المطلوبة، فالتأشير، إذا، يكون في خشب مفتقر إلى التشذيب ليكون صالحا للاستعمال على عكس الطلب إذا كان متوافرا على الشروط كان صالحا بنفسه ولا يكون مفتقرا إلا إلى الإذن لا إلى إعمال النظر لإزالة ما يمكن إزالته وإلغاء ما يمكن إلغاؤه مما يجعل العلاقة متينة وحميمة بين المعنى الأصلي والمعنى الجديد.

فالعلاقة ـ كما تبين ـ بين التأشير وتقليب النظر علاقة ضعيفة، وما دام الأمر كذلك فيجب الابتعاد عن مثل هذا، ولنبحث عما له علاقة متينة بين الحقيقة والمجاز كما هو مقرر لدى علماء اللغة والبيان، وليس من المنطق الاسترسال في مثل هذا التخبط الذي يؤدي إلى الفوضى في اللغة.

وأما التوقيع هو كذلك يماثل التأشير ـ كما جاء في تخريج الأستاذ ـ فهو غير مسلم، لأن للتوقيع معاني أخرى ـ كما قال الأستاذ نفسه ـ ومن معانيه غير ما صرح به الأستاذ أنه يعني السحج في ظهر الدابة[6] ولا شك أن السحج يحدث أثرا ظاهرا في ظهر الدابة كما يحدث التأشير أثره في الطلب، فيصبح له نفوذ، ومع ذلك فالتكلف باد في الربط بين المعنيين إلا أنه أقل أضرارا من سابقه، ومن يدري ـ بجانب هذا ـ أن من استعمل التوقيع في هذا المعنى نظر إلى غير معنى التأشير ؟

ويجدر أن نشير إلى أن التوقيع نفسه مولد إذا استعمل بمعنى كتابة الاسم أسفل الكتاب إمضاء له وإقرارا به، كما أشار إلى ذلك المعجم الوسيط[7] الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة برمز (مو) وهو بذلك يعني أنه لم يقره ولو أقره لرمز إلى الموافقة برمز (مج) ويقصد مجمع اللغة، على أن المعاجم العربية ومنها أساس البلاغة مقاصد حاجته للزمخشري نصت على استعمال التوقيع في مجال الكتابة في الكتاب فيقال (وقع) فلان الكتاب : إذا كتب بين سطوره وحذف الفضول، فمن المجاز ـ كما في الأساس «وقع في كتابه توقيعا»[8].

ومهما يكن من أمر فالتوقيع له مستند إذا ما وازناه بلفظ التأشير، والغريب حقا ألا يوافق المجمع على ذلك.

وعرفنا سابقا أن من معاني التأشير شحذ المرأة أسنانها وتحزيزها إياها للزينة وإلى ذلك يشير ابن منظور في قوله : «والأشر حدة ورقة في أطراف الأسنان، ومنه قيل : ثغر مؤشر، وإنما يكون ذلك في أسنان الأحداث تفعله

---

3) ص 39 ـ دار الكتاب العربي ـ مصر (بلا تاريخ).
4) ص 40.
5) انظر مثلا ابن الأثير (نصر الله) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ج 1 ص 57 وما بعدها، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ طبعة الحلبي 1358 ـ 1939.
6) السحج أن يصيب الشيء الشيء فيسحجه أي يقشر منه شيئا قليلا.
انظر ابن منظور (محمد) لسان العرب المجلد 2 ص 105 إعداد نديم مرعشلي ـ دار لسان العرب ـ بيروت.
7) ص 1062 ج 2 أخرجه إبراهيم مصطفى وآخرون ـ المكتبة العلمية ـ طهران (بلا تاريخ).
8) ص 686 ـ دار صادر ـ بيروت.

المرأة الكبيرة تتشبه بأولئك»[9] فهل يمكن ربط هذا بما يدل عليه المصطلح الجديد ؟

الجواب، لا، لا مناسبة بين الدلالة القديمة التي تعني تحزيز الأسنان للتزيين والدلالة الحديثة إلا إذا تمحلنا ذلك وقلنا إن المسؤول يشحذ الطلب حتى يصير جميلا مقبولا والحق أن أية محاولة في هذا ستكون على حساب اللغة ليس غير.

ولو سلمنا جدلا بصواب هذا التخريج فإنه يبقى هناك أمر يجب التنبيه عليه هو أن (أشر) متعد بنفسه، ولا يفتقر في التعدية إلى حرف الجر (على) ـ كما هو مستعمل ـ والواجب أن يقال (أشر طلب فلان) إلا إذا جعلناه بمعنى (وافق) على سبيل التضمين النحوي الذي عرفه العلماء، ومن بينهم الأشموني في شرحه على الألفية بقوله : «إشراب اللفظ معنى آخر وإعطاؤه حكمة لتصير الكلمة تؤدى مؤدى كلمتين»[10].

وبالرغم من ذلك فإنه لا يصح التوسع في باب التضمين كي لا نفتح بابا للفوضى في اللغة، فيقول من شاء ما شاء، وقد درس مجمع اللغة العربية بالقاهرة هذا الموضوع وأصدر قرارا فيه تضمن اعتباره قياسيا، ولكن بشروط ثلاثة تسد الدرب على من يريد أن يتصرف في اللغة على هواه، وفيما يلي هذه الشروط :

1 ـ تحقيق المناسبة بين الفعلين.

2 ـ وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر ويؤمن معه اللبس.

3 ـ ملاءمة التضمين للذوق العربي.

ويوصي المجمع بأن لا يلجأ إلى التضمين إلا لغرض بلاغي[11].

تأسيسا على ذلك فإنه لا يمكن استعمال (وافق) مكان (أشر)، خاصة : أن (أشر) نفسها غير مسلمة في الاستعمال.

وأحب قبل ختم الحديث عن مادة (أشر) ألا يفوتني، بالمناسبة أمر يجدر ذكره في شأن تخريج الأستاذ النجار هو أن ما ساقه الأستاذ المذكور في تخريجه إنما هو من كيس الشيخ محمد عبده ورد في تعليق له على كتاب (البصائر) لعمر بن سهلان الساوي (450 هـ)، والغريب حقا أن الأستاذ النجار استشهد بكلام عبده غير أنه نقله مبتورا، لذا سأنقل كلام الشيخ محمد عبده كاملا، ثم نبين الحذف الذي ارتكبه أثناء الاستشهاد تحرجا من ذكرما يخالف وجهة نظره وتحرجا من التصريح بسبق الشيخ (عبده) إلى الإشارة لما يدعو إليه في أمر (التأشير).

قال الشيخ عبده «المشهور في كلمة تأشير على ألسنة العامة أن معناها وضع الإشارة، والإشارة عندهم الرأي في اللفظ الموجز، فيقال أشر على الورق : أي أبدى رأيه بلفظ قصير يشبه الإشارة، وكل هذه الضروب من الاستعمال في هذه المادة عامية لا يعرف لها أصل في اللغة، سوى أنه تحريف من أشار إلى أشر فلا يصح، حمل كلام المصنف على استعمال العامة بأن يفسر تأشير الإذن بوضع إشارة الإذن فإن علو عبارته يبعد ذلك، والتأشير في اللغة تحديد أطراف الأسنان، ويستعمل اسما لشوك ساقي الجرادة والتأشير والمئشار عقدة في ذنبها كالمخلبين وهما الأشرتان، والتأشيرة ما تعض به الجرادة، وكل ما للاسم من المعاني يعطي ما يقوى معنى التحديد والتشحيذ، فتأشير الإذن الصادر هو تحديد العزم وتشحيذ الهمة حتى تقطع الرأى في العمل»[12].

---

9) المجلد 1 ص 66، الزينة التي وردت في كلام ابن منظور خاصة التي تغير خلق الله تعالى كالتأشير والوصل قد حرمها الشرع الحكيم لأنها غلو إلى حد تغيير خلق الله وتزييف حقيقة، من ذلك ما أخرجه النسائي والسياق له وإسناده صحيح على شرط مسلم «أن امرأة جاءت إلى ابن مسعود فقالت : أنبئت أنك تنهى عن الواصلة ؟ قال. نعم فقالت أشيء تجده في كتاب الله أم سمعته عن رسول الله ﷺ فقال : أجده في كتاب الله وعن رسول الله فقالت : والله لقد تصفحت ما بين دفتي المصحف فما وجدت فيه الذي تقول قال : فهل وجدت فيه «ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» قالت : نعم قال فإني سمعت رسول الله ﷺ نهى عن النامصة والواشرة والوصلة إلا من داء فقالت، المرأة : فلعله في بعض نسائك فقال لها : ادخلي فدخلت ثم خرجت فقالت ما رأيت بأسا قال : ما حفظت إذا وصية العبد الصالح «وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه».
والواشرة في الحديث من (وشر) لغة في (أشر) كما نصت على ذلك المعاجم وعلى رأسها اللسان انظر المجلد 3 ص 930 عمود 3.

10) انظر ج 2 ص 94، 95 صححه مصطفى حسين أحمد ـ دار الفكر.

11) مجلة المجمع ج 1 ص 180.

12) ص 3 ـ ط 1 ـ مطبعة بولاق الأميرية ـ مصر 1316 ـ 1898 ـ قرر الأزهر تدريس هذا الكتاب بتعليقاته بتاريخ 5 رجب عام 1316

فالمحذوف في استشهاد الأستاذ النجار هو قول الشيخ محمد عبده «على استعمال العامة» وقد انتزعها من بين جملتين هما : «فلا يصح حمل كلام المصنف» و«بأن يفسر تأشير الإذن الخ» كما هو مبين في النص السابق، فالعبارة المحذوفة تجعل استعمال (أشر) من الاستعمالات العامية وتنزه في الوقت نفسه صاحب كتاب (البصائر) عن ارتكاب مثل هذا الغلط، وذلك ما يطعن في رأيه حول (التأشير).

والمحذوف أيضا في استشهاد الأستاذ النجار هو قول الشيخ محمد عبده «ويستعمل اسما لشوك ساقي الجرادة، والتأشير والمئشار عقدة في ذنبها كالمخلبين وهما الأشرتان، والتأشيرة ما تعض به الجرادة» فالفقرة المحذوفة هذه لا تناسب ما يكد الذهن من أجله الأستاذ النجار، إذ لا مناسبة بين ما يعنيه التأشير من أنه شوك في ساقي الجرادة أو عقدة في ذنبها وبين المعنى الجديد.

وأعتبر محاولة إخفاء هذا المعنى للتأشير عبثا، ذلك أن كتب اللغة، القديم منها والحديث[13]، نصت عليه. فالأمر جلي، وحتى لو لم يشر إليه الشيخ محمد عبده لتوليت الكشف عنه بلا أدنى شك وما أرجأت الإيماء إليه إلا بسبب ذلك.

والمحذوف أيضا في استشهاد الأستاذ النجار قول الشيخ محمد عبده «فتأشير الإذن الصادر هو تحديد العزم وتشحيذ الهمة حتى تقطع الرأي في العمل».

ولا ريب عندي أن هذه الفقرة تعني ما عناه الأستاذ النجار - فيما سلف - حين قال مع اختلاف في الصياغة «ولما كان الرئيس إذ يوقع على الطلب بما يراه يشحذه ويجعله ماضيا نافذا غير منثلم»[14].

ألست ترى معي أن مضمون فقرة الشيخ محمد عبده هي مضمون فقرة الأستاذ النجار، لاحظ ذلك بترو ووازن بتأن تصل إلى الحقيقة بدون عناء.

موافق 19 نوفمبر 1898.

13) انظر مثلا ابن منظور (محمد) لسان العرب المجلد الأول ص 66 ع 1، وانظر مثلا مصطفى (إبراهيم) وآخرين، المعجم الوسيط ج 1 ص 19 ع 1.

ونحن بهذا - بعد أن طال الحديث حول هذه المادة - لا نشنع على الأستاذ النجار، فالأستاذ النجار له في قلبنا مكانة خاصة لفضله وعلمه، بيد أن البحث العلمي أحيانا يلزمنا ما نكره، وهذا عند العقلاء من العلماء هو الحق الذي ما بعده إلا الضلال، وكان من الممكن أن نغض النظر عن كل ذلك، لو أن الأستاذ النجار نبه - كما يقتضي منهج البحث العلمي - على ما أدخله من تصرف على كلام الشيخ محمد عبده وأحال على المرجع الذي نقل منه، ولكن ذلك لم يحدث فأثار ما أثار.

يبقى أن نقول : إن من ذهب إلى أن (أشر) تحريف من (أشار) - ومنهم الأستاذ النجار نفسه في رأي له[15]، والعلامة اللغوي إبراهيم اليازجي[16] - أصاب، لكون أن اللفظتين قابلتان لتبادل كل تحريف ممكن عبر مرور الزمن لاتحاد أحرفهما باستثناء ألف (أشار)، وهذا يقع كثيرا في اللغة العامية ولسنا في حاجة إلى التدليل على ذلك.

ويبقى أن نقول كذلك : إن لفظة (التأشير) ليست محدثة كما وصفها (المعجم الوسيط)[17]، بل إن استعمالها يعود إلى قرون، وقد مر بنا أن عمر بن سهلان الساوي استعملها في مقدمة كتابه (البصائر) وأن وفاته كانت سنة 450 هـ، فاللفظة ليست محدثة، إذا، بمعنى الحداثة التي تدل على أنها حديثة العهد، وقد يكون (المعجم الوسيط) اعتبر الحداثة شيوع هذه اللفظة وذيوعها في الإدارات وبين الناس.

هكذا يتبين بجلاء أن استعمال (التأشير) بمعنى التوقيع استعمال غير مسلم ويمكن استعمال بدلها ما هو مناسب وهو كثير في لغتنا الفنية بما لا يحصى من الألفاظ مثل (وسم) التي استعملها قاموس (المنهل) السالف الذكر ومثل (اعلم عليه) وهلم جرا. مما هو صالح - بلا شك - بأن يضطلع بالعمل على خيروجه.

14) انظر كتابه السابق الذكر ص 39.
15) انظر كتابه السابق الذكر ص 39.
16) انظر كتابه لغة الجرائد ص 57 - مطبعة التقدم - مصر (بلا تاريخ).
17) ج 1 ص 19 - ع 1.

ويبقى كذلك أن نشير إلى أن استفاضة شهرة هذا الخطأ دفعت الصحافة - وما أكثر أخطاءها - إلى أن تتبنى استعماله، ودفعت أيضا ميدان الدراسات الفكرية والعلمية والإبداعية إلى أن يقوم بالعمل نفسه وهو الأجدر بأن يكون بمنأى عن مثل هذه السقطات وفيما يلي بعض الأمثلة عن ذلك.

ففي مجال الصحافة يقول الأستاذ أبو يوسف طه في عمود يحرره بجريدة (العلم) تحت عنوان (مواقف) وموضوعه (الاقتصاد الثقافي) «بات واضحا أن الشعوب النامية وضمنها المغرب في إطار تحولات عالمنا المعاصر المتسارعة ملزمة بأن تولي التنمية الثقافية اهتماما متزايدا لما للمسألة من خطورة وأهمية وأن اعتماد مخصصات ضئيلة للبناء الثقافي لهو مؤشر على عدم إدراك الأبعاد الحقيقية للموضوع في ظرف دقيق يشهد تدفقا إعلاميا»[18].

وفي مجال الدراسات الفكرية والعلمية يقول الدكتور عيسى عبده «ولئن كانت توفية الموضوع توفية حقة لا تتم في عجالة كالتي احتواها هذا الكتاب إلا أننا نضع المؤشرات الدالة على الجديد والمهم...»[19].

ويقول الدكتور نبيل صبحي الطويل تحت عنوان (بعض الأرقام المعبرة) «في الجدول التالي مقارنة بين المؤشرات الصحية في البلاد المتقدمة والبلاد المتخلفة والبلاد المعدمة»[20].

ويقول كتاب (أصول الحوار) تحت عنوان (النقاط المشتركة) «حين يتحدث الداعية، عليه أن يبدأ في حديثه عن نقاط الاتفاق فيبدأ بالمسلمات والبديهيات، فالحديث على هذا النحو من شأنه أن يطيل أمد الحوار ويجعل بداياته هادئة من ناحية، منطقية من ناحية أخرى وهذا كله مؤشر إيجابي على احتمالات النجاح»[21].

وفي مجال الإبداع يقول الأستاذ الدواخلي طه في قصته (الدائرة والفرجار) «في التاسعة على وجه التحديد كان قد حصل على تأشيرة المدير»[22].

وهذه النماذج أو الأمثلة وردت فيه كلمة (موشر) أو (تأشيرة) لا تخرج عن المعنى الإداري الذي تحدثنا عنه سابقا، وإن كان البعض ينحو بهذا المعنى نحوا مجازيا جديدا غير أن المعنى العام يبقى مهيمنا وملحوظا في الاستعمال.

بقلم : محمد المنتصر الريسوني

---

18) ص 8 عمود 1 سطر 7 س 41 العدد 13267 - الخميس 24 ربيع الأول 1407 - 27 نوفمبر 1986.

19) انظر كتابه بنوك بلا فوائد ص 78 - دار الفتح - 1390 - 1970.

20) انظر كتابه الحرمان والتخلف في ديار المسلمين ص 134 - سلسلة كتاب الأمة - ط 1 - شوال 1404 هـ.

21) ص 31 أعدته الندوة العالمية للشباب الإسلامي (بلا تاريخ).

22) السفر في النيل، مجموعة قصصية تأليف محمد الخضري عبد الحميد - الدواخلي طه - بهاء السيد ص 61 - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - 1970.



ابن خفاجة الأندلسي

للدكتور منجد مصطفى بهجت

ستمضي رحلتنا الأدبية ـ قارئ الكريم ـ في جلال وجمال، وبهاء ورواء، مع أثر شعراء الأندلس، ولوعا بالطبيعة، وتعلقا بمجاليها، الذي منح الطبيعة حجما كبيرا من ديوانه، وأخلص لما يحيطه من الكون، ممعنا النظر، متدبرا في آلاء الله سبحانه ذاك هو «أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة...».

وليس بمستبعد على الأندلس، ولا بمنكر.. أن تنجب أمثال ابن خفاجة، وهي التي شهدت بحدائقها الغن، وجنانها الفيح.. وقد ولد شاعرنا في مدينة شقر، وعاش في بلنسية ـ شرقي الأندلس ـ التي نعته الشقندي بـ «مطيب الأندلس» لكثرة حدائقها وخصب أراضيها.. فكان ثمرة ذلك لوحة بارعة، تصف وتشف، وتعكس الجمال للأندلس، وصورة فنية خاصة بشقر وبلنسية ! وكان ما كان مما لهج الناس بروايته عن الشاعر، حتى صارت عنوانا للشاعر، بل عنوانا للأندلس :

يا أهل أندلس لله دركم
ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم
ولو تخيرت هذا كنت أختار

لا تحسبوا في غد أن تدخلوا سقرا
فليس تدخل بعد الجنة النار

ولأول وهلة أنكر سلطان المغرب أبو عنان المريني الأبيات على روايها، ووجد فيها خروجا من ربقة الدين، لكنه استحسن بعدها، ما قاله، ودفع عنه الملام لأن الأندلس موطن جهاد، ومقارعة للعدو، و«الجنة ـ كما يقول الرسول ﷺ ـ تحت ظلال السيوف»..

وكان ما كان مما نعت به بلنسية في قصائد كثيرة، إذ يقول :

بلنسية نهاية كل حسن
حديث صح في شرق وغرب

نشأ شاعرنا متشبعا بحب الجمال، بنفس شفيفة وروح سامية، فارتقى في مراقي الأدب درجات، وكان ذا ملكة مزدوجة، فقرض الشعر، وكتب النثر، وصدر في ديوانه عن آراء نقدية متميزة.. وجارى نقاد عصره فيما تطلبوا من الشعراء، واصطنع منهجا خاصا به.

فإذا كان الدارسون قد وقفوا عند الشاعر، موقف الإعجاب، وكشفوا عن مناط البلاغة والجودة فإنه فاتهم أن

1) المقري، نفح الطيب 1/681.

يلتفتوا إلى النزعة الإيمانية والنفحة الروحية التي صدر عنها في قصيدتين متميزتين في ديوانه بائية ورائية[2].. سنفصل القول فيهما في هذا المقام.

إن النظر في الكون، وتدبر المخلوقات والكائنات، صورة من صور البحث عن الذات، والتفكر في الخالق سبحانه وتعالى، وقد دعا القرآن الكريم في مواضع عديدة إلى ذلك منها قوله : **﴿قل أنظروا ماذا في السموات والأرض﴾** (يونس 101) وقوله : **﴿وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾** (الطور20 - 21) فانتهت تلك الدعوة بالشاعر إلى الأنس بالطبيعة أنس المتدبرين الباحثين عن كنه الحقيقة[3].

غيري من يعتـــد من أنســـه
مـا نـال من سـاق ومن كـأسـه

وشـأن مثلي أن يُرى خـاليـا
بنفســه يبحث عن نفســه

وتحولت تلك الخلوة إلى عبادة، وزهادة، ورياضة روحية تهذيبية للنفس، من أدرانها وأوضارها، فكان كما روى الضبي : «يخرج من جزيرة شقر... إلى بعض تلك الجبال التي تقرب من الجزيرة، وحده ! فكان إذا صار إلى جبلين نادى بأعلى صوته : يا إبراهيم تموت ! يعني نفسه، فيجيبه الصوت، ولا يزال كذلك حتى يخر مغشيا عليه !»[4]

إنه الخوف العميق من الله، الذي يدعو إلى الاعتبار والتسليم له... وليس موقفا مرضيا من خوفه من الموت كما رأى أحد الدارسين[5].

وتعود إلى أولى القصيدتين، البائية أو «قصيدة الجبل» لقد نص الشاعر في مستهلها على مغزاها، فقال : «وقال في الاعتبار» فالمراد بها إذن ليس الوصف العام على نحو ما جاء في قصيدة أخرى جاءت في الديوان ذاته صدرها بقوله

2) الديوان رقم 174 ورقم 8.

3) ديوانه رقم 14 وينظر كذلك : 132، 163.

4) بغية الملتمس رقم 502.

«ومما يتعلق بصفة جبل»[6] فهو لا يقصد الجبل في هيكله وهيأته الخارجية، بل يسبر أعماقه، ويتعمق أغواره... في ستة وعشرين بيتا، على نحو فريد، من تكامل عناصر التجربة الفنية، حتى جاءت القصيدة نسقا شعريا متكاملا، ذا شعاب وأفانين، ولو ذهب جميع ما قال ابن خفاجة من الشعر وبقيت وحدها لكانت معجزة إبداعه ودليل تفوقه[7].

تأتي قصيدته مستهلة بقوله :

بعيشـك هـل تـدري أهـوج الجنـائب
تخب برحلي أم ظهـور النجـائب ؟

وتمضي في أربعة مشاهد وأشواط، مترابطة متماسكة الأجزاء، يأخذ بعضها برقاب بعض، فإذا أسقطنا أبياتها الأولى، وحسبنا أنها مقدمة تقليدية، لا صلة لها بجوهر القصيدة، فسدت التجربة الشعرية، وفقدت عناصر روعتها...

فالمشهد الأول، يمثل حالة الاضطراب النفسي، والقلق والتوتر، اللذين كان عليهما الشاعر حيث أديا به إلى ضرب أكباد الإبل، والسياحة بين الشرق والغرب، وحيدا فريدا، على نحو ما كان يخرج كما تقدم في رواية الضبي، يصور لنا ذلك على نحو فريد :

فمـا لحت في أولى المشـارق كـوكبـا
فـأشرقت حتى جبت أخرى المغـارب

وحيـدا تهـاداني الفيـافي فـأجتلي
وجـوه المنـايـا في قنـاع الغيـاهب

ويمضي في القصيدة في تسعة أبيات، ينتقل بعدها إلى **المشهد الثاني** : وصف الجبل خارجيا، ولكن مع تشخيص فريد، إذ يسبغ عليه من ملامح الكائن الحي، فإذا به شيخ وقور عركته الأيام، وزادته حنكة وتجربة :

أصخت إليـه وهـو أخرس صـامت
فحـدثني ليـل السرى بـالعجـائب

5) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين ص 205.

6) الديوان رقم 107.

7) د. محمد رجب البيومي، الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر، ص 78.

والصلة بين المشهدين قوية، والوشيجة متينة، إذا أن صورة الاضطراب والقلق الشديدين اللذين كان عليهما الشاعر، وبرمه بما هو عليه، دعاه إلى الضرب في آفاق الأرض، وانتهى به إلى الوقوف عند آلائه سبحانه.. حيث تستقر هواجسه، وتسكن بلابله، مستمدا الدروس والعبر؛ بعد صراع طويل، وآلام محتدمة، ومن الصور الحية التي أوردها، قوله يصور عظمة الجبل وجلاله :

يلوث عليه الغيم سود عمائم
لها من وميض البرق حمر ذاوئب

فإذا كا الجبل بهذا المقام، وذاك الوقار، فلا بأس أن يجلس إليه، يقبس من حديثه ويصيخ سمعه إلى حكمته في أدب جم، وتوقير.. فيحدثث عن الأيام الغابرة، والأمم الماضية عن الفاتك والتائب، والمدلج والمؤوب، والمطى والراكب وآخرين كثيرين.. وكل أولئك خسف بهم الزمان، وذهبت بهم الأيام.. وفي ذلك عبرة ما بعدها اعتبار..

فما كان إلا أن طوتهم يد الردى
وطارت بهم ريح النوى و النوائب

ويجد لنا **المشهد الثالث**، صورة الجبل، وهو يحتمل بين جوانحه قلبا نابضا، وشعورا حيا لما يجري حوله من تغير الأحوال وذهاب الآمال، وحلول الآجال، وقلبه يختلج ويضطرب، أسى وحزنا :

فما خفق أيكي غير رجفة أضلع
ولا نوح ورقي غير صرخة نادب

وما غيض السلوان دمعي وإنما
نزفت دموعي من فراق الأصاحب

وإذ يبرم الشاعر بطرائق الحياة، وتضييق عليه شعابها، ينسب ذلك للجبل، ويسوق الحوار على لسانه، فطية الردى ليست هينة ونائبات الزمان تتخطف الألباب، وتطيش لها الحلوم، فيتملكه الرعب والهلع للمصير الذي ينتظره، مما يجري حوله.. وليس له إلا أن يرفع كف الضراعة إلى الله تعالى، بعد أن ودع الأصحاب، ورعى النجوم، وصفرت يده من لذائذ الدنيا ومباهجها :

فحتى متى أبقى ويظعن صاحب
أودع منه راحلا غير آيب ؟

وحتى متى أرعى الكواكب ساهرا
فمن طالع أخرى الليالي وغارب ؟

فرحماك يا مولاي، دعوة ضارع
يمد إلى نعماك راحة راغب !

وقبل أن يسدل الستار على رحلته، يأتي **المشهد الرابع**، موجزا في ثلاثة أبيات هي خلاصة الرحلة، التي يهتدي إليها الشاعر، وفيها الراحة والطمأنينة.. إذ يسليه الجبل في حواره، ويسرى عنه، فما يملك بعدها إلا أن يلوى عنان فرسه إذ يجد فيه حلا للغز الحياة :

فأسمعني من وعظه كل عبرة
يترجمها عنه لسان التجارب

فسلى بما أبكى، وسرى بما سجى
وكان على ليل السرى خير صاحب

وقلت وقد نكبت عنه لطية :
سلام فإنا من مقيم وذاهب

وهكذا تنتهي تجربته الفريدة في عوالم شعر الطبيعة الخصيبة الممرعة، تكشف عن صلة الإنسان بخالقه سبحانه عن طريق الكون، العالم الفسيح الممثل في الجبل لدى الشاعر..

من مظاهر الكون، ذلكم هو «القمر» حيث فاضت شاعريته وهو يمهد لها بقوله في نثر فني رائع، مستخدما ضير الغيبة في الحديث عن نفسه :

من مظاهر الكون، ذلكم هو «القمر» حيث فاضت شاعريته وهو يمهد لها بقوله في نثر فني رائع، مستخدما ضمير الغيبة في الحديث عن نفسه :

«وقد طلع عليه القمر في بعض ليالي أسفاره، فجعل يطرق في معنى كسوفه وإقماره، وعلة إهلاله تارة، وإسراره، ولزومه لمركزه مع انتقاله في مداره، معتبرا، بحسب قوة فهمه واستطاعته، ومعتقدا أن ذلك معدود في عبادة الله وطاعته، لقوله تعالى : ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، لآيات لأولي الألباب**﴾ فقال : وقد أقام معاينة تلك النصبة واستشرف تلك الحالة والهيأة، مقام المناجاة لمن خلا بنفسه يفكر، ونظر نظر الموفق يعتبر[8].

هكذا يستهل قصيدته الرائية، حيث نلقى القمر يلقن ابن خفاجة درس الحياة، ويبين له سر الكون، فهو يبدأ هلالا، ثم يستوي بدرا، ويأخذ بالتناقص حتى ينتهي بالمحاق، وكذا الإنسان يبدأ رحلته، نطفة، فعلقة، فمضغة مخلقة، وغير مخلقة، فطفلا فصبيا، ثم شابا، فرجلا بالغا أشده، كالقمر ليلة تمامه.

يبدأ قصيدته بقوله :

لقد أصخت إلى نجواك من قمر
وبت أدلج بين الوعي والنظر

وتبلغ بالشاعر حالة الانبهار، أمام آية القمر، قمتها، فتصير به إلى حالة العبادة، وهو أمر ليس بدعا فقد صح في الأثر الشريف، أن التفكر في آلاء الله عبادة، وهو يعرض لنا هذه التجربة في وحدة عضوية متكاملة، تبدأ باللمحة العابرة، وتنتهي إلى استغراق كيان الشاعر، وفيها تشترك أكثر من حاسة في حوار القمر :

لا أجتلي لمحا حتى أعي ملحا
عدلا من الحكم بين السمع والبصر

وقد ملأت سواد العين من وضح
فقرّط السمع قرط الأنس من سمر

فلو جمعت إلى حسن محاورة
حزت الجمالين من خبر ومن خبر

فهو إذن يستنطق القمر، ويرجو أن يلهم الحديث معه، وأنه لا مشاحة سيشنف أذنه ويمتعه بحديثه المعسول، ولكن أنى له ذلك ! وهل ستهدر الصلة الروحية والوشيجة الصوفية باستحالة الحديث مع القمر ؟ لا، ذلك لأن القمر الصامت لا يقل شأنا عما تطلع إليه الشاعر في القمر المتحدث :

وإن صمت ففي مرآك لي عظة
قد أفصحت لي عنها ألسن العبر

فأين تكمن العظة وينطوي الدرس، في مرآى القمر ؟

إنها تتجلى في أحواله المتغيرة، وصورته المتبدلة، والشاعر يشير ـ بذلك ـ إلى أصل من الأصول التي قام بها الفلاسفة في إثبات وجود الله، هو تغير الكون وتبدله، وعدم استقراره :

تمر من ناقص حورا ومكتمل
كورا، ومن مرتق طورا ومنحدر

وإزاء هذا الواعظ الصامت، الشيخ الحكيم، يرى الناس صنفين، معرض ذاهل، سادر في لهوه وغيه، وملتفت متعظ، مدكر لعاقبة أمره :

والناس من معرض يلهي وملتفت
يرعى، ومن ذاهل ينسى ومدكر

وينتهي الأمر بشاعرنا، إلى إسبال الدمع ونثر الشؤون والشجون، بعد هذا الاستغراق المتأمل، والدرس البليغ الذي

8) ديوانه رقم 80.
9) مقدمة الشوقيات المجهولة 29/1.

ألهمه إياه القمر :

فـإن بكيت وقـد يبكي الجليـد فمن
شجـو يفجر عين المـاء في الحجر

وبعد...

فهل يصح أن ينكر منكر أن يكون ابن خفاجة شاعر الطبيعـة، على نحـو مـا رأى أحـد البـاحثين.. لأن أدب الإفرنـج، ومـذاهبهم، أسمى من أدب العرب ؟ ! ويـذهب البـاحث أبعد من ذلك فيزعم أن الجيـد نـادر في شعر ابن

ومثل هذا الحكم العام، فيه ما فيه من مبالغة تنطوي على ارتجال في الأحكام، وعدم أناة في استقرار النصوص ودراستها...

فلله در الشاعر الجنان، فيما تـأمل من صنع اللـه في الكون !

ولله در شاعر الطبيعة، فيما فـاضت قريحته من شعر ينبض تدبرا ونظرا في عاقبة الأمور !

جامعة الموصل : د. منجد مصطفى بهجت

المصادر والمراجع

1. الأدب بين التأثير والتأثر، د. محمد رجب البيومي، **جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض 1980 م.**
2. بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ابن عميرة الضبي (ت 599 هـ) **تاريخ الكتاتب العربي، القاهرة 1967 م.**
3. تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، د. إحسان عباس. **ط. دار الثقافة ـ بيروت 1971 م.**
4. ديوان ابن خفاجة الأندلسي، تحقيق السيد مصطفى غازي **ط. منشأة المعارف، الإسكندرية. 1960 م**
5. الشوقيات المجهولة، تحقيق د. محمد صبري، القاهرة د.ت
6. نفح الطيب من غصن الأنـدلس الرطيب، المقري التلمساني ت 1041 هـ **ط. دار صادر بيروت 1968 م.**

يامرحبا بك في قلبي

لشاعر تونس الكبير
الأستاذ
أحمد اللغماني

أراك ـ يا فاس ـ لا إسمنت لا حجرا … بل مهجة تسكن الأشكال والصورا
في صدر كل جدار منك خافقة … أُحس في خفقها النعمى أو الغيرا
إني لأعرف عنها كلّ خافية … فكل سر متى استظهرته ظهرا
وأسمع الهمس منها وهي صامتة … قولا ولا لغو، إطنابا ولا هذرا
حديثها لي نجوى غير ذات صدى … ولمحها لي رؤيا تعجز النظرا
هذي المعالم في الآزال ضاربة … الله فاطرها يدري متى فطرا
أكاد أجزم أن الله أنشأها … من قبل أن ينشئ الأنهار والشجرا
كيانها ماله في الخلد من عمر … وميزة الخلد ألا يوهب العمرا
تناقلت من قديم سرها عصر … أمينة أورثت ميراثها عصرا
الله سبحانه أرسى قواعدها … وسخر السعد حظا، والهدى قدرا
وكنت ـ ياقاس ـ إبداعا بلا شبه … ما طاف في خلد الدنيا ولا خطرا

☆ ☆ ☆

صوفية أنت، لم يدرك مراميها … فكر عن الهاجس الصوفي قد قصرا
تقيدت بقيود الحس فانحسرت … طاقاته، وستار السر ما انحسرا
والحس مهما سما لابد منكفئ … في حده، لايجوز السمع والبصرا
وكم جرى العقل سباقا بمركضه … فحاز شوطا، ولكن لم يحز ظفرا
في عصر «عقلنة» الوجدان هل عجب … أن تصبح الروح للتجريب مختبرا ؟

وأن تحلـــل أهـــواء النفـــوس ؟ وأن تقـاس بـالشبر إن طـولا وإن قصرا ؟

والروح من أمر ربي، لايحيـط بهـا ـ العلم الترابي مهمـــا صـح واقتـــدرا

وأنت ـ يافـاس ـ قسط بين جـارحـة مجـالهـا الأرض مرقـاة ومنحـــدرا

وبين رفرافـــة شفت جـوانحهــــا تحس خلجتهــا حســـا وليس ترى

هي المشـــاعر نــورانيـــة شرفت بهـا طبـاع وإن كـانت بنـات ثرى

أنصفت في السعي للـدنيـا بـلا مهـل والسعي للـدين مخـزونـا ومـدخرا

سعيـان للـدين والـدنيـا قـد ائتلفـا حتى كـــأنهمــا في مصهر صهرا

وكنت ـ يـافـاس ـ ميـزانـا تـوازنـه لم ينخرم قـــط، أرضى اللـــه والبشر

☆ ☆ ☆

محظـوظـة أنت، لاتشكين ذبـذبـة ولا جمـودا كسيحـــا يبعث الضجرا

محظـوظـة أنت إذ ترعـاك سـاهرة لاتطبـق الجفن، لاتلتـــذ طعم كرى

عين «حـذاميـة» التحـديـق نظرتهـا نصـل صقيـل متى مس الظـلام فرى

يرمي بهــا «علـوي» من مراصـــده فيستبين المـــدى الممـــدود منضرا

مـا حـام حـولـك شر أو بـدا خطر إلا وأسرع يجلي الشر والخطرا

حـاميك ـ يـافـاس ـ طود في صلابتـه إذا الحـوادث غـــامت والأذى كشرا

ومرهف الحس، ذو بشر، طـلاقتـــه طـلاقـــة الفجر في أسحـــاره سفرا

هـو السحـاب : رضيـا يمنـح المطرا ومحنقـا يقـذف الإعصـــار والشررا

صفـاتـــه قبست من جـده(*) قبســا متى أشـع على هـــذا الـورى بهرا

عطيـــة من عطـــايـا اللــه مــا اكتسبت بـــل فطرة نبلت من نبلهــــا فطرا

إرث تـلـــل من نعمى مـــورثـــه أزمــانـــه غبرت والإرث مــا غبرا

يعيش في الحــــاضر الميمـــون مفخرة وفي المـلاحم من تـــاريخـه سيرا

من يــومـــه يستمـــد الشعب نخـوتـــه ومن سنى أمســـــه يستلهم العبرا

ومن يكن لرســول اللـــه منتسبــا يكن لمتبعيـــــه الشمس والقمرا

☆ ☆ ☆

حـاميـك ـ يـا فـاس ـ مـوعـود بطـالعـه والله سبحـانـه يـوفي بمـا نـذرا

سماه والـــده فـــألا بـــه «حسنــا» وأصبـح الفـــأل غرســا يثمر الثمرا

(*) إشارة إلى انتساب جلالته إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

والمغربيـــون من شتى الفضـــائـــل، في شتى الأقـــاليم قـــد عـزوا بـــه نفرا
مـوفـق في مـــاعيـــه، فـــإن وعرت مســالــك وشعــاب ذلـل الـوعرا

☆ ☆ ☆

عرفتــه حـــاكمـــاً، والحكم في يـــده قسطـاس عـدل، وشورى تحضن الفكرا
وهيبـــة الحكم قـــد تقصي، وهيبتـــه تـدني، وتهـدي سبيـل الرشـد من ظفرا
وتلـــك ميـزتــــه : فـــالشعب ملتحم من حـولـــه زمرا قـــد ألفت أسرا
والحكم ان نفرت منـــه الشعـوب هـوت للضعف قـوتـه فـانهـار وانـدثرا
لا التـــاج يرفـع شـــأن المـــالكين، ولا عليـــا المراتب تعلي همـــة الأمرا
وإنمـــا هـــو حب الشعب إن خلصت أهـواؤه صـــانت التيجـــان والسررا
وشعبـــه خـــالص الإخـلاص، ذو أنف بـــأسـه وبـــأوفى عهـــده اشتهرا
أيـــامـــه خـــالـــدات في مـــلاحمـــه يروي الأعاجيب عنها «الريف» و«الصحرا»
أعطـــاه بيعتـــه بـــالملـــك مقتنعـــا وأسلم الأمر مختـــارا ومقتـــدرا
ورص صفـــا رهيبـــا حـول دولتـــه فكـل من جـاء يبغي كيـدهـا انتحرا

☆ ☆ ☆

رأيتـــه ســـائرا في رأس مـوكبـــه إلى مصـلاه معتمـــا ومـؤتـــزرا
بيـــاض مئـزره يبـــدى لنـــاظره ذاك الصفـاء الـذي في روحـه استترا
على جـــواد أصيـــل في أرومتـــه يجس نبض الثرى جســـا إذا خطرا
يخطـو الهـوينـــا وقـورا. والجيـــاد إذا أقلت المجـــد أغضى كبرهـــا خفرا
والفـــارس الشهم يسعى نحـو مسجـــده بـــالعـــدل مستغنيـــا، للـــه مفتقرا
لـــه مـــع اللـــه ميعـــاد إذا أزفت ســـاعـــاتـــه خف للميعـــاد وابتـدرا
وخفف النفس من أعبـــائهـــا وسعى للـــه مستقبـــلا أعبـــاءه الأخرا
وقـــام بين يـــدي مـولاه، ثم جثـــا يقضي لـــدائنـــه دينـــا كمـــا أمرا
ككـــل ذي ورع مهمـــا عـــلا وغـــلا إذا ثنى ركبتيـــه ســـاجـــدا صغرا

☆ ☆ ☆

سمعتـــه يـوم هـز القيروان (*) بمـــا آتـــاه ربي من الإعجـــاز مختصرا
من روحـــه يستمـــد السحر في دعـــة كـــأنـــه يستقي من منبـع زخرا

---

*) إشارة إلى الخطاب الرائع الذي ارتجله جلالته في القيروان أثناء زيارته لتونس في شهر دجنبر 1964.

بيـــانــــه مرســـل يـجري على مهــل ... كجـدول السهـل مـــابين المروج سرى

ضرب من القــول قـــد عــزت ذظـــائره ... وســـاحر من بيـــان سحره نـــدرا

أنصت منــــدهشـــا والمنصتـــون معي ... وكلنــا غـــاب في الإنصـــات منبهرا

وكنت ـ يـــافـــاس ـ والأُخت الشقيقـــة في ... خطـــابـــه نجمتي إدلاجـــة وسرى

وكنتمـــا عــــدوتي زلفى ومقربـــة ... مـــابين حضنيهمـــا نهر الصفـاء جرى

سمعتـــه فــــانــــزوى في ركن ذاكرتي ... مـــا كنت أحفـــظ إلا الآي والســورا

فمـــا يكـــون إذن حظي ؟ وقـــد بهتت ... ممـــا سمعت مرايـــا ألمـــع الشعرا

☆ ☆ ☆

يـــاوارثـــا عن أب مجـــدا بـــلا صلف ... ومـــورثـــا نجلــــه أخــلاقـــه زهرا

لأنت والـــوالــــد المرحـــوم، والـــولـــد ـ ... ـ المحبـوب مـا بيننـا وصـل وشـد عرى

لكم بتــــونس ذكر خــــالـــــد عطر ... ولا يخلــــــد ذكر لم يكن عطرا

إني لأذكر إذ شرفتنـــــا عرســـــا ... زهت بــــه تــونس، والمغرب افتخرا

نشقت إذذاك في ديسمبر نفســـــــا ... من الربيـــع على خضرائنـــا انتشرا

فرحت ألهـــج مـــأخـــوذا بـــأُمنيـــة ... لطــالمـــا شـــاركتني الأُنس والسمرا

كشفتهـــا يـومهـــا بـوحـــا قـــد انتظمت ... ألفـــاظـــه وشعــوري ظـل منتشرا

واللفـــظ يقبض من فيض الشعـــور كمـــا ... تلملم اللف فيض المـــــاء منهمرا

حلم أليف لعمري لايفـــــــارقني ... حتى إذا غبت في إغفـــاءتي حضرا

يظـــل قيـــد التمني في مخيلتي ... وإن تعقبتـــه في صحـــوتي نفرا

وهـــا أنـــا مرة أُخرى ألاحقـــه ... عسى جـوادي يـوقى الكبـو والعثرا

من همـــة الحسن الثـــاني ونخـــوتـــه ... لي ضــــامن أنني أستيسر العسرا

☆ ☆ ☆

يـــا أيهـــا المنتمي عرقـــا ومعتقـــدا ... لسيـــد مفرد من صلبـــه انحـــدرا

ويـــا حفيـــد رسـول اللـــه ! مغربنـــا ... مـــا زال ـ رغم اتصـال الـود ـ منشطرا

أتت علينـــا ليـــال لا بـــدور لهـــا ... طـالت علينـا هـزيعـا وانتـأت سحرا

مـــالاح خيـــط من الأفجـــارمؤتلـــق ... إلا ترسب في الــــديجـــور وانغمرا

ومثلمـــا الآل خـــداع لرامقـــه ... قـــد يخـــدع الفجر عينـــا ملت السهرا

وهكـــــذا... مرة أخرى يلـــوح لنـــــا فجر بـأعقـــاب ليـل طــال واعتكرا

فهـل ترى يصـدق الفجر الجـديـد ؟ وهـل يمحى من الفرقـة النكراء مــا سطرا ؟

لــو أن أقطـــارنـــا ضت مـــاعيهـــا للخير لا لتحم المصــــــدوع وانجبرا

ولا غتنت بعـــد فقر من تكـــاتفهـــا وأخصب العيش بعـد الجـدب وازدهرا

وراح أبنـــاؤهــــا يبنــون وحـــدتهم بـالكـد، واجتنبـوا التهريـج والهـذرا

☆ ☆ ☆

يـــا فـــاس ! يـــامتراحـــا حين أقصـده ألفي على بـــابـــه الإينـــاس منتظرا

إني غريم زمـــــــان لايعف، لـــــه طبـاع جـاب : يـداري، يقتفي الأثرا

مـــا أشرقت في ضبـــاب العمر بـــارقـــة إلا اقتضـــاني على إشراقهــــا العشرا

وأنت حـــــاميتي منـــــه، ومنسيتي همي، ومجليــــة عن نفسي الكـــدرا

فكيف أشكر هـــذا الفضـل ؟ يـــاكرمـــا إليـــــه لايرتقي شكران من شكرا

أيـــــا أميرة أحـــــلامي ! ومرجعتي إلى شبـــاب تُحـــدى الشيب والكبرا

يـــا مرحبـــا بـك في قلبي هـوى ورعـــا وعشقـــة طهرت من عـــاشـق طهرا

تحيتي لـــــك لا مـــا يـــدعي قلم مهمـــا تفنن في الإبــــداع وابتكرا

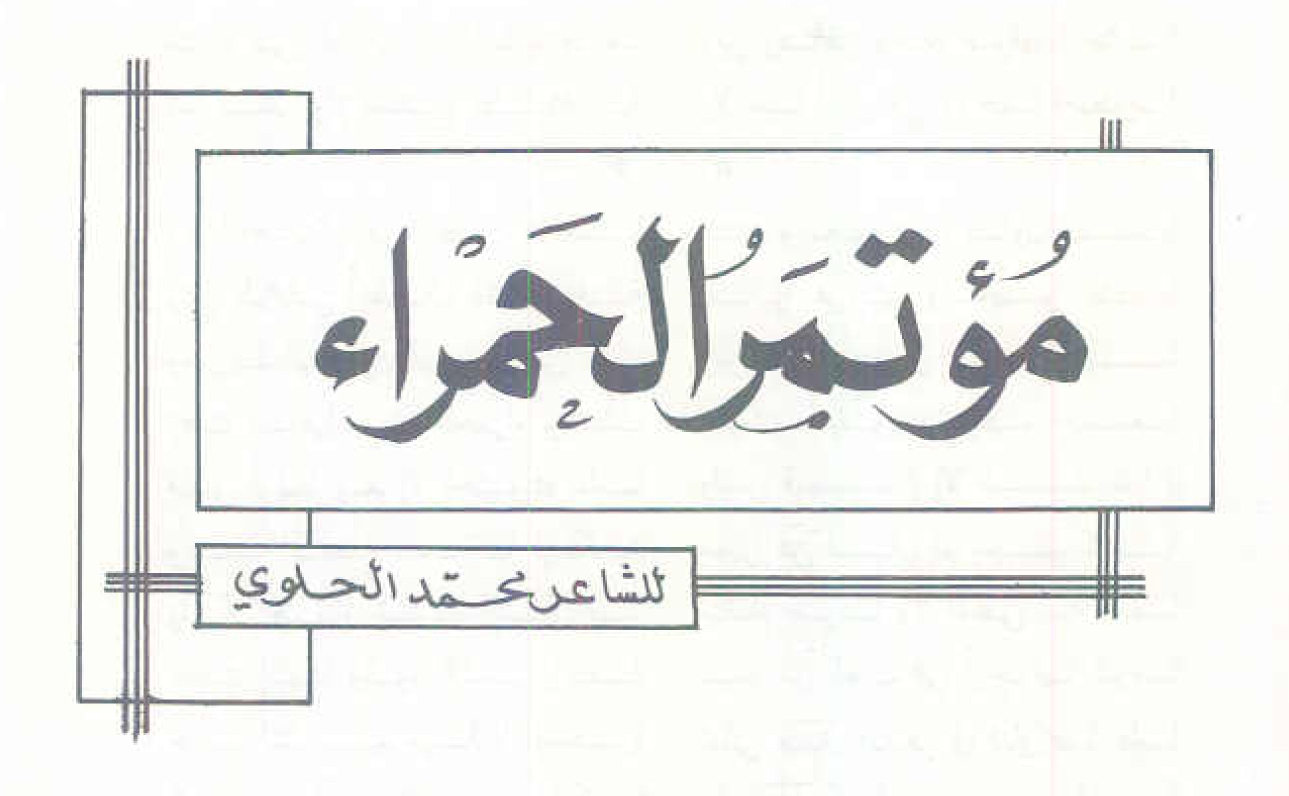
بـــل مـــا يجيش بلب الروح مكتتمـــا ومـــا يصفـق في الأعمـــاق مستترا

فـــارضي بـــأيسره إفضـــاءة ظهرت وأيسر العشق ـ يـاحسنـاء ـ مـا ظهرا

وعشت مـــا عـــاشت الآبـــاء آمنـــة وعـــاش حـــاميـك منصـورا ومنتصرا

تونس ـ أحمد اللغماني





الحمد لله ! شمل المغرب التحما ... وجرح أبنائه بالوحدة التأما

والله أكبر كم تأتي لطائفه ... عند الخطوب فيجلو نورها الظلما !

من بعد ليل مخيف ظل مركبنا ... فيه ولج به الإعصار فارتطما

وبعدما أصبحت آمال أمتنا ... في مغرب عربي واحد حلما

تحقق الأمل الغالي وأمكن أن ... نبني ونرفع صرحا يبهر الأمما

وأن نؤكد للدنيا وقد شهدت ... عناقنا ورأت أبطالنا القمما

بأن مغربنا العملاق ليس له ... أن يرتضي العيش في أبنائها قزما !

مرت سنون أضعناها سدى وجرت ... دموعنا وهي تمتص الجمود دما

وكان أجدى على الأجيال لو صرفت ... لخيرها وكفتها الدمع والألما

فباسم ربيّ مجراها إذا انطلقت ... وباسمه ستوالي سيرها قدما

أيدي بنينا جميعا خلف دفتها ... دعائما لم تكن يوما لتنهدما

غدا تفجر في الأوراس طاقتها ... وفي الأطالس يبدو جهدها نعما

ويخصب الزرع والإنسان في وطن ... بلا حدود ولا يبقى هناك حمى !

ويشهد الأطلس العملاق ملحمة ... لأمة حبلها الموصول ما انفصما

مشت على الـدرب أحقـابـا يوحـدهـا   دين ومـاض وخصم فـوقهـا جثمـا
فلم تـذل ولم تخضـع لطـاغيـة   ولا خبـا أمـل في روحهـا اضطرمـا

☆ □ ☆

ويـا أحبـائي في الخضراء فرحتنـا   عيـد، وصحـوة حب طـاول القـدمـا
وفي طرابلس أبطـال غطـارفـة   صـانـوا عروبتهم واستلهمـوا الشيمـا
وموريطـانيـا ثرى لم يخـل من عبق   ومن تراث أصيـل يـزدهي شممـا
زهت بـأعراسهـا الحمراء واقتبلت   أحبـابهـا بقلوب شـوقهـا احتـدمـا
فليس فيهـا يـد إلا احتـوت علمـا   وليس فيهـا فم إلا شـذا نغما !
ويسعف الـدمع مشتـاقـا فيسكبـه   معبرا عن لسـان لم يجـد كلمـا
وآيـة الحب أن تـدعو البيـان فـلا   ينقاد طـوعـا ولا تعطى لـه لجمـا
حجت إليهـا وفـود الشعب زاحفـة   سيـلا من الحب في أرجـائهـا عـزمـا
حجت لتشهـد ميـلادا لمعجـزة   تبقى مـدى الـدهر في تـاريخنـا علمـا
كـأنني بـابن تـاشفين يبـاركهـا   وقـد أضـاء المحيـا منـه وابتسمـا
كـأن مـؤتمر الحمراء فـاتحـة   لعهـده الـذهبي، بـدءٌ لمـا اختتمـا
قـد غرد الطير في أفنـانـه طربـا   وضمـخ الـزهر أرجـاء الـدنى نسمـا
رأيت حـولي حشـودا لا حـدود لهـا   تفـور حبـا وتبـدي بعض مـا كتمـا
ولـو يعـاب جنـون في مـواطنـة   لقلت جنـوا ! وأكرم من بـه اتهمـا !
كـأن أرواح من مـاتـوا قـد انبعثت   فـلا تكـاد ترى الأقـدام مقتحمـا
في بعض ما شاهدت عيناي من صور   مـا ينطق الخرس أو ينسيهم البكمـا
فيـا لمراكش الحمرا وقـد لبست   من الربيـع برودا لفت الأكمـا
عـاشت ثـلاثـة أيـام ولـو سئلت عن   فرصة العمر كـانت خير مـا اغتنمـا !

☆ □ ☆

أمـامنـا عقبـات سـوف نقطعهـا   إذا شددنـا لهـا في سيرنـا الحزمـا
أمـامنـا الجهـل في دنيـا مصنعـة   ولا مكـان بهـا إلا لمن علمـا !
أمـامنـا الفقر في دنيـا نجـوع بهـا   ويشتكي الغرب من خيراتنا التخما !
أمـامنـا محنـة الإنسـان في وطن   تـدوس صهيـون في أبنـائـه الحرمـا
تختـال في كبرياء ليس يرغمهـا   دين ولا خلـق مـازال منهـدمـا !
أمـامنـا في كنـوز الأرض أرصـدة   تصونهـا لشعـوب تشتكي العـدمـا

ومن سرى في الضحى والنـور يغمره ... ولم تـزغ في السرى أقـدامـه سلمـا
ولم يضـع أبـدا جهـد إذا خلصت ... نيـات صـاحبـه للـه والتـزمـا !

☆ □ ☆

مرحى بـإخـوتنـا في أرض إخـوتهم ... ومن تـداعـوا ليحيـوا العهد والرحمـا
هـذي الشعوب التي أضحت بهمتكم ... شعبـا وقلبـا سليمـا نـابضـا وفمـا
لسوف تعطي - كما شاءت - سواعدها ... وتستحث لمـا تبنـونـه الهممـا
ستحمـل المعـول البنـاء كـل يـد ... وتحمـل السيف والقرطـاس والقلمـا
وسوف نملي على الـدنيـا فتسمعنـا ... وسـوف نبعـد عن آذانهـا الصممـا
ويعرف الغرب أن العرب مـا خضعت ... لمستبـد ولا كانت بنـوه دمى
قـد آن للغرب أن ينسى مراضعـه ... ولا يحن لضرع عنـه قـد فطما
وآن للشرق أن يبني قـواعـده ... على أسـاس وينسى مـا بـه وصما
هـذا الربيع الـذي تـاقت لبهجتـه ... شعـوبنـا وسقى أوطـاننـا ديمـا
قرت بـه كـل عين بعـد غيبتـه ... وضـمـه كـل قلب يشتكي سقمـا
مـولاي يهنيـك مـا حققت من ظفر ... لـو أن غيرك يسعى نحـوه هـزمـا
أسهرت جفنـك والأجفـان هـاجعـة ... لا ترتجي مكسبـا أو تشتكي سـأمـا
لم يغنك الجد في مسعاك عن قـدر ... ومـا رميت ولكن الإلاه رمى
قـد كنت فلتـة هـذا الـدهر في زمن ... مـا زال يشكـو بنـوه الجـدب والعقما
يهنيـك إخـوتـك الأحرار تحضنهم ... لترفعـوا معهم في مجـدنـا هرمـا
فلتسلمـوا وعيـون اللـه تكلـؤكم ... مشـاعـلا وهـداة تكشف الغممـا
وعـاش مغربنـا العمـلاق في رغـد ... محصنـا بهـدى الإسـلام معتصمـا
وعـاش شبـلاك في عـز يحفهمـا ... مـا طـاف معتمر بـالبيت واستلمـا

تطوان : محمد الحلوي

قادة المغرب الكبير هنيئا

للشاعر محمد العثماني

خشع الدهر يوم جاءت مواكب — قادة المغربين فيها كواكب
سحبوا خلفهم حضارة أحقا — ب على متنها تجر الذوائب
وأثاروا التاريخ بعثا لمجد — ذاهب في القرون في الدهر غائب
بارك الله في لقاء تحيّيـ — ـه بآملها شعوب المغارب
أملا لم يزل على الدهر حيّا — في ضمير التاريخ جم المآرب
كان فيه صدى لماض مجيد — من وراء القرون كاد يخاطب
قادة طوقوا بإحياء مجد — شامخ كم عدت عليه النوائب
قادة المغرب الكبير وقد شا — دوا سياجا له عزيز الجوانب
صمموا في بنائه وتحدوا — نوب الدهر قاصفات ضوارب
ندبتهم أوطانهم فأجابوا — لنداء الضمير سامي المطالب
ذكرتهم مغاربا يوم كانت — مغربا واحد الرؤى والمذاهب
فتداعوا لمغرب الحسن الثا — ني، ليلتام شمل قوم أقارب
المعي الدنيا لسانا ورأيا — وشهاب من المعارف ثاقب
قبس من جنانه ليس يخبو — ومعين من قلبه غير ناضب

☆ ☆ ☆

زحف اليوم موكب الوحدة الكبـ — ـرى فقامت له احتفاء مواكب
أخذ الموكب العظيم مسارا — ليس يثنيه عنه واش وكاذب

شاهدته الدنيا كأروع جمع ... في الأماني وفي اتحاد المشارب
غمرته الشعوب بالحب والحمـ ... ـد، وعاطته باقة كل كاعب
خسر المرجفون فيها رهانا ... أملوا فوزه، كريه العواقب
كم يريدون للبلاد شتاتا ... رَغمَ المفتري وخاب المشاغب
خرِست ألسن بسوء وشؤم ... نطقت، وَلِتُشْلَلْ لها كف كاتب
يقلع الناس في الضياء وبعض الـ ... ـقوم يختار سيره في الغياهب
ليس من كان في الملاهي يغالي ... مثل من قام في الحياة يغالب

☆ ☆ ☆

قادة المغرب الكبير هنيئا ... بلقاء يفديه شعب المغارب
قمة هزت البلاد ابتهاجا ... فهي أوفى حظا وأوفر كاسب
باركتها السماء بالأمس حتى ... باكرتها باليمن مثل السحائب
فرح المسلمون في كل قطر ... شيبه أو شبابه والكواعب
غمرتهم بشائر منبآت ... بوفاق ووحدة في المكاسب
ليس يرعى تلك المكاسب إلا ... مسلم يتقي إلهاً يراقب
طالنا في الوجود عصر يفاجي ... كل يوم إنسانه بالعجائب
من يباين أخاه فيه خلافا ... دونه أنشب العدو مخالب
أو يسر فيه وحده فهو يمشي ... فوق جسر مهدد بالمعاطب

☆ ☆ ☆

حارس المجد والحضارة شكرا ... عن نجاح يطول أعلى المراتب
في لقاء التاريخ ضم إليه ... إخوة قادة كرام النقائب
فعلى صاحب الجلالة والجمـ ... ـع المفدى من السلام أطايب

محمد العثماني



صـغ من أصيـل الشعر كـل متين ووحيـد نسج في القريض رصين

واعـزف على فنن البـديـع مغرداً مـا راق من نغم ومن تلحين

جد بـالجواهر من روائعـك الحسا ن الغر في شكـل وفي مضمـون

وبكـل مضنـون بـه من درهـا الغـالي فـأنت اليـوم غير ضنين

واحمـل عن العرش العظيم تحيـة وديـة حسنيـة للصين

وانقـل إليهـا من ربـاط الفتح ممحـوض الـوداد مقـدمـاً "لبكين"

شعبـان ضمهمـا إخـاء صـادق وعـلائـق قـدسيـة في الـدين

وتطـاول للمكرمـات وللعـلا وترفـع عن مستنـاخ الهـون

ومبـادىء تـدعـو الأنـام لنيـل كـل فضيلـة ولترك كـل مشين

عمـلاً لتحقيـق السـلام ونشره ولنصرة المظلـوم والمغبـون

أأحبتي في الصين إني مغرب متـأصـل الأمجـاد ذو تمكين

يعتـز تـاريخي وتعظم أمتي شرفـاً وتشرق أعصري وقروني

قد قادني الحسن الهمام إلى العلا ... فالأنجم الزهر المضيئة دوني

رسخت جذوري في البلاد أصيلة ... وسمت إلى أفق السماء غصوني

أكبرت في الصين العظيمة عزها ... وصمودها في صون كل عرين

وجلال نهضتها ورفعة شأنها ... في عالم العمران والتمدين

صنا لها الود الوثيق ولم نزل ... أمناء عهد في النفوس مكين

نعم البلاد وأهلها من أمة ... عظمت ومن وطن أعز أمين

حدثت في تاريخها ونضالها ... عن كل ندب صادق مأمون

وسمعت عنها ألف ألف إشادة ... قد صدقتها فكرتي وظنوني

واليوم ها أنا ذا أشاهد ما أشا ... هد من عجائب جمة وفنون

سحر المناظر فاتن وجمالها ... متلاعب بالشاعر المفتون

مجد وتاريخ ونهضة أمة ... في ظل عهد زاهر ميمون

وعواصم مثل العرائس أشرقت ... كالزهر أو كاللؤلؤ المكنون

وتبرجت بجمالها فكأنها ... تدعو الأديب لصبوة ومجون

لله در الصين من شعب سما ... للمكرمات وفاق كل قرين

إن ينزل الضيف الملم لديهم ... تفرش له مهج وهدب عيون

يلقاه بالترحيب كل مهذب ... وضاح خد مشرق وجبين

ويظل مشمولاً بسابغ فضلهم ... وجميل صنعهم لآخر حين

فإذا انقضى أمد الإقامة عاد في ... وله وأشواق لهم وحنين

الرباط : محمد الكبير العلوي



المعركة الكبرى

لصاحبه الأستاذ علي الصقلي

للأستاذ محمد بن تاويت

علينا أولا أن نقرر باعتبار المسرحية تاريخية لابد فيها من دراسة عميقة لموضوعها وأشخاصها، ثم لابد من تناسخ واستنباط نفسي وتقمص حقيقي لأبطالها، وهم على اختلاف فيما بينهم من تكوين فكري ومهني، وتصدير ومواجهة للحدث وأصحابه؛ فيهم العظيم في واجهة والحقير في واجهة أخرى وبالاختصار، فإننا نجمل ملاحظاتنا على هذه المسرحية فيما يلي :

تصوير عبد الملك ملازما فراشه، بعيدا عن المعمعة التي كانت تدور رحاها، والواقع أنه خاض قسطا منها، وهو على صهوة جواده يعاني مرضه الذي كان يفتك به. وهذا ما نشرناه في السبعينيات بمجلة تطوان اعتمادا على ما ذكره طبيبه الخاص اليهودي الذي كان في صحبته ساهرا على علاجه كما ذكر في رسالة له إلى أخيه. وهي رسالة هامة من الناحية التاريخية نشرناها البيت الوارف الصفحة 66 هكذا :

أنت يـــامن يبــارك اللــــه معــــاك
بمـــا خصـــك الإلــــه تعـــالى

صوابه :

.........مسعـــــاه
بمـــا خصـــه.........

إذ الضمير عائد على اسم الموصول وهو «من» غير أن اللغات الهند أوربية لا تراعى هذا وفي الصفحة 67 :

تقضي بمـــا حملتنـــا من عروبتنـــا
القعســـاء - يـوم دنت أيـــامنـــا - مضر

ذلك أن كلمة العروبة التي تعنى القومية، لم يكن لها وجود في قاموسنا آنذاك، حتى ندعيها وفي الصفحة 69 جاء على لسان أبي المحاسن هذا البيت :

قسمـــا بربي ســـوف ننتصر
قسمـــا بـــأنـــا الغـــالبون عـــدا

ولا يعقل شرعا أن أبا المحاسن العالم الديني يصدر عنه هذا القسم المتهور بما لم يكن محققا وفي الصفحة 70 ورد هذا البيت :

قـــولـــوا لمن يخشى الـــدخيـــل ولا
يخشى الإلـــه الـــواحـــد الصمـــدا

فكلمة الدخيل بمعنى الأجنبي في المدلول المعاصر، لم يكن لها وجود عندنا آنذاك وفي نفس الصفحة جاء بيت هكذا :

فـــأين كمـــاة العرائش أين رحـ
ـــال المحيـــط الرحيب الثرى

والصواب انتهاء الشطرة الأولى بكلمة «أين» الثانية.

وفي الصفحة 71 نجد حوار ابن زرقون العرائشي وأبي المحاسن هكذا :

أبو المحاسن :

جمعتم لنا الزاد ؟

ابن زرقون :

لا

أبو المحاسن :

إنـــــــــــه

الميـــــاه ونحن صنـــوف النبـــــات

فهـــــــل يتفتـــــــــح زهر إذا

تشقـق بــالقيــظ وجــه الحيـــاة ؟

فكيف نظـــــــل على جلـــــــد

تكر ولـت لـــــــديـنــــــا أداة

ستجمــــع مـــــا شئت من كـــل زاد

أولا : القافية مقيدة، وفي هذه الحال لايمكن نحويا الوقوف على تاء الحياة والأداة، كما هي، نعم سمع ذلك شاذا.

ثـانيـا : يبـدو أن الشطرة الأخيرة، من كـلام ابن زرقون، لا من كلام أبي المحاسن، فيكون القائل ساقطا قبلها.

ثالثا : الموقف العصيب هذا، لايسمح بهذا البيت الوادع المستريح :

فهـــــــل يتفتـــــــــح زهر إذا

تشقـق بــالقيــظ وجــه الحيـــاة

وفي الصفحة 74 ورحل الهبطي ورادا على قول أبي المحاسن في الصفحة قبلها :

فلن نستكين إذا مـــــــا احتـــــون

معـــــابرنـــــا لجـج من عـــــذاب

سيستصرخ العـــــــزم أفئـــــــدة

تبتلهـــــــا قعقعـــــــات حراب

فلن يتغـــــــافـــــل معشرنـــــــا

إذا مـا عـوت في الحقـول الـذئـــاب

إذا وحـــــد اللـــــــه بين القلـــوب

ووحــــــد بين المنى والرغــــــاب

ستصبـــــح جمهرة النـــــاس فردا

ونصنـع مـا قـد يفـوق السحـاب الـخ..

أراك تغررنـــــــا بـــــــالـــــــذي

تريـــــه لنـــــا من بريـــق السراب

وقـــــد جــاءنـــــا البغي في سفن

سرت تمــلأ اليـــوم متن العبــــــاب

وقـــــد أفرغت من حمـــولتهـــــا

مــــدافـع بـــالأذى والمصــــاب

بمـــوج كـــــأنـــــه نحر الردى

أتثنيـه بـالقـول أو بـالخطــاب ؟

فهذا كلام منه، لم يكن في محله، لو صدر منه، وإلا فإنه يمثله رعديدا خائرا، يفت في عضد مخاطبه وغيره

وفي الصفحة 76 جاء على لسان التلميذ :

أخرجـــوا لترو جيشـــا عظيمـــا

أتى بـــــــــه اللـــــــــه بحرا

وعلى رأســه المليـك الـذي جـاء إلينـا

يريـــــــــد فــــــوزا ونصرا

والصـواب أن الشطر الأول تنتهي عنـد اليـاء من «جيشنا» وما قبلها يكون الشطرة مع «أنما تنطق» من قول المبطي.

أما البيت الثاني، فنهاية الشطر الأول فيه هي ألف «جا» والهمزة منها أول الشطرة الثانية من البيت وفي نفس الصفحة تردد ذكر للتليدي، وذكر قبل في الصفحة 66 بأنه عالم من سكان القصر، مع أنه لم يـذكر بين «أشخاص الرواية». وبالرغم من هذا كله في مليحة تستحق التمويه بها والإشادة بصاحبها بعد هذه نتصل

فنجد أن صاحبها لم يتقيد بالإطار التاريخي تماما بل إنه جعل جل الفصل الأول منحصرا في علاقات غرامية

بين ابن عبد الملك، أحمد وابنه رمضان وإلى الجزائر، هنداء وما يجري بينهما من أحاديث عاطفية أو حولهما من محاورات، تحاك بين غم وصيفة عبد الملك ودلال قهرمانة القصر، وغيرهما، كعائدة الصحراوية صاحبة الفال لدى عبد الملك وزوجته زينب.

فكأن صاحب هذه ركز على المشهد فوق الخشبة، بينما كان الثاني يركز على القراءة قبل المشهد ثم ان اللغة المستعملة في هذه كانت مراعى فيها الجمهور، في سهلة الألفاظ غالبا سلسة التعابير. وهذا مرتبط أيضا بالمشهد الخشبي الذي يواجه النظارة، بعكس الأول القراء في تمهل وتمعن وكلتاهما لاتخلوان من تعابير قرآنية، ففي هذه نجد :

أمن هـــو في بيتـــه قـــائم
كمن حـل بيتـا بـــه قـــام ضيفـــا

من قوله تعالى : **﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾**.

أما فيما يتصل بسلاسة الأسلوب وسهولة ألفاظه فنجد ذلك ـ مثلا ـ في خطاب زينب لابنها إسماعيل حيث تقول :

أنـــا بمـــا قـــد رمتـــه
يـــا ابني جـــد داريـــة
مـــا رمضـــان طينـــة
كمـــا تخـــال ـ صـافيـة
بـــل رمضـــان ذو وجـــو
ه شرهـــا المـــداريـــه
كم امرئ عنـــد الهـــوى
ســواه عنـــد الهـــاويـــة
فـــلا تـســل قلبـــك عنـ
ـــه وهـــو رهن غـــانيـة
يريـــك إيـــاه سريـ
ـــعا للـوئـــام داعيـــة
لابـــل بـــه ســـل الـزمـــا
ن والصروف الـــداهيـــة
لابـــد أن ابن الطـــوا
غيت يكـــون طـــاغيـــة
كـــالفرع من شجرة
دانيـــة أو عـــاليـــة
فخـــذ بمـــا قلت ودع
نجـــوى الفـــؤاد لاغيـــه

هذا على العموم نموذج من أسلوب الرواية، ويلاحظ عليها ما ياتي، متصلا بتاريخها، ولغتها، وملابستها وأشخاصها.

ففيما يتصل بالتاريخ نجد فيه أولا سبقا لحوادثه حيث يتردد فيه ذكر للسعديين على لسان هذا البيت الذي لم يكن أحد، كما في الاستقصا، يجرء على نعته بالسعديين، بل كانوا يذكرون بالشرفاء كما في «مناهل الصفا» لعبد العزيز الفشتالي أو الأشراف، كما في منظومة محمد بن سعيد السوسي، حيث يقول أولها :

يقول بعد حمد مجرى الفلك
ثم على محمد الهادي الزكي
أزكى الصلاة وعلى الأشراف
آل النبي وكـل ذي إنصـاف

ولكن المؤلف، لم يمعن في مجريات التاريخ، كما يبدو، وهو يستعد للخوض في مسرحياته، فوجدنا مثلا اسماعيل بن عبد الملك يقولها عن أبيه :

أمـــاه ! إن أبي ككـــل مجـــاهـــد
يبلي بـــلاء في الجهـــاد جميـــلا
هـــو خـــائض غمر الـــوغى في معشر
نـــدبـوه سيفـــا في الـــوغى مسلـــولا
وغـــدا تسير بـــذكره بين الـــورى
ركبـــانهم عرض البـــلاد وطـــولا

فيرى الأقـــارب والأبـــاعـــد أنـــه

في الملـــك أقـوى السعـــديين دليـلا

☆ ☆ ☆

وكذا وجدنا أمه زينت تقول عن المتوكل :

ولا يصبيـــــه مثـــل دم

لـعــــدى جرى فـــائر

☆ ☆ ☆

ويقول يوسف الفاسي (أبو المحاسن) :

فـــاهتـز عرش الـعـــديين سعـــادة

وانجـــاب عهـــد قـــائم الأيـــام

ويقول المتوكل :

أنـــا الـــذي اهتـز عرش السعـــديين لـــه

فخرا وســارت بمـــا أســـداه ركبـــان

☆ ☆ ☆

ويقول أيضا :

ولعرشي السعدي حصـنـــا لا يقاس به منيعا

☆ ☆ ☆

ومما هو بهذا السبيل وجود كلمة العرش، تقال بذلك الزمان في مدلولها المعروف لعهدنا، مع أنها لم تكن تقال وعند المغاربة بصفة خاصة، إلا في حق الله «ذو العرش العظيم».

وقيل على عهد النبي، في حق سعد بن مالك :

ومـــا اعتـز عرش اللـــه من أجـل مـالـك

سعنـــا بـــه إلا لسعـــد بن مـــالـــك

هذا وهي صادرة عنا. أما ان كانت صادرة عن هرون البرتغـالي واليهودي، كمـا أن الصفحـة 705، فهـذا على اعتراض عليه وهي في لغة TRONO.

حقيقة أنها وردت، بجرد اللغة مرادفة لكرسي «نكروا لها عرشها» ولكنها لما دخلت الحيز الإلهي صارت مختصة به، لـدرجـة أن المغاربـة، لم يعودوا يستعملون حتى كلمة «الملك» إلا في حقه تعالى، عدا الدولة الموحدية التي قال الجراوي مخاطبا عبد المومن الخليفة :

ملـــك الملـوك لقـــد أنفت إلى العـلا

ونظرت من فـــوق إلى الأقـــدار

فنراه قد اشترط بأن جعله «ملك الملوك»، ولم يكتف بهذا، بل جعله ينظر من فوق إلى الأقدار الإلهية تحته.

فما أشبهه بابن هانئ القائل لحامل مظلة الخليفة العبيدي :

أمـــديرهـــا من حيث دار لشـــد مـــا

زاحمت تحت ركـــابـــه جبريـــلا

وفي العهد العباسي، كان لقب «ملك الملوك» من الألقاب السامية لرجال الدولة العظام.

وقد ترددت كلمات العرش كثيرا في هذه المسرحية، ولم يكن لها وجود في ذلك العهد، كما لم يكن وجود لكلمة «شعب»، في مدلوله المعروف لعهدنا، وهي صادرة عن، أما إن كانت صادرة عن غيرنا كما روى فلا اعتراض كذلك 7106.

ولهذا فلا يعقل ورودها عن عبد الملك، في نحو :

ومن نفسي أعـــــــــز على شعبي

وقـــد لبس العلى والمجـــــد بردا

ثم قول أبي هاني، القائد :

حيـــاتـــك غير حيـــاة شعب

بـــأجمعـــه وإن تـــك أنت فردا

ألا فلتكن أنـــــدى وأكرم دعـــوة

يطـــوقني والعرش منهـــا جميـــل

أو ابنه إسماعيل في نحو :

وكيف لـــه العرش (هنـــد) يـــدين

وقـــد زل للـــــدرك الأسفـــل

كما لا يعقل عن أحمد قائلا لأخيه عبد الملك :

تحيـــــــاتي أمير المـــــومنين

ودمت لشعبـــك الركن الركينـــا

☆ ☆ ☆

أو قوله :

فمن للشعب يأخذ حقه من ظالم جائر

وليس بـامع من شعبه أم أول ناظر 71

أو قوله له :

الشعب هنــــالـــك يـــامــولا

ي أكبر من أن يستعبـــــــــــــد

ونفس الملاحظة، تقال هنا على كلمة «يستعبد» في كلمة «عصرية» لم تكن تستعمل في مدلولها المعروف آنذاك بل كانت تطلق إطلاقا لغويا، مجردا عن إطاره المعروف لعهدنا، فقد قال عمر :

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»

فما أحوجنا إلى قاموس لغوي، كما عند الأوربيين، لتحدد المدلول الذي تستعمل فيه الكلمة في زمن من الأزمان وكذلك يقال في كلمة «القدس» فإنها دخلت حظيرة الألوهية، فلم يعد لها ظهور خارجها، ولهذا فلا يعقل وجودها آنذاك في قول إسماعيل مذيلا قول أمه :

كـــذلـــك اصطنبـول تنصف من لـــه

ولايـــة عهـد الشيخ قـدس من عهـد

☆ ☆ ☆

نعم إنها في الحظيرة اللغويـة المجردة وجدت في القرآن، وصف لغير الله «الوادي المقدس» ولكنها بمدلولها الحالي فلا وأفظع ما وجدت فيه منسوبة لذلك العهد، قولة عبد المالك التي استنطقته المسرحية إياها، وهي :

وقداسة البابا (ذيلها داود) ألوف ساقها سوق السوائم.

أما قول كسبارو :

وقـداســة البـابــا بــذلــك كلــه

أدرى وكم يرجــو لــــه إخفــــاء

فهذا لا اعتراض عليه، كما لا اعتراض على جيلنا المقلدين لغيرهم حينما يستعملونها، أما مسلم ذاك العهد فلا قطعا ومن الكلمات التي لم تكن تروج آنذاك، كلمة «وطن» بمدلولها المعروف لنا الشامل العام، فإنه كان يطلق على المكان الخاص الذي يعيش فيه الإنسان، مدينة أو بلدة أو قرية مثلا، ولهذا حينما نسمع المعتمد بن عباد يقول :

أن يسلب القـــــوم العـــــدا

وطني وتسلمني الجمـــــــوع

فـــــالقلب بين جـــــوانحي

لم تسلم القلب الضلـــــــوع

فهو يعني إشبيلية التي اقتحمها عليه المرابطون، ولا يدخل مثلا قرطبة التي كانت في حكم ابنه، وقد نسب إلى النبي عليه السلام «حب الوطن من الإيمان» فهذا يعني المكان الذي نشأ فيه أو عاش به لا مايعنيه الآن ولذلك نعد وجود الكلمة بمعناها «العصري» لذلك العهد غريبة عليه، كما في قول عبد الملك مناجيا الله تعالى :

لأمرك أسلست القيــــــاد وليس لى

ســواك إلى مـــا ابتغيـــه سبيـــل

ولي وطن إن لم أجـــد بحشـــاشتي

دفـــاعـــا عليـــه إنني لبخيـــل

أو قول أحمد :

وإن لنـــا وطنـــا يفتـــدى

وعرشـــا لإعـــزازه نسهر

أو قول زينب

هـــو الجـــو في وطني يحتلـــك

فحتـــام صبرك عبـــد الملـــك

أو قول عبد الملك ومجيبا رمضان :

ممن اذم : من غـــادر بـــالــوطن

على هـــوى محمـــد بن الحسن

وأول من استعمل الوطن بمدلول Patria هم الأتراك في عصر النهضة كما استعملته قرنا، فقال نافق كمال، كما أظن :

اسلـــدكيـــه المنرك

وضنـــــــــد هرتقى

كـــلان امراده ديـــور

بـــاق بـودر اللــه لسى

وعند الأروبيين اشتقاقه من الابوة، بينما اشتهر الأتراك «آناضول» من الأمومة، لأن كلمة «أنا» معناها الأم، والمقطع «ضول» أو «طول» معناه الملك، «فأنا طول» يريد بها الأرض المليئة بالأمهات، مثل «پر» الفارسية أو ful الإنجليزية، كلتاهما مقطع، ياتى في الفارسية سابقا وفي الإنجليزية لاحقا، كما هو في التركية هنا.

ومما له اتصال بالتاريخ كذلك ورود اسم الطليان، في قول هرون :

من دولة الإسبان والطليان والألمان قادم

فإن القطر الإيطالي لم يكن يعرف بهذا آنذاك، بل كانت مقاطعات، يعرف بعضها بالبندقية، وأخرى بجنوة، وهكذا، باقي المقاطعات أو الإمارات، التي كانت بعضها محكوما بالإسبان، مثل Lepanto التي انكسر في مياهها الأسطول العثماني، على يد الأسطول القطلاني الإسباني.

وكذلك كلمة «هولاندا» لم يكن لها وجود آنذاك، بل كانت تسمى «الحكومات المتحدة».

ويتصل بهذا كذلك كلمة العاهل، فإنها من مواليد هذا القرن الميلادي؛ ولعل الملك فيصل الأول أول من قيل فيه فلا يعقل ان تقول زينب :

ها هنا أنت ظل عاهل اصطنبول حقا له غدوت كفا

وتردد ذكرها كثيرا من المرات آخرها :

هنيئا لعاهلنا أن قضى
لنا الله في عهده أن نسودا

ومن ذلك جعل الرسالة لغير النبي، كما نجد لعبد الملك يخاطب العلماء.

مذ حملتم رسالة العلم حملتم ثقيلا من الأمانة إذا

وهو في هذا ينظر أيضا إلى قوله تعالى، مخاطبا الرسول عليه السلام : ﴿إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا﴾، فهو استعمال عصري ومن المآخذ خارج التاريخ، صدور قولة من رضوان حاجب عبد الملك، مفاجأ بموت سيده الملك :

ياويلي من سذج ويلي ؟
ماذا ياربي أرى ماذا ؟

فهذا كلام أشبه بصدوره من امرأة مرتاعة؛ ياويلي ياويلي إلا من الحاجب رضوان الجنوي ومن عدم اللياقة أن يذكر عبد الملك، قائلا في ابن أخيه المتوكل بمحضر ابنه وزوجته :

وتخلبه الطلا فإذا
لها هو سافك عاقر
وأنغام ترددها
على أسماعه عاهر

مضيفا هذا إلى قولة أحمد :

وعليك لله وجه
يضيء لشادن ناضر

فالملوك والأمراء، تتنزه عن وصف غريمها، بهذا الشين، خصوصا في هذا المجلس العائلي بالأم وأبنائها.

ومن الغفلة عن الواقع أن يجعل سبستيان يقول أو يتمثل بهذا المثل القح شنشنة أعرفها من أخزم :

شنشنة نعرفها من أخزما
وكل سعدى بها قد وسما

وإن يجعل هرون البرتغالي ينطق بمثل قح آخر «لأمر ما جذع القصير أنفه».

لأمر ما القصير لأنفه، مولاي، قد جدعا

أعتقد أن أغلب النظارة من عوام المغرب والمشرق، لايدركون فحو هذا الكلام المتقعر ! بل لايدركه واحد من الناس وكذلك حيث نجد داود يقول : عند الصباح يحمد القوم السرى :

وعند الصبح يحمد كل سار
سراه ويفرح المتنجدونا

وهو البرتغالي العسكري ومن هذه الغفلة أن نجعل أحمد المنصور يقول للجمهور بعد بيعتهم له :

وإنني إن أزغ يوْ

ماً، فراض منكم بتقويم عودي

لم يقل هذه الكلمة في الإسلام إلا عمر بن الخطاب، فكيف لأحمد المنصور أن يقولها وهو الذي قال : المغاربة حمقى لاتعقلهم إلا السلاسيل، بل هو الذي حرم هؤلاء المقاتلين، وأسلحتهم في أيديهم وعلى أكتافهم، من الحقوق التي طالبوا بها، من المغانم، بعد انتهاء المعركة وإثر بيعهم إياه..؟! ومن الغفلة، جعل فليب الثاني، يسرج خيله إلى لندن في أنجلترا؛ صادرا هذا عن عبد الملك :

لـــــذاك «فليب» أعلنهــــا ضروســــا

على سلطـــان «لنـــدن» بـــاسم «رومـــا»

فـــأسرج خيلــــه ومشى بجنــــد

إلى «إليـزابيث» قـد فـاقـوا النجـومـا

وفي «أنجلترا» طـــولا وعرضـــا

رعـــوا وخصـــومهم مرعى وخيمـــا

أولا : ما كان لفليب أن يسرج الخيل إلى لندن، بل كان له أن يرسل أسطولا، وهو الذي وقع فكسر في عرض البحر بموقعة أرمادا.

ثانيا، ما كانت أنجلترا تسمى بهذا الاسم، بل كانت تسمى «بريطانيا» باسم الرأس الفرنسي، الذي توجه منه النورمند إلى هذه الجزيرة التي تحضرت بهم، وكان لها ذكر في التاريخ، بعدما كانت مجهولة متهمجة، فهي مدينة في حضارتها لهؤلاء، ولم تسم بأنجلترا، إلا بعد مماة هذه الملكة المذكورة، بدون ما تخلف وارثا منها، لأنها لم تتزوج البتة، فاضطر الإنجليز، إلى أن ياتوا، بملك اسكوتلند ابن الملكة «ماري» التي كانت «إليزابت» قد تمكنت منها وقتلتها، فجعلوه ملكا عليهم، وبذلك أصبح ملكا، على المملكتين معا، فأصبح لهما اسم متحد وهو Eengland التي سماها الإسبان على عادتهم وفي تعريبهم كما تقول Englaterra، كما فعلوا في New yourk فقالوا Nevayorc، فسمينا نحن الجزيرة بالاسم الإسبان لاتصالنا بهم، ولم تتصل بلغة الإنجليز إلا متأخرا بعصرنا والكلمة منسوبة إلى Engle أحد الطيطونيين Teutonicpeoples الذين استقروا بالجزيرة Britain.

ثالثا : إن موقعة «أرمادا» لم تقع في حياة عبد الملك، حتى يتحدث عنها.

رابعا : كان اللازم والحالة هذه أن يكتب «فليب» هكذا، وعبد المالك، يتحدث عنه...

ولا أدري كيف تأتى الوزن في «إلى» إليـزابيت» قد عاقوا النجوما» وضبط الاسم بالكسرة ؟.

وأرى أن الوزن يقتضي إزالة «قد» عن ساحته، وهو صادر عن الشاعر الذي نقر جميعا بشاعريته.

خامساً : وأخيرا، فإن هؤلاء، لم يذقوا الهزيمة، ودرعوا وخصومهم مرعى وخيما وفي أنكلترا طولا وعرضا» بل أصيبوا في البحر، حيث هبت الأعاصير على أسطولهم «أرمادا» فتسنى الأسطول الإنجليزي، أي مجهز عليه...

وكما لم يتقيد المؤلف في الفصل الأول، بالوقائع التاريخية، كذلك لم يتقيد بها في الفصل الأخير منها، حيث جعل المتوكل يقع أسيرا بيد جيشنا، كما فعل ذلك في حق سبستيان، وكلاهما ما وقعا، ولا انتحر الأخير منهما، فنهايتهما معروفة للكتاب المعاصرين والمشاركين في الملحمة ونشرنا ذلك كله فيما نشرناه بمجلتي تطوان ودعوة الحق، فلا داعي لنأتي بذلك المشهد المزعوم حتى ولو كنا نرضى به النظارة، إن هدفنا إليهم به، خصوصا والمسرحية أصبحت تدرس للتلاميذ والطلبة ولا تمثل على الخشبة، إن كان هذا هو المقصود منها ومن المستحيل أن تمثل إلا في «فيلم» سينمائي، أما في غير هذا فقد سبق أن مثل ما أستطيع منها على مسرح الطياطرو «سيرفنطس» بطنجة أواخر العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات، وأدى التمثيل مهمته الفنية والاجتماعية والوطنية.

وقد وقعت أخطاء لغوية ونحوية وتصريفية، تركنا التنبيه عليها حتى لانطيل بها كماوقعت تصحيفات طفيفة

في ضبط الكلمات خاصة، فإن لاتكن تصحيف في أخطاء كذلك.

ومن قبيل الإفادة فقط نعلق على التعليق الوارد في الصفحة أو حول كلمة بابا فإن هذه الكلمة كانت شائعة في التركية، تعظيما، كما كانت تطلق على الأب والابن، لدرجة أن أحد كتاب الإنجليز المعاصرين، استغرب استعمال كلمة الأب مطلقة على الابن.

ونحن نعلم أن المنصور لما كان يكتب إلى ولي عهده المامون كان يفعل هذا، كما نجد في كتب التواريخ ذلك مسطرا منها كتاب «نزهة الحادي» لمحمد الصغير الأفراني المراكشي.

وهذا الكتاب وإن تأخر قليلا فيلحق بالكتب المعاصرة لهذه الدولة ولا بأس وقد خضنا في هذا أن نأتي بمثال أو مثالين من تلك الأخطاء، جاء في البيت :

إلهي خذه جارك ينطلق في بحر تسبيحك

قال هذا رضوان حاجب عبد الملك، لما مات، يدعو له «متجها» نحو السماء.

وأخذ الله للإنسان يرد في مناهل العقاب، كما في القرآن : ﴿**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، ثم أخذتهم فكيف كان عقاب أخذنا أهلنا بالبأساء والضراء، أخذنا آل فرعون، وأخذنا الذين ظلموا، فأخذناه وجنوده، فأخذناه أخذا وبيلا، أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون**﴾ إلى غير هذه الأمثلة التي تعد بالعشرات في القرآن، ومنها وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم.. إلى قوله : ﴿**أفتهلكنا بما فعل المبطلون**﴾ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ والكنف، بل بلى، باب أخرى، هي باب، وهل سوف.

فعلت طريق نور للرجال، بدل صنعت، فهناك فرق بين فعل وصنع، وعمل، وجعل، لابد أن يراعى باللغة وأخيرا نتساءل مافائدة هذه الأبيات :

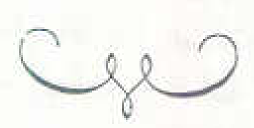
كـــذا فلنشف في الأعمـــاق داء
لنـــا الإســلام أورثـــه دفينـــا

سنحطم ركنـــه مهمـــا تـــامى
لكي ينحـــط أسفـل ســافلينـــا

ومـــا كـفيـــه يثرب من عـــديـــد
لنـــا في الظـــالمين المسرفينـــا

أمـــا كان الاستغنـــاء عنهـــا لائقـــا بنـــا

تطوان : محمد بن تاويت



كتاب

الاستقصاء والإبرام في علاجات الجراحات والأورام [1]

تأليف: محمد بن علي بن فرج القربري المعروف بالشفرة
عرض وتقديم: الأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

لقد بلغت العناية بالطب عند العرب أن جعلوه من علومهم الضرورية لحفظ الأبدان، سواء فيما يتعلق بالطب الوقائي، أو الطب المعالج بالأدوية، أو الطب الجراحي، وكانوا يمزجون الوقاية الصحية بالأخلاق الإسلامية العامة.

أما العلاج فكانوا يربطونه بالدراسات العلمية الموضوعية المتعلقة بتشخيص الأمراض وبالبحث عن وسائل العلاج، عن طريق دراسة الأعشاب ومنافعها وما يمكن أن يستفاد منها في المجال الصيدلي، زيادة على دراسة أنواع المعادن والأحجار.

وأما الجانب التشريحي فكانت أعمالهم فيه دقيقة، يتتبعون ما جربه السابقون من علماء الطب في العالم، سواء كانوا عربا أو غير عرب، ثم يضيفون إلى ذلك ما توصلوا إليه بتجاربهم الخاصة.

ولقد امتاز العرب بحب التطلع، وبالجرأة على المواجهة، وبتكرار التجارب، وملاحظة النتائج، إلى أن بلغوا في التشريح مبلغا عظيما.

ومن أهم ما كانوا يمتازون به في الميدان الطبي، ذلك التعاون الذي كان يحصل بينهم، سواء كانوا من سكان المشرق، أو من سكان المغرب، وقد كان المغاربة والأندلسيون ضمن العلماء الذين عالجوا مرضاهم بإخلاص، وبحثوا عن وسائل التطوير الطبي في كل المجالات، لا فرق في ذلك بين مجال التشخيص أو مجال العلاج بالأدوية، أو مجال العلاج بالجراحة إذا اضطروا إليها.

ونحن لا يمكننا أبدا أن ننسى من بينهم أمثال الزهراوي، وابن طفيل، وبني زهر، ولسان الدين ابن الخطيب، والغساني، وغيرهم من الأعلام المشهورين الذين أسهموا بمعرفتهم في ازدهار هذا العلم وفي إرساء قواعده. فهم قد عملوا جهد مستطاعهم للاستفادة مما كتبه أطباء المشرق كالرازي، وابن سينا، أو مما كتبه اليونانيون كجالينوس وأبقراط. أو مما وجدوه عند الأطباء الهنديين والفارسيين وغيرهم.

وإذا كانت الظروف قد جعلت لبعض الأعلام الماهرين شهرة كبرى في العالم الطبي، فإن بعض الأطباء

1) كتب هذا البحث في شهر يونيه عام 1986 وأذيع آنذاك بالإذاعة الجهوية لمدينة فاس عبر الأمواج الوطنية ضمن البرنامج الذي يحمل اسم (نصوص وهوامش).

الذين كانوا دونهم في المعرفة أو في الشهرة قد احتفظت بهم كتب الطبقات، وتحدثت عنهم وعن أعمالهم وعن مؤلفاتهم، ومن بينهم الطبيب الأندلسي، **محمد بن علي ابن فرج الفهري المعروف بالشفرة**[2].

☆ ☆ ☆

ولد هذا الطبيب بمدينة قربليان، وهي مدينة من مدن الأندلس كان يسكنها المسلمون الذين يعيشون تحت حكم النصارى، وهم المعروفون بالدجن، وتعلم صناعة الطب من بعض رجال الروم. ذكر منهم في بعض كتبه أستاذه المعروف بالمستر برنار[3]. وقد ذاع صيته حينما ذهب إلى وادي آش، حيث اتصل بالملك الرابع من ملوك بني الأحمر، وهو نصر بن محمد بن محمد بن نصر، وعالجه من مرض ألم به، الشيء الذي دفع هذا الملك إلى مساعدته والاعتناء به والعمل على تنمية تجاربه، وذلك بإعداد حديقة مشتملة على مختلف النباتات والأعشاب، ليتصرف فيها تصرف العالم الخبير، وليستمد منها ما يحتاج إليه من تركيب الأدوية وإعداد المشروبات والمراهم.

ولقد تنقل بعد انتهاء حكم هذا الملك في بعض مدن الأندلس، وانتقل إلى المغرب فاجتاز إلى سبتة، وتوجه إلى مراكش، وزار مدينة مكناس، وسكن بمدينة فاس، وتولى علاج بعض المرضى فيها، ثم رجع في آخر حياته إلى غرناطة حيث وافاه الأجل المحتوم، في اليوم السابع من ربيع الأول عام واحد وستين وسبعمائة 761 هجرية.

تحدث عنه ابن الخطيب في الجزء الثالث من كتاب الإحاطة فقال عنه ما يأتي[4].

«كان رجلا ساذجا مشتغلا بصناعة الطب، عاكفا عليها عمره، محققا لكثير من أعيان النبات، كلفا به، متعيشا من عشبه أول أمره، وارتاد المنابت وسرح بالجبال، ثم تصدر للعلاج، ورأس به وحفظ الكثير من أقوال أهله، ونسخ جملة من كنانيشه على ركاكة خطه، وعالج السلطان نصر المستقر بوادي آش. وقد طرق من بها مرض وافد حمل علاجه المشاقحة لأجله وعظم الهلاك فيمن اختص بتدبيره فطوف القلب المبارك بمبراه ثم رحل إلى العدوة وأقام بمراكش سنين عدة. ثم كر إلى غرناطة في عام واحد وستين (أي وسبعمائة) وبها هلك على إثر وصوله».

وقد أشار ابن الخطيب أيضا إلى مشيخته فقال عنه : إنه زعم أنه قرأ على أبيه ببلده من قربليان بلد الدجن، وأخذ الجراحة عن فوج من محسني صناعة عمل اليد من الروم، وقرأ على الطبيب عبد الله ابن سراج وغيره.

ثم ذكر أنه ألف كتابا في النبات.

☆ ☆ ☆

ورغم هذه الترجمة التي حاول فيها ابن الخطيب أن يعطينا صورة دقيقة لهذا الطبيب الأندلسي، فإنها لم تكن كافية في معرفة حقيقته وطريقته ولا في معرفة منتجاته العلمية الأخرى.

وقد واتتنا الفرصة في الاطلاع على كتاب قيم من كتبه التي ألفها في مجال اختصاصه وهو الكتاب المسمى **«بالاستقصاء والإبرام، في علاج الجراحات والأورام»** وتتبعنا محتواه، فاستفدنا منه كثيرا من أحواله، واطلعنا على بعض نظرياته، وعلى مدى ثقافته، وعلى مصادر المعرفة التي اعتمد عليها، وعلى تجاربه التي مارسها، وعلى بعض المدن التي زارها، وعلى أسماء بعض المرضى الذين عالجهم، وعلى بعض الأحداث التي واجهته في عمله، وعلى غير ذلك من الفوائد التي تعين على دراسة شخصيته ومعرفة قدراته العلمية المختلفة.

☆ ☆ ☆

توجد من هذا الكتاب نسخة بخزانة القرويين مسجلة تحت رقم 1265 مكتوبة بخط مغربي جميل، تحتوي على أربع وستين ومائتين من الصفحات المتوسطة ذات المقياس 23 × 17، في كل صفحة أربعة عشر سطرا. وقد تم نسخها عام 1126 هـ على يد السيد علي بن أحمد الطنجي البلغيثي رحمه الله.

2) في نسخة خزانة القرويين لقب بالشنفرى ولم يلقب بالشفرة كما عند لسان الدين ابن الخطيب في الإحاطة.

3) اعتمدنا في ذكر اسم أستاذه هذا على ما حققه الدكتور رينو في مقاله حول هذا الكتاب بالجزء العشرين من مجلة هسبريس عام 1935 لا على الصورة التي كتب بها داخل النسخة (وهي برناد).

4) الطبعة الأولى بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان صفحة 179.

ورغم جمال خطها فهي تحتوي على أخطاء كثيرة ناتجة عن سوء النسخ، وقد كانت مبتورة من الأول، فأضيفت إليها الورقة الأولى بخط مغاير، ويمكن تصحيح أخطائها بالمقابلة مع النسخ الموجودة من هذا الكتاب.

وقد استطعنا أن نتوصل إلى بعض هاته الأخطاء من خلال بعض الفقرات التي استشهد بها الدكتور رينو في بحث له حول هذا الكتاب نشره عام 1935 بالجزء العشرين من مجلة هسبريس، وأشار في بحثه هذا إلى نسختين اعتمد عليهما. وأما نسخة القرويين فقد اكتفى بالإشارة إليها فقط، مستندا في ذلك إلى لائحة كتب هاته الخزانة التي نشرت بالجزء الثامن عشر من مجلة هسبريس أيضا عام 1934. ولعله لو اطلع على هذه النسخة لاستطاع تحديد أخطائها وإظهار ما فيها من الخلل الذي كان يودي أحيانا إلى فساد المعنى وتحريف المقاصد[5].

☆ ☆ ☆

وقد قسمه مؤلفه إلى ثلاث مقالات :

المقالة الأولى : في الأورام.

المقالة الثانية : في الجراحات وإخراج السهم والجبر.

المقالة الثالثة : في الأدوية المفردة والمركبة.

وذكر في مقدمته أن الدافع إلى وضعه هو تيسير المعرفة لمن اختار هذه المهنة، وتمهيد سبيل الإتقان لمن اتجه إليها، إذ ليس من المعقول أن يكون من يتجه إليها جاهلا بقوانينها، غير مطلع على حدودها وبراهينها، ولعل من المفيد أن نذكر هذه الخطبة بأسلوب مؤلفها لنرى الدقة التعبيرية الدالة على الإيجاز في تحديد المقاصد، والدقة في البلوغ إلى الأهداف.

قال المؤلف :

«الحمد لله الذي شرف بالعلم من شاء على جميع مخلوقاته، وجعل العقل موصلا إلى فهم موضوعاته، وأوجد الأدواء لدفع المضرات، حكمة لطيفة عمت جميع موجوداته، وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه برسالته وآياته، وأنقذنا به من غي الشرك وظلماته، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته، وسلم تسليما كثيرا لا انقضاء لغاياته.

أما بعد، فإني لما رأيت صناعة الجراحة من أغمض أصناف الطب، وأكثرها جريا منها على المركب الصعب، والناظرين فيها ممن لم يعرف قوانينها الغامضة الاستقصاء، ولا عنده علم بالتشريح ومنافع الأعضاء، اقتصروا على الكنانيش المضلة، وأقدموا على الأمر بغير البراهين والأدلة، استخرت الله تعالى في تأليف كتاب يحصر علاجها، ويضبط عمومها واندراجها، ليكون لمن طالعه وتفقه فيه من أهل هذه الطريقة الطالبين عليها قانونا يقتدى باحتذائه، وسراجا يستضاء بضيائه، وسميته **بكتاب الاستقصاء والإبرام في علاج الجراحات والأورام.**

ثم ذكر بعد ذلك أنه ضبطه في المقالات الثلاث التي سبقت الإشارة إليها.

☆ ☆ ☆

إن هذه المقدمة التي جعلها المؤلف خطبة لكتابه تدل على حسن أخلاقه، وتصور حبه لمهنته، ورغبته في ارتقاء مدارجها، فهو لا يبخل بالمعرفة على معاصريه، ولا يريد أن يستأثر بها دون غيره، ولهذا ستراه في صلب الكتاب حريصا على الدقة في العرض، وعلى الإحالات الصادقة الدالة على نزاهته العلمية وعلى أمانته المهنية.

5) بعد إذاعة هذا البحث بنحو نصف سنة كتب الأستاذ محمد العربي الخطابي حول هذا الكتاب مقالا بمجلة المناهل العدد 35 دجنبر 1986 وقال إنه سينشر نصه كاملا معتمدا في ذلك على نسختين إحداهما محفوظة بالخزانة الحسنية ورقمها 1716، والثانية محفوظة بالخزانة العامة للكتب والوثائق بالرباط ورقمها 1163/د، وبودي لو يضيف نسخة القرويين إلى عمله هذا.

إنـه في كتـابـه لا يهمل ذكر المصـادر، ولا يغفل عن ربط المعلومات بمن صدرت عنهم، ولكنـه في الوقت ذاتـه كان يشير إلى اجتهاداته الخاصة وأعماله القياسيـة، وهو في كلتا الحالتين، كان يثير انتباه المتعلم ويدفعه إلى استخدام ذكـائـه واستغـلال معرفتـه. وكـان ينصـح دائمـا بـاجتنـاب المجـازفـات، واجتنـاب الطمـع، والابتعـاد عن الـولـوج في المصاعب المهنية لئلا يقع الطبيب فيما لا تحمد عقباه.

وكان في الغـالـب يحـدد مواطن الخطـر، ويبين بعض الحالات التي لا ينتظر شفاؤهـا، وبعض الإصابـات التي لا ينفع فيها علاج، ويقارنها بحـالات أخرى قـابلـة لمغـامرات الأطباء إذا كانت لهم خبرة بالمهنـة، ومهـارة في الصنـاعـة، وذكـاء في حسن التصرف، ويمكن الاطـلاع على ذلـك من خلال ما كتبه لتتجلى لنا قدراته العلمية حسب الإمكـانـات التي كانت في عصره، وسنتولى ذلـك بإيجاز وفق الخطـة التي سار عليها، ووفق الترتيب الذي انتهجـه. وسنعمل على تبيلغ معلوماته ليكون ذلك حافزا لذوي الاختصـاص الطبي والجراحي في التعمـق في التحليـل وفي المـوازنـة بين مـا وصل إليه الطب الحـديث، ومـا كـان عليـه الطب في عصر المؤلف، لنعرف مدى تأثير أمثال هؤلاء الأطبـاء في التقـدم العلمي. ونشرع في تقـديم مـا ذكرنـاه حسب ترتيب موضوعات مقالاته نظريا وتطبيقيا.

☆ ☆ ☆

المقالة الأولى المتعلقة بالأورام

تحدث في هذه المقالة عن أسباب الأورام وعلامـاتها وعـلاجـاتهـا، وأشـار في مقـدمتهـا إلى الاقتبـاس ممـا ذكره جالينوس في رسالته لاغلوقن ومما ذكره في غيرها.

أما عن **أسباب الأورام** فقد حصرها في سببين :

السبب الأول : تفرق الاتصال المـؤدي إلى انفتـاق العروق، فينصب الـدم إلى المواضع الفـارغـة ويملـؤهـا دمـا فيتولد الورم.

السبب الثاني : سوء المزاج الذي يكون عند ضعف القوة التي تؤدي إلى قبول الفضل المنصب للعضو.

وقـد قسمهـا إلى قسمين : حـارة وبـاردة، وحـاول أن يربط بين الأورام النـاتجـة عن كثرة الـدم، وبين التي تنتج عن التعفن، وبين التي تنتـج عن المرة الصفراء، وهـو في كل ذلك يحـاول التـدرج بـالقـارئ إلى الوصول إلى معرفـة الأسباب وتشخيص العلامـات المميزة لكل نوع من أنواعهـا، فأوصلها إلى ستـة وثلاثين نوعـا. وحـدد كل نوع منهـا على حدة. وبين علاماته وطرق علاجـه، وقـد كـان في كثير من الأحيان يتحدث عن الأدوية المفردة، وعن الأدوية المركبة، ويشير إلى بعض مركبات الزهراوي، كما يشي إلى المقـالـة الثـالثـة التي هي أقرب إلى علم الصيـدلـة منهـا إلى علم الطب.

وإذا تعذر العلاج بالأدوية وحدهـا، وكـان الورم في حاجة إلى عمليـة جراحيـة، فـإن المؤلف يـأمر بـالاحتيـاط اللازم في إجراء العمليـة، ويشير إلى أن الجراحـة صنـاعـة تحتـاج إلى دربـة ومهـارة وإلا هلـك المريض، وفسـدت أعضاؤه، ويقول في هذا المجال ما يأتي : (ص 27).

«اعلم أن البـط صنـاعـة عظيمـة يقصد فيهـا الـدرب العارف بالتشريح، وإن كان الورم صغيرا فالصواب في بطه أن يكون بالطول، ولا يترك له زاوية بسبب الشق إذا كـان العضو مستقيما. فإن كـان في الأعضـاء التي تنثني فـاذهب بالبط مع الانثناء. وتحفظ عند الشق بالبـط لئلا تكون المرة بعيـدة، ويكـون هنـاك شريـان أو وريـد أو أحـد الأنهـار الكبار، فيصير إليه المبضع فينزف دم العليل، فتعظم بليتـه، فإياك والتغافل في مثل هـذه المواضع، فـالله يرشـدك إلى النجاة، فإذا بططته وسـال مـا فيـه من المرة فتعـالجـه كمـا تقدم فيبرأ بعون الله تعالى».

ولقد تنبـه إلى أن بعض الأورام لا يكفي فيهـا البـط، وإنما يضطر معالجها إلى استئصالهـا مع العضو الموجود بـه، وذلك مثل المرض الذي سماه بعنقوريا وهو المعروف حاليـا بكنكرين.

إن هذا المرض يتسبب عن انسداد العروق المودي إلى سد منافس الجلد، فيعدم العضو العليل التنفس والتحليل، فيصير إلى حال الموت، وهنا لا ينفع علاج إلا بقطع الجزء الميت ليسلم الحي، وإلا انتشر الفساد وعم المرض. وقد أرجع المؤلف اسم هذا المرض إلى اللغة اليونانية وقال إن معناه : «ما قد مات وفرغ».

واستطاع المؤلف أن يركب دواء يتيسر به فصل اللحم الميت عن اللحم الحي، ليتسنى له بعد ذلك القطع بمنشار رقيق لطيف، وقد جرب هذه العملية مرارا، واستعمل بعد القطع مراهم تحفظ الجسم من التعفن، وتحول بين العضو وعودة المرض إليه (ص 67).

ولقد ذكر في مكان آخر أن الجهال من الأطباء قد يتسببون في مرض شبيه بالعنقوريا إذا لم يحسنوا ربط بعض الأعضاء المكسورة، لأن ذلك الربط ينبغي أن يكون وفق خطة سليمة حددها في مكانها وأبان عن كيفيتها.

وهكذا نراه في كتابه لا يقتصر على وصف العلاج وتحديد عناصر الجراحة، وإنما يضيف إلى ذلك أسباب الأمراض، ويدعو إلى الاحتياط والاحتراز لئلا يصبح الطبيب المعالج جاهلا بمهنته، ضارا بمن التجأ إلى مساعدته. ولهذه الغاية ذكر في هذه المقالة بعض الأسباب التي يمكنها أن تكون حائلة بين المريض والشفاء ليطلع عليها الطبيب، وليجعلها ضمن احتمالاته. وهي في الواقع تعد من أنفس المقالات العلمية في عصرها، لأنها سايرت مختلف الأنواع التي يمكن ملاحظتها، سواء كانت ناتجة عن أسباب داخلية أو أسباب خارجية، ويستطيع المختصون من الأطباء أن يستنتجوا منها أشياء كثيرة، وأن يربطوا بين ملاحظات المؤلف وبين حقيقة تلك الأمراض بالنسبة إلى الطب الحديث.

هذا وإن الذي يقرؤها - وإن يكن لم طبيبا - فإنه يحس بقدرة المؤلف على استيعاب الموضوعات، وعلى المزج بين المتقارب منها، وعلى إبراز الترابط بين بعضها ببعض، وعلى إظهار المراحل التي تمر بها بعض الأمراض، وعلى الحدود التي تفرق بين ما يحتاج منها إلى العلاج بالأدوية، وبين ما يحتاج منها إلى العلاج بالجراحة.

إن المؤلف يمتاز بدقة ملاحظته وقدرته على الوصف للأعراض والأمراض، وعلى تفسير العلل والأسباب، وعلى ذكر الوسائل الوقائية، وعلى تحديد العناصر الضرورية للعلاج، وعلى تفسير ما يمكن أن يقع من الموانع العارضة التي تتسبب في تأخير العلاج أو انعدامه وكيف يمكن التخلص منها.

وقد ذكر أن تعذر علاج بعض الأورام أو الجراحات يرجع إلى سبب أو أكثر من أسباب تسعة لخصها فيما يأتي :

أولا - سوء مزاج العضو أو جملة البدن.

ثانيا - صلابة في شفتي الجرح.

ثالثا - لحم فاسد في الجرح.

رابعا - عظم فاسد.

خامسا - قلة معرفة المعالج.

سادسا - عدم موافقة العلاج.

سابعا - خاصية في البلد.

ثامنا - كثرة المرة.

تاسعا - كثرة الوضر.

ثم ذكر بعد ذلك لكل سبب من الأسباب طريقا من طرق التخلص منه والتغلب عليه فقال (ص 117).

«فإذا رأيت جرحا من الجراحات أو ورما قد أبطأ اندماله، فانظر إليه إن كان ذلك لسوء مزاج العضو، فخذ في تعديل المزاج حتى ترده إلى مزاجه الطبيعي، وإن

كان لصلابة في شفتي الجرح فاجعل عليها الأدوية المحللة للصلابات، وإن كان اللحم فاسدا فاجعل عليه الأدوية التي تأكل اللحم الفاسد، وإن كان العظم فاسدا فاخرج العظم واجرده إن أمكن ذلك، وإذا كان لعدم موافقة العلاج فأبدله بعلاج موافق، وإن كان لعدم معرفة المعالج، فإذا دخلت عليه تعمل فيه ما يظهر لك بالمعرفة، وإن كان لخاصية في البلد تنقله منه إلى غيره حتى يبرأ، وإن كان لكثرة المرة فتعالجه بما يجففه، وإن كان لكثرة الوضر فتجعل عليه ما يجلو الوضر، ولا تخرج عن طريق الصواب كما قدمت، وأن يكون علاجا بما تقتضيه الأورام عند الابتداء والتزيد والانتهاء والانحطاط. واعمل في كل واحد من هذه الأزمنة ما ذكرت لك ينجح عملك إن شاء الله، والله الموفق للصواب بمنه وكرمه وجوده».

إن هذا النص يعتبر تدخلا دقيقا من المؤلف، وبواسطته يمكن تنمية حاسة الملاحظة عند الطبيب المتعلم فيبحث عن الأسباب الدافعة إلى المرض، أو الدافعة إلى تأخر العلاج، ويستنتج من المعطيات التي بين يديه أقرب السبل إلى شفاء المريض أو إلى التخفيف من أعباء مرضه.

ولا يمكن الاستفادة من هاته الملاحظات إلا لمن درس الكتاب دراسة متأنية شاملة، لأن هذه الملاحظات التي قدمها المؤلف للتخلص من هذه الأسباب التسعة جعلها خاتمة لمقالته الأولى وتلخيصا لمحتوياتها، ولا يقدر على تطبيق شروطها إلا الخبير الذي درس الكتاب واستوعبه وتعمق في فهم محتوياته.

إن إخضاع هذه الملاحظات للجانب العملي يحتاج إلى دراية دقيقة بموضوع الطب، وإلى دراسة متعمقة في معرفة الإنسان وأحواله العامة. ذلك أن منها ما يرجع إلى المريض ذاته، ومنها ما يرجع إلى المرض، ومنها ما يرجع إلى وسائل العلاج، ومنها ما يرجع إلى التفاعل بين المريض والبيئة التي يوجد فيها. الشيء الذي يفرض على الطبيب أن يكون ذا خبرة بمختلف البواعث الدافعة إلى تأخر العلاج أو تعذره ليعمل ما في وسعه للتغلب عليها وللسيطرة على عناصرها. وقد نبه بالفعل إلى كثير من ذلك، ورسم للقارئ كثيرا من تجاربه ومشاهداته عساه أن يستفيد منها ويجعلها نماذج يقتدي بها ويسير على منوالها في عمله.

ويمكننا أن نأخذ على سبيل المثال ما ذكره حينما كان يتحدث عن السبب المتعلق بخاصية في البلد، فقد نقل في هذا الموضوع قولة للزهراوي يقول فيها : إن سرقسطة لا تتضح فيها الأورام، وإن أخذت من شرق الأندلس من جرح في جسمه في موضع ما أي عضو كان، فإن دمه يسيل من ذلك الموضع حتى يموت، ولا يقدر أحد على قطع الدم، ولا ينفع فيه دواء إلا الكي.

لكن المؤلف لم يأخذ كلام الزهراوي على أنه قانون حتمي، بل بحث عن الأسباب التي يمكنها أن تكون علة في هذه الخاصة، فرأى أن الأمر قد يكون ناتجا عن حرارة الدم واتساع العروق، فإذا بحث الطبيب عن شيء يبرد الدم ويضيق العروق فإنه يمكنه أن يتغلب على هذه الخاصة، ولهذا ذكر أنه دخل إلى قرية من هاته القرى الشرقية مع الرئيس عبد الله بن خدير صاحب قربيبان من أرض مرسية فتشاجر رجل كان معهما مع أحد رجال القرية، وأدى ذلك التشاجر إلى معركة تسببت في جرح رجل القرية في كتفه. فسال الدم كثيرا، فأخذه أهله إلى الرئيس الذي قدمه إلى المؤلف، وهنا فكر المؤلف في الأمر، واستخدم خبرته الطبية العامة في محاولة إنقاذ هذا الجريح الذي لا ينجو أمثاله في هذا البلد. وقبل الشروع في المعالجة تساءل مع نفسه : ألا تكون هناك أسباب مرجعها إلى خاصية في البلد تؤثر على التكوين الجسمي لمن يسكنها فيؤدي ذلك إلى حرارة في دمه واتساع في عروقه ؟

إنه إذا كان الأمر كذلك فإن العلاج لا يتم إلا بالبحث عن وسائل يستطيع بها الطبيب التغلب عن هذه

الخاصيات، وهذا أمر لا يتوصل إليه إلا باجتماع أمور ثلاثة :

أولا ـ صنع مرهم محلي يعين على تبريد الدم وتقليل حرارته.

ثانيا ـ صنع مشروب مركب من مواد قادرة على تكثيف الدم وتضييق العروق، ولاحظ أن الأفيون وبذور الكرافص يمكن استغلالها في هذا المجال.

ثالثا ـ إخراج المريض من القرية التي جرح فيها إلى موضع آخر لم يشتهر بهذه الخاصية.

إن هذه الأمور الثلاثة يمكن استنتاجها من إطار القصة التي ذكرها المؤلف، ولكنه رغم ذلك فهو قد علل بعضها أثناء العرض فقال (ص 117) :

«ظهر لي أن دماء أهل تلك القرية حارة رقيقة، وعروقهم واسعة، فإذا وجد الدم سبيلا سال منها. فأسقيته الأفيون فبرد دمه وضيق عروقه، فانقطع سيلان الدم بهذا السبب، وهذا فعلته بالقياس، ولم تره لأحد».

ومن هنا نلاحظ أن الشفرة لم يكن يقتصر في العلاج على ما هو مدون، ولكنه كان يستخدم خبرته وتجاربه، ويقارن بين الأشياء وأشباهها، ويخضع معرفته العامة إلى جزئيات خاصة، ويستعمل القياس في البحث عن أسباب الأمراض وفي التفكير في إحداث وسائل العلاج.

إنه إذن كان لا يكتفي بالنقل، ولا يقتصر على الموضوعات المتوارثة، ولا يسجل في كتابه ما أخذه عمن سبقه فقط، بل أصبحت عنده ملكة طبية يستطيع بها استغلال المعطيات التي بين يديه، ليستخلص منها نتائج طبية تنفع المرضى وتساعد على علاجهم، وفي الوقت ذاته تكون حافزا لمن يقرأ كتابه من متعلمي الطب أن يستخدموا مواهبهم، وأن يستغلوا معرفتهم لتطوير علمهم وتقدم صناعتهم. وبهذه الملاحظات أنهى مقالته الأولى.

المقالة الثانية : في الجراحات وإخراج السهم والجبر.

بعد أن أنهى المؤلف حديثه عن المقالة الأولى المتعلقة بالأورام انتقل إلى المقالة الثانية التي خصصها لأمور ثلاثة :

أولا ـ الجرحات.

ثانيا ـ إخراج السهم.

ثالثا ـ الجبر.

وفيما يلي نقدم بعض مضامين هذه الجزئيات حسب الترتيب الذي سار عليه.

أولا ـ الجراحات :

تحدث في هذه الجزئية عن أسبابها البادية، وعن أنواعها، واختلاف مواضعها في الجسم. وذكر أن علاجها يختلف باختلاف نوعها، وباختلاف موضعها، وباختلاف الشخص الذي أصيب بها، ففرق بين الصغير والكبير، وبين المرأة والرجل، وبين الجسم الذي يقوى على المعاناة وغيره، ولهذا قال (ص 121).

«إن هذه الأبدان التي تقع فيها هذه الجراحات قد تختلف معاناتها بحسب كل نوع منها وما يوافقه، إذ الأبدان تنقسم قسمين : الأبدان اليابسة مثل الشيوخ، والخدامين، والحدادين، والبنائين، وأصحاب الكد والتعب، والأبدان الرطبة مثل أبدان النساء والصبيان وأصحاب الدعة والرياسة وكثرة الاستحمام بالماء العذب، وقد استوفاها جالينوس في

حيلة البرء وفي قضاء جالينوس على ما نذكره بعد إن شاء الله».

ففي هذا النص نلاحظ الكيفية التي قسم بها الأجسام من حيث اليبوسة والرطوبة، ليجعل العلاج خاضعا لها، كما نرى أنه يذكر بعض المصادر التي يرجع إليها، إلا أننا ينبغي أن نعلم أنه وإن كان يعتمد في تركيبات الأدوية التي يصفها على بعض من سبقه، فإنه من حين لآخر كما سبقت الإشارة إلى ذلك كان يهتدي بالقياس إلى البحث عن وسائل العلاج، ويجتهد وفق المعطيات التي بين يديه. ليجد سبيلا سهلا لإنقاذ المريض، ولإبعاد الأذى عنه. ولهذا كان يذكر في كثير من المناسبات أن الطبيب الناجح لا يقتصر على التقليد الأعمى، ولكنه يستخدم ذكاءه ومعرفته وظروفه المحيطة به للبحث عن العلاج المناسب.

وقد قسم الجرح إلى نوعين :

النوع الأول : الجرح البسيط وهو الذي قطع فيه اللحم وحده.

النوع الثاني : الجرح المركب وهو الذي قطع فيه مع اللحم عظم أو عصب أو غيرهما.

وذكر أن الجرح البسيط يعالج بجمعه ورده إلى ما كان عليه بغير خياطة إذا كان صغيرا. وبخياطة إذا كان غائرا، وحذر من عدم تنقية الجرح تنقية تجعله في مأمن من التعفن. وأشار إلى وضع بعض الدرور الملحمة وإلى بعض المراهم الصالحة للعلاج، وبين ما يمكن أن تتضاعف به الأخطار المرضية وكيف يجب التغلب عليها.

وبعد ذلك فصل الحديث عن الجروح حسب مواضعها، مبتدئا بالرأس، ثم بالوجه، ثم بالصدر، ثم بالبطن، ثم بالذراعين، ثم بالساقين، وعمل ما أمكنه على تصوير وتحديد كل جرح حاصل في عضو من هاته الأعضاء مع ذكر وسائل العلاج وأنواع العمليات التي تباشر بها هذه الجروح.

وسنحاول إيجاز ما ذكره حسب الترتيب الذي سار عليه.

أولا ـ الجروح الواقعة في الرأس (ص 129).

قبل الشروع في ذكر علاجها ذكر أن أنواعها عشرة حيث قال : اعلم أن جرحات الرأس أنواعها عشرة وهي :

الدامية الصغرى : وهو جرح يخدش الجلد ويخرج منه ماء أصفر مختلط بحمرة.

ثم **الدامية الكبرى :** وهو جرح أكبر قليلا من الذي قبله ويخرج منه دم أصفر يجري.

ثم **الباقرة :** وهو جرح يبقر الجلد، أي يخرقه ولا يصل إلى اللحم.

ثم **الباضعة :** وهو الجرح الذي يبقر الجلد ويبضع اللحم.

ثم **المتلاحمة :** وهو الجرح الذي يقطع لكل جهة يمينا وشمالا وخلفا وأماما.

ثم **الملطاء :** وهو الجرح الذي يقطع الجلد واللحم ويصل إلى السمحاق : وهو الصفاق الذي يلي اللحم.

ثم **الموضحة :** وهو الجرح الذي أوضح العظم.

ثم **الهاشمة :** وهو الجرح الذي هشم العظم ولم يقطعه.

ثم **المنقلة :** وهو الذي ينقل معه العظم أو العظمين وأكثر من ذلك.

ثم **المأمومة :** وهو الجرح الذي ينفذ العظم ويظهر منه الصفاق الذي على الدماغ.

ثم **النافذة** : وهو الجرح الذي ينفذ الصفاق ويخرج المخ...

ونحن إذا قابلنا أسماء هذه الأنواع بما يوجد في كتب اللغة من أسماء الجروح والشجاج فإننا سنجد أنها متفقة معها في بعض المصطلحات، ومخالفة لها في البعض الآخر، ويمكن مقابلة ذلك بما في كتاب فقه اللغة للثعالبي مثلا، فإنه كاف في المقابلة المطلوبة.

وبعد ذكر هاته الأنواع شرع في الحديث عن علاج كل نوع منها، ويمكننا أن نأخذ على سبيل المثال كيف كان يحتاط لبعض الحالات الخطيرة، وكيف كان يوجه عنايته إلى توجيه الراغبين في اكتساب هذه المهنة والعاملين على معرفتها، ونختار على سبيل المثال ما ذكره في علاج المنقلة والنافذة فقد قال (ص 132).

«**وعلاج المنقلة** أن تنظف الجرح بالتنقية وتخرج ما انكسر من العظم متى رأيته صغيرا أو بالجفت، وإن كان كبيرا فما أمكنك من الآلة وتجعل في قعر الجرح على العظم في موضع الشق فتيلة ممدودة من ثوب حرير لتشرب ما يجري إلى ناحية شق العظم من المرة، وتمنعها أن تدخل إلى الصفاق الذي على الدماغ فتعفنه، وقد رأيت من جهال المنتحلين لهذا الشأن من غفل عن هذا وكان سببا لفناء صاحب هذا الجرح فأنت يا بني لا تغفل عن هذا أصلا، وعالجه كما قدمت لك. **وأما الجراحات النافذة** فلا علاج لها إلا الموت».

إن الحديث عن هذه الجزئية ينبغي أن يقاس بزمانها، لنعرف كيف كان يحرص هذا الطبيب على سلامة مرضاه، وكيف كان يواجه بعض المشاكل رغم جسامتها، فإن عملية مثل العملية التي ذكرها في علاج المنقلة تحتاج إلى مهارة وإلى حرص على سلامة الأعضاء من التعفن الطارئ، ورغم تقدم الطب فإن المهارة ما زالت مطلوبة وفق التقدم الطارئ على العلوم، وإن السلامة من التعفن ما زالت مطلوبة في كل آن.

ثانيا ـ الجراحات الواقعة في الوجه (ص 140)

في علاج هذه الجراحات كان يهدف أولا وقبل كل شيء إلى الطريقة التي يمكن معها المحافظة على جمال الوجه ونضارته، ولهذا قال إن الجراحات إذا وقعت في الوجه ينبغي استعمال الرفائد عوض الخياطة، لأن الخياطة تحدث في الموضع زيادة في الجراحات ويبقى أثرها كأنه موضع جرح فيكثر الشحم، والوجه لا يحتمل التغير كما يحتمله غيره من الأعضاء، فالرفائد في ذلك أحسن.

وقد ذكر تجربة وقعت في في علاج رجل وقع على أنفه فأصابه حجر وتقطع الأنف على أربعة، فلم يحتج في علاجه إلى خياطة، كما ذكر مشاهدة رجل تقطع شريانه فلم ينفع فيه دواء.

ثالثا ـ الجراحات الواقعة في الصدر (ص 143).

وهنا تحدث عن الجرح الذي يقع بالحلقوم فيقطعه من غير أن يضر القطع بأحد العروق الحاملة للدم مثل الأوداج وغيرها، وذكر كيفية العملية في ذلك، وتحدث عن تجربة قام بها لطفل قطع له نصف حلقومه فعالجه إلى أن شافاه الله، إلا أنه بعد العلاج بقيت بحة في صوته.

ثم تحدث عن الجروح في فقرات الظهر، فقال : وأما فقرات الظهر إذا وقع فيها جرح وقطع النخاع فلا تطمع في علاجه فإنه يموت بعد أيام يسيرة، ثم قال : وقد رأيت من انقطع له النخاع وبطلت حركة نصفه الأسفل وعاش أربعين يوما وأزيد قليلا.

ثم بعد ذلك صار يتحدث عن جروح الصدر وعن وسائل علاجها، وعن كيفية التحكم في حركات المريض وفي غذائه وفي أنواع الأدوية التي تقدم إليه، وفي كيفية التغلب على ما يصيب العضو من الآلام، وما يمكن أن يتبع ذلك من علاج العظام المتصلة به.

رابعا ـ الجراحات الواقعة في البطن (ص 150)

وهنا تحدث عن الجراحات غير الجائفة، وعن الجراحات التي يخرج معها الترب أو الأمعاء أو هما معا، وعن الطريقة التي يمكن استعمالها لإرجاع ذلك سواء كان الجرح ضيقا أو واسعا أو متوسطا، ونصح من يقوم بالخياطة أن يتحرى الدقة في ذلك وقال (ص 153) :

«ومن خاط جرح البطن ولم يجمع الجلد والصفاق وما بينهما إذا برأ الجرح يبقى بالموضع فتق لا يبرأ أبدا، وينبغي أن تكون الإبرة التي يخاط بها مثلثة أو مربعة ليسهل دخولها في اللحم والخيط يكون من خز مفتول...».

وعلى كل حال فإننا نرى المؤلف يفكر في كيفية الخياطة وفي وصف آلتها ونوع الخيط المستعمل فيها، ثم يذكر معه بعد ذلك أنواع الجروح التي لا يسلم صاحبها نظرا لفداحتها، مثل الجروح التي تمزق المعدة تمزيقا يؤدي إلى خروج الغذاء منها، ومثل الجروح التي تقع في الكبد أو الطحال أو الكلى مما لم تكن الوسائل الطبية آنذاك قادرة على إنقاذ المصاب بها.

خامسا ـ الجراحات الواقعة في الذراعين

ذكر أن الجرح إذا وقع في الساعد دون أن يقطع عرقا أو عصبا أو عظما فإنه يضم بالخياطة ويعالج، فإذا قطع معه العظم فإنه يمد على لوح من الكف إلى آخر عظم الساعد ويربط فيه ولا يكون الشد كثيرا، ويعالج الجرح بالأدوية التي وصفها داخل الكتاب، أما إذا قطع معه عرق ضارب أو نهر كبير، فإنه لا يطمع في علاج صاحبه حسب ما كانت عليه الحالة الطبية آنذاك، وقد أشار إلى أنه شاهد في مدينة بلنسية عملية تتعلق بنصراني ضرب ساعده ونزف دمه من عرق ضارب فحمل في الحين إلى الأستاذ برنار الذي لم يجد سبيلا إلى علاجه إلا بقطع يده. كما ذكر أنه اتفق له في مدينة فاس أن عالج ولدا كسر عظم عضده من الذراع الأيمن وأفسده الجابر بجهله، وصار الذراع معلقا من لحم العضد الذي يعرفه العامة بالملج، وهنا فكر في طريقة يتخلص بواسطتها المريض من عبء يده، إذ لا سلامة إلا بالقطع في هذه الحالة التي إذا لم تعالج بدقة، نزف الدم وهلك المريض.

ونحن نشعر هنا بطريقة غير مباشرة أنه ينتقد من ينتحل مهنة الجبر إذا لم يكن عالما بها، كما ينتقد المرضى الذين لا يختارون من يتولى علاجهم ولا يبحثون عن الماهرين من الأطباء.

سادسا ـ الجراحات الواقعة في الساقين

وبعد أن شرح أنواعها وطريقة التغلب عليها ذكر أنه استدعي لعلاج مريض في إقليم غرناطة ضرب بركز في رأس عضل الساق الأيسر، وقد كان سبقه حجام لم يحسن علاجه فأدى ذلك إلى وجع شديد، وورم في القدم، ثم اسود وفسد، فاضطر «الشفرة» إلى نشر جزء من قدمه، وكاد أن يتم العلاج وأن يلتحم الجرح فرأى أن بقاءه في إقليم غرناطة مع المريض لا فائدة فيه، فرجع إلى غرناطة وقال لأهل المريض إذا أردتم أن تعالجوه فأتوا به إلى المدينة، إلا أنهم لما أتوا به ذهبوا به إلى حجام لم يحسن إتمام العلاج، ولم يستدعوا المؤلف لمراقبة عمله الذي بدأه، فأدى ذلك إلى تورم الساق وارتفاع الحمى ثم إلى الإسهال ثم إلى الموت.

وبهذه الجزئية أتم الحديث عن الجراحات، وقد لاحظنا أنه كان يكثر من ذكر المشاهدات والتجارب، ويعتمد أحيانا ذكر أسماء المرضى وأسماء المدن وأسماء المساعدين مما يجعلنا نتصور القيمة العملية لذكر المشاهدات والتجارب.

ثانيا ـ إخراج السهم

هذا هو الثاني من المقالة الثانية وفيه تحدث عن أنواع السهام وأشكالها ليبني على ذلك وسائل العلاج.

وحيث إن السهام في تاريخ الحروب والمواجهات كانت ذات مفعول قوى في التغلب على الأعداء فإننا نرى أنه بأس من الناحية التاريخية أن نقتبس من المؤلف وصفه لأنواعها فقد ذكر ما يأتي (ص 165) :

«اعلم أن السهام أنواعها مختلفة الأشكال، فمنها طوال رقاق، ومنها ماله شظايا، ومنها ماله رأس كبير، ومنها ماله زوايا، ومنها ماله جناح، ومنها مبسوطة الرؤوس، ومنها مصمتة، ومنها ماله بيت يدخل فيه العود، ومنها ماله ذنب يدخل في العود...».

وبعد ذكر ذلك صار يتحدث عن مواقع الإصابات وكيفياتها وأنواع علاجها، ويبين العلامات الدالة على الخطورة حينما تكون الضربات شديدة أو قاتلة، وينصح الطبيب المعالج بعدم تعريض نفسه للسمعة السيئة، فلا يجازف بنفسه في علاج الضربات التي يتيقن أنها قاتلة لئلا ينسب الخطأ إليه، وليتركها للقدر الذي يتصرف كيف يشاء ولهذا قال (ص 170).

فإن كان السهم في موضع لا يمكنك فيه العمل فسلمه للقضاء ولا تقربه أصلا بوجه من الوجوه...

وقال في مكان آخر (ص 177) :

«فإن كان السهم مجنحا فاجذبه على شق تشقه في مقابلة، وإن كان في موضع يخاف منه فلا تقربه، والظن السوء لا يفارقك أبدا في مثل هذا، وخف على عرضك، واترك الطمع تفلح كما قال جالينوس : لا تعالج مرض سوء فتسمى طبيب سوء، وفيما عرفتك في إخراج السهم كفاية، والطبيب إذا كانت عنده دربة يحتال لنفسه بما يظهر له من الحيل، والله الموفق للصواب لمنه وكرمه وجوده».

وبهذه التعليمات أنهى الحديث عن القسم الثاني، المتعلق بإخراج السهم.

☆ ☆ ☆

ثالثا - صنعة الجبر (ص 177)

إن هذه الصنعة لم يكن ينتحلها في وقته إلا الجهال الذين لم يقرؤوها في كتاب، ولم يقتبسوها من معلم، ولم يستفيدوها من شيخ، مع أنها تحتاج إلى المشاهدة والممارسة والمعاينة.

إن من يتعاطاها يحتاج إلى أن يستمد من شيوخه ما يأتي :

أولا - كيف يصنع في رد الفك.

ثانيا - كيف يصنع في جبر العظم.

ثالثا - كيف تكون نصبة العضو عند رد العظم المكسور إلى حده.

رابعا - كيف يكون مد العضو وتسويته حتى يعود إلى حاله الطبيعي.

واستثنى من هؤلاء ثلاثة أشخاص :

أولهم : أستاذه الدكتور برنار وهو نصراني من بلنسية له خبرة كبيرة في هذا الباب، وقد تقدمت الإشارة إليه.

الثاني : الوزير أبو يحيى بن المولى، وهو من الأطباء الذين رآهم يقربون من مهارة الطبيب السابق.

الثالث : الطبيب السويبي وهو لم يره وإنما يسمع عنه فقط.

وأما غير هؤلاء الثلاثة ممن رأى في هذا الفن فقد ذكر أن حظرهم من هذه المهنة أولى، ومنعهم منها أسلم.

وأشار في كتابه إلى أنه قد تعلم هذه الصناعة في أيام صباه، وأن والده كان ينهاه من ممارستها نظرا لكون المرضى لا يستجيبون غالبا لتوجيهات الطبيب، فيتعذر شفاؤهم بسبب إهمالهم لأنفسهم، وتعود اللائمة على من عالجهم لا على سوء تصرفهم.

ونظرا لحرصه على جانب المعرفة فهو قد أسهم في كتابه هذا بتقديم معلومات دقيقة حول هذه الصناعة، وبين الأسباب الداقعة إليها فقال : (ص 179).

«واعلم أن هذا المرض له أسباب وهي : إما ضربة، أو سقطة، أو شيء يقع على العضو فيحدث فيه وثيا أو فكا أو خلعا أو كسرا...

ثم صار بعد ذلك يفسر كل حالة من هذه الحالات فقال : «فالوثي يورم العضو وربما خفيفا، والفك يكون في مفصل يميل به إلى بعض الجهات، والخلع في مفصل يخرج إفريز العظم عن موضعه وتبطل حركة العضو، والكسر أنواعه كثيرة، إما أن يكون الكسر عرضا، وإما أن يكون بطول العظم منفصلا بعضه من بعض، وإما أن يكون شقا غير منفصل، وقد يكون مع كسر العظم شظايا منفصلة أو غير منفصلة، وقد تكون واحدة أو أكثر من واحدة، أو تكون صغارا أو كبارا».

وبعد ذكر هذه الأوصاف العامة لكل حالة شرع في ذكر العلاج ووصفه، وأظهر بعض الحالات التي باشرها بنفسه، وبعض الأدوية التي استعملها، ورسم للمتعلم الطرق الصالحة لرد الخلع وإصلاح الفك في مختلف الأعضاء، كما أبان مختلف الأشكال لجبر الكسور على تعدد أنواعها وتعدد مواضعها، وما تحتاج إليه من العلاج إذا اضطربت أحوالها أو بدأ تورمها.

ورغم حاجة الكسر إلى الجبائر، فإن المؤلف كان يستغني عنها أحيانا، فقد اكتفى في جبر عظم الساق بتثبيت العظم في ميزاب من لوح جعل في مقدمه لوحا واقفا على طول القدم، وحشا ما بقي فارغا بين الساق وأجناب الميزاب بخرق رطبة بعد أن دهن الجرح بمرهم يتناسب مع وضعه، وقد جرب هذه الطريقة في علاج كسر أصيب به هو ذاته في مفصل عقبه، وسجل هذه التجربة في كتابه فقال (ص 194) :

«وقد فعلته لنفسي لما انكسرت قصبة ساقي اليمنى، وكان الكسر بقرب مفصل العقب فرددته لنفسي، وأنا في طريق الجزيرة الخضراء، أعادها الله للإسلام، وسددت عليه بعمامتي حتى وصلت إلى دار الصنعة، وأنزلنا جميعا في جنانه».

ثم صار يتحدث عن الكيفية التي استعملها، وكيف استدعى نجارا ليصنع له الألواح وفق وصفه، وبين المواد التي عالج بها الجرح، وبقي كذلك إلى أن وصل إلى مدينة سبتة. قال (ص 196).

«وكنت في مدة العلاج أتيمم لكل صلاة وأصلي على ثلاث وسائد، والساق على الوسادة أمامي، وأنام على القفا بطول ثلاثة أسابيع، وبعد ذلك مددت الساق مدا وهو بربطه حتى برأ برءا تاما ولم نحتج فيه إلى الجبائر».

ورغم هذه الدقة في الوصف فإنه أشار بعد ذلك إلى أن الطريق السليم للتعلم لا يتصل بتسجيل المضمون في الكتب، وإنما يرجع إلى المشاهدة والمعاينة ولهذا قال : (ص 197).

«واعلم أن الجبائر والربط لا يقدر أحد أن يتعلمها من كتاب إلا بالمعاينة، وكل ما يذكر في الكتب من كيفيات العمل فيها فهو من المحال تعلمها».

إن المعاينة إذن ضرورية وهي في الوقت ذاته تضاف إلى المعلومات العامة، فتكون الطبيب الماهر الذي يقدر على استغلال معلوماته وصناعته في البحث عن الحل الملائم. ولقد أشار المؤلف إلى هذه الملاحظة حينما قال في إحدى فقرات هذا الفصل (ص 201) :

«والطبيب إذا كانت عنده دراية يعمل في كل موضع بحسب ما يظهر له في ذلك...».

ثم قال : وأنا قد دخلت على رجل وقد وقع على جنبه الأيمن فأصابه حجر فدفع أحد الأضلاع إلى داخل ومنعه التنفس إلا بكد، وكان يجد مع كل نفس كأنه يضرب برمح على موضع الضلع، فأدخلت أصابع يدي إلى الضلع وجذبته إلى خارج مرة بعد مرة قدر أربع مرات، وعدت إليه بالجذب، وعند ذلك رجع الضلع لمكانه، ولم يبق له عند التنفس شيء مما كان يجده من الألم، وضمدته وبرأ بحمد الله، وأنت إذا حدث كسر في موضع لا يمكن فيه الربط مثل عظام الصدر والفقارات وغيرها فتحتال لنفسك بحسب ما يتأتى لك».

وهكذا نرى أن المؤلف يدعو إلى الفكرة ويبينها ويظهر تجربة من تجاربه لتأييدها ثم يهيب بالمتعلم أن

يستخدم مهارته وذكاءه في البحث عن الوسائل التي يحقق بها أهدافه. وهي طريقة سبق لنا أن أشرنا إليها وأوضحنا قيمتها التربوية في المجال التعليمي، وبهذه الجزئيات أنهي الحديث عن المقالة الثانية.

☆ ☆ ☆

المقالة الثالثة : في الأدوية المفردة والمركبة

كان الطب قديما متداخلا مع علم الصيدلة تداخلا تاما. ولذلك فإن الطبيب كان يعني بتشخيص الداء، وفي الوقت ذاته كان يعمل على تحضير الدواء الملائم وتيسيره للاستعمال، الشيء الذي كان يدفع بعض الأطباء إلى تأليف كتب تربط بين وصف الأمراض ووصف الأدوية الصالحة لعلاجها في آن واحد.

وكان العلاج يقتضي الحديث عن نوعين من الأدوية :

النوع الأول : يتعلق **بالأدوية المفردة**، ويراد بها بعض النباتات أو الحيوانات أو المعادن التي إذا استعملت في علاج بعض الأمراض نفعت، وإن لم تكن مع غيرها أو ركبت تركيبا بسيطا لا يؤثر على المفعول الأساسي المتصل بخاصيتها.

النوع الثاني : هو عبارة عن **أدوية مركبة** من مواد مختلفة إذا اجتمعت أعطت خصائص معينة. وهي في الغالب تحمل أسماء معروفة يكتفي بذكرها عند الإشارة إليها. ولا يمكن لمن يدرس الطب القديم أن يستغني عن معرفة هذه المركبات وعن معرفة جزئياتها ليستطيع فهم الكتب المؤلفة، وليتمكن من القدرة على الموازنة بين محتويات الأدوية القديمة وبين محتويات الأدوية الحديثة، لأنه قد يستطيع بذلك استغلال ما كان موجودا لعلاج ما هو طارئ.

وقد سار «الشفرة» في كتابه على هذا التقسيم المعهود دون أن يتحدث عن الفروق الموجودة بين العلاج بالأدوية المفردة، وبين العلاج بالأدوية المركبة، مع أن الذين يتطرقون إلى هذا الموضوع يشيرون غالبا إلى أن الطبيب الماهر هو الذي يحرص على استعمال الدواء المفرد، ولا ينتقل إلى الدواء المركب، إلا إذا تيقن أن الدواء المفرد لا يفيد، وقد كان بعضهم يشير إلى أن المشكل ليس مرتبطا بالدواء المفرد أو الدواء المركب، وإنما هو مرتبط بإيجاد علاقة بين البيئة التي نشأ فيها المريض وبين الدواء الذي يقدم إليه، فكلما تعقدت الحضارة إلا وكان الدواء المركب أسلم.

وقد أشار ابن القيم الجوزية في الجزء الثالث من كتابه «زاد المعاد في هدي خير العباد» (ص 67) إلى هذه النظرية، وحاول أن يربط بين الطريقة التي اعتاد الشخص أن يتغذى بها وبين طريقة علاجه، فإذا كانت تغذيته بسيطة كان علاجه بسيطا، وإذا كانت تغذيته مركبة فإن علاجه يكون بالأدوية المركبة أيضا، وقال في هذا المجال بعد أن ذكر ما كتبه بعض الأطباء في تفضيل العلاج بالدواء البسيط ما يأتي : «والتحقيق في ذلك أن الأدوية من جنس الأغذية، والأمة والطائفة التي غالبا أغذيتها المفردات فأمراضها قليلة جدا وطبها بالمفردات. وأهل المدن الذين غلبت عليهم الأغذية المركبة يحتاجون إلى الأدوية المركبة، وسبب ذلك أن أمراضهم في الغالب مركبة. فالأدوية المركبة أنفع لها، وأمراض البوادي والصحاري مفردة، فيكفي في مداواتها الأدوية المفردة».

وعلى كل حال فإن الرأي ربما لا يتنافى مع طبيعة الإنسان ومع تفاعلاته البيئية، وهو متصل بمختلف الأمراض، ويمكن الاعتداد به في الطب العام، وقد ذكرنا أن «الشفرة» في كتابه لم يتعرض لهذا الجانب، وإنما اقتصر على ذكر الأدوية المفردة والأدوية المركبة المتعلقة بموضوع كتابه، وهو موضوع الجراحات والأورام على اختلاف أشكالها ومواضعها.

ورغم كون المؤلفين من قبله قد اعتادوا ذكر الأدوية فهو قد اقتصر في الأدوية المفردة على مائة وخمسين نوعا. وفي الأدوية المركبة على ثمانية وثلاثين نوعا، وتحتاج المقالة الثالثة التي خصها لذلك إلى شرح ومقابلة وتمييز لكثير من أنواع النباتات وأنواع المعادن التي ذكرها، خصوصا وأن منها ما ذكر باسمه العربي، ومنها ما ذكر باسمه الأعجمي، أو ما يقابله بالاسم الإقليمي الذي كان معروفا به في الأندلس أو في بلاد المغرب.

فبالنسبة للأدوية المفردة مثلا ذكر خصائص كل نوع على حدة، سواء كان يتصل بمرض واحد أو بأمراض مختلفة، وبين كيفية الاستعمال الخارجي إذا كان معدا للوضع على الجرح، وكيفية الاستعمال الباطني إذا كان معدا للشرب أو الأكل.

ويمكن إعطاء نظرة وجيزة عن بعض المفعولات التي يتوصل إليها عن طريق استعمال بعض هذه الأدوية.

أولا - التغلب على نزف الدم، ويستعمل في ذلك الإسفنج البحري (ص 206) أو البقم (ص 207) أو الكهربا (ص 219) أو الكلس (ص 219) أو الموميا (ص 223).

ثانيا - قروح الفم ومرض اللثة، ويستعمل في ذلك البردي (ص 209) أو الزاج (ص 223) أو السعد (ص 224).

ثالثا - تسكين الأورام الحارة، ويستعمل في ذلك النبات المعروف بالأبهل (ص 202) أو النبات المعروف بأرغيس (ص 203).

رابعا - علاج الاحتراق بالنار، ويستعمل في ذلك الآس (ص 203).

خامسا - تليين الأورام الصلبة المزمنة، ويستعمل في ذلك النبات المعروف بأبرسا (ص 202).

سادسا - شفاء القروح الخبيثة، ويستعمل في ذلك النبات المعروف بإكليل الملك (ص 203).

سابعا - تلحيم الجراحات ويستعمل في ذلك النبات المعروف بالجبار (ص 205).

ثامنا - تجفيف القروح الرطبة، ويستعمل في ذلك الإسفنج البحري (ص 206) والنبات المعروف بالبقم.

تاسعا - علاج شقاق الأطراف من البرد، ويستعمل في ذلك الباذنجان (ص 207).

عاشرا - تنقية القروح المتآكلة والقروح الخشنة، ويستعمل في ذلك النبات المعروف بأشخيص (ص 203) وهو أداد الأبيض كما يستعمل الاندراسيون (ص 204) والبربنج (ص 207) والبلوط (ص 208).

الحادي عشر - تحليل القروح، ويستعمل فيه بادر نجويه وهو حبق الطرونج (ص 208) كما يستعمل فيه البلسعي وومعشوقة الجنان (ص 209).

الثاني عشر - علاج النملة وهي المرض المعروف بالحكة، ويستعمل فيه بادرنجويه (ص 208) أو النبطافلون.

الثالث عشر - علاج الوتي والرض وفسخ المفصل ويستعمل فيه الجبار (ص 205).

الرابع عشر - تليين الأورام الحارة، ويستعمل فيه إكليل الملك (ص 203) أو إيريغارن المسمى بالشيح أو أسطراطيقون (ص 206) أو البنفسج (ص 208).

الخامس عشر - علاج التواليل، ويستعمل في ذلك البصل (ص 207) أو اليتوع (ص 208).

السادس عشر - منع سعي القروح الخبيثة، ويستعمل في ذلك الأبهل (ص 202) أو الكرسنة (ص 218).

السابع عشر - ملء القروح العميقة، ويستعمل في ذلك أبرسا (ص 202) أو ميزة.

الثامن عشر - تفجير الأورام، ويستعمل في ذلك الكرات (ص 218).

التاسع عشر - الجروح العارضة من عض الكلاب، ويستعمل في ذلك لسان الجمل، وهو المصاص كما يستعمل المر.

ويمكن لمن يتتبع الكتاب أن يجد مفعولات أخرى لبعض الأدوية المذكورة، وأن يستخلص من ذلك أنواع العلاج لكثير من الأمراض التي ذكرها في المقالة الأولى، أو التي يحتاج إليها لتتميم العلاج فيما يتعلق بموضوع المقالة.

وبعد الانتهاء من ذكر الأدوية المفردة انتقل إلى الحديث عن بعض الأدوية المركبة، واقتصر على ما جربه منها، وأشار أثناء ذلك إلى أسماء بعضها وإلى خصائصها فمما ذكر منها المرهم المعروف بالنخلي (ص 238) ومرهم جالينوس (ص 247) ومرهم الدياخيلون (ص 241) والمرهم الأصفر (ص 242) والمرهم المالقي (ص 242) والمرهم الرومي (ص 249) والمرهم المصري (ص 250) ومرهم الزنجفور (ص 253) وغير ذلك من المراهم التي أبان أخلاطها، وأشار أحيانا إلى مصادرها، فكان كتابه بذلك إسهاما في تخليد هذه الأدوية وفي ذكر مركباتها.

وبهذه المركبات أنهى المقالة الثالثة التي بها أتم الكتاب.



أطروحة لنيل درجة دكتوراه الدولة في اللغة العربية وآدابها تقدمت بها الأستاذة فاطمة خليل

عرض وتقديم الأستاذة نجـــاة المريني

موضوع الأطروحة :

موضوع الرحلة موضوع شيق خصب، يكشف عن خبايا فكر الرحالة، وعن تصوراته وخواطره، في عوالم يكشفها بنفسه، فيسعد في لحظات ويشقى في أخرى، وكما أن في الرحلة متعة ولذة، ففيها مشقة وعناء، إنها البحث عن المجهول؛ في الخريطة الجغرافية والفكرية والبشرية. عالم الرحالة عالم مجهول؛ مليء بالمتناقضات، مليء بالمفاجئات، إنه عالم البحث والمعرفة في مستويات عديدة، إنه عالم تلمس - فيما أعتقد حقيقة الكون، وحقيقة الوجود في أكثر من بعد، إن الرحلة انطلاقا من الذات وانتهاء العالم الأخر المرغوب فيه أحببنا أم كرهنا، في تصوراتنا الخيالية المستحيل تحقيقها، أم في تصوراتنا الواقعية الممكن الإمساك بها، بل وجعلها واقعا معيشا.

☆ ☆ ☆

أغراني بهذه المقدمة، الموضوع الذي قدمته الأستاذة فاطمة خليل للنقاش - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - عن الرحلة في الأدب المغربي، وسأحاول في تقديم هذه الأطروحة، الحديث عن أهم النقط التي أشارت إليها الباحثة في العرض المقدم أمام اللجنة العلمية بعد سنوات من البحث والدرس والتتبع.

اهتمت الأستاذة فاطمة خليل في موضوعها بفن الرحلة كأدب و علم و فن، باعتباره يتكئ على أدوات فنية، وعلى علم الجغرافيا، وعلى تدوين مجموعة من الخواطر والتأملات التي يسجلها الرحالة مصوراً مشاهد ومآثر وعادات وتقاليد كل منطقة زارها، معلقاً في بعض الأحيان على ظواهر اجتماعية أو ثقافية أو اقتصادية أثارت انتباهه، وشغلت فكره لمدة من الزمن.

أشارت الباحثة في تقديم عرضها إلى أن الموضوع الذي اختارته لهذه الأطروحة يتوخى غايتين :

- الأولى : الكشف عن زوايا من الفكر والثقافة والأدب في المغرب.
- الثانية : مشروع بحث متكامل للجوانب الفكرية والثقافية والأدبية التي تتناولها الرحلة من خلال كتب الرحلات التي اطلعت عليها وصنفتها حسب موضوعاتها.

وكما جاء في العرض الذي قدمته الباحثة بين يدي اللجنة، فإنها اتبعت الخطوات الآتية :

- محاورة النصوص واستنطاقها، لإثارة القضايا التي تتضمنها كتب الرحلات.
- اعتماد الدراسة على مستويين :

المستوى الأول : يعنى بمعطيات النصوص كما هي.

المستوى الثاني : يعنى بالأحكام والاستنتاجات التي استخلصتها الباحثة من هذه النصوص.

ـ استعراض الظواهر والقضايا التي تناولتها نصوص الرحلات منذ النشأة إلى أواخر القرن الماضي.

ـ استكناه ظواهر أدب الرحلات وقضاياها من خلال العلاقات التي استطاعت الباحثة أن ترصدها بين الرحالة الكاتب، وبين القارئ المتلقي، وبين المعطيات السياسية والاجتماعية والعلمية.

ـ أما المنهج الذي اتبعته الباحثة فهو المنهج الوصفي والتاريخي والتحليلي لأن الهدف كما تقول : «هو تقديم النصوص وأصحابها، ثم محاولة النفاذ إلى ما تشتمل عليه من أفكار ومعلومات مع تحليلها ومقارنتها بغيرها إن أمكن، فالرغبة في تقديم ما يتعلق بنصوص الرحلة وأصحابها هي التي وجهت البحث، ورسمت معالمه، وحددت مراحله».

أما محاور الموضوع، فقد توزعت كما يأتي :

ـ **المدخل :** وفيه تناولت الباحثة مفاهيم الرحلة وتعريفاتها المختلفة، معتمدة على كتب الرحلة وعلى التعريفات المعجمية والأدبية وغيرها. وبطبيعة الحال، فإن هذا المدخل سيتناول نشأة فن الرحلة وتطوره عند روّاد مغاربة كالعبدري وابن رشيد وغيرهما.

المحور الأول : وفيه رصدت ملامح الرحلة للتعريف بأنواعها ومن ثمّ استخلاص مميزاتها، وقد ضمّ هذا المحور فصولاً منها :

الفصل الأول : وخصصته للحديث عن الرحلة الحجازية وأنماطها، كرحلة ابن رشيد والعبدري وابن بطوطة.

الفصل الثاني : الرحلة السفارية : وقد تعرضت الباحثة لتفصيل القول في هذا النوع من الرحلات من حيث خصائصه ومن حيث ظهوره وتطوّره، كرحلة التمكروتي والغساني، وابن عثمان المكناسي.

الفصل الثالث : الرحلة السياسية، كرحلة الزرهوني والمشرفي والنميري.

الفصل الرابع : الرحلة السياحية كرحلة المقرّي وابن زاكور واليوسي.

المحور الثاني : وفيه تناولت الباحثة مضمون الرحلة عموماً، إنه يستقصي المعالم التاريخية والاجتماعية والبيئية للرحلة المغربية من خلال فصول أهمها :

الفصل الأول : المغرب العربي الكبير.

الفصل الثاني : المشرق وأوربا في الرحلة.

المحور الثالث : وتناولت فيه الخطاب الفكري في الرحلة، ويتضمن الفصول الآتية :

ـ **الفصل الأول :** التفسير والحديث.

ـ **الفصل الثاني :** الفقه والتصوف.

وفي هذين الفصلين حاولت الباحثة رصد الملامح الواضحة للعلوم الدينية في كتابات الرّحالة من حيث الأحكام والفتاوي والأسانيد، أمّا النّماذج المختارة فتشكّلها رحلات العبدري، والرحلة الكبرى لمحمد بن عبد السلام الناصري، ورحلة العياشي وغيرها.

المحور الرابع : ويظهر أنّه مع المحور الثالث يمثّلان جوهر موضوع الأطروحة، ففيهما انصبّ الاهتمام على الآثار الفكرية والأدبية في الرحلة، فبالإضافة إلى نقاش ما سمّته الباحثة بالخطاب الفكري، فقد خصّصت هذا المحور لنقاش موضوعات أدبية في الرحلة المغربية، فكانت فصوله كما يأتي :

الفصل الأول : النص الشعري، تناولت مباحث هذا الفصل نقطاً رئيسية منها :

ـ الشعر الإخواني في المحاضرات والمسامرات والمطارحات الشعرية بين الأصدقاء والإخوان،

ـ شعر المدح السياسي،

ـ شعر المدح النبوي : وقد شكّل هذا المبحث موضوعاً مهماً، إذ أن الرحلة في الغالب كانت وليدة وازع ديني يتمثل في أداء المناسك الدينية. يمثل شعر هذه الفترة العياشي وابن عتيق وابن ماء العينين وغيرهم، مبرزة خصائص هذا النص الشعري بصفة عامة.

الفصل الثاني : النص النثري. وتمثل مباحثه كذلك موضوعات بعينها منها :

ـ الرسائل الإخوانية : ومنها ما يتضمّن فكراً وجدانياً،

أو وعظاً صوفياً، أو مضموناً أدبياً، وقد لخصت الباحثة في آخر هذا المبحث خصائص رسائل الرحلة.

ـ الإجازة : وفيها تحدثت الباحثة عن الإجازة القرآنية والمعيّنة أي المحدّدة في موضوع مّا، والإجازة العامة. ثم الإجازة باعتبارها نثراً أدبياً «له ضوابطه وميزاته التي ترتبط بالكتابة الأدبية والكتابة التاريخية، وأسلوبها الفني له مصطلحاته وعباراته المختارة» كما جاء في عرضها.

التراجم والسير : ولعلها الكتابة الأقرب إلى نفس الرحالة، إنها كما تقول الباحثة «صورة تعكس الجوانب المختلفة للرحالة العالم، فهو بحكم رحلته يبحث ويتّصل، ويسمع ويتأمل، ثم يصوغ معلوماته وارتساماته في نسق شائق ليكوّن منها ترجمة وسيرة للأعلام الذين يلتقى بهم».

ـ النّقد في الرحلة : وتحدثت فيه عن طبيعة النّقد عند العبدري والعياشي.

الفصل الثالث : ويتضمن حديثاً عن أساليب الرحلة من حيث :

الوصف الفني ـ التحليل النّفسي ـ الحكاية لغة الرحلة.

أما الخاتمة، فهي تلخّص الاستنتاجات التي توصّلت إليها الباحثة بعد هذه الرحلة الشّاقة والشّيقة في كتب الرحلات، وأهم استنتاج استعرضته الباحثة أن «الرحالة المغربي ساهم بكيفية فعّالة في أطوار الرحلة الثلاث الأولى :

ـ **أولا :** عندما كانت عبارة عن جغرافية.

ـ **ثانيا :** عندما أصبحت جغرافية مع تصوير عجائب الكون، ومزج الحقائق بالأساطير، لا ينظر في فحواها إلا لجانب العجب والطرافة.

ثالثاً : عندما كانت رحلة برسم العلم والتعلم أولاً وأخيراً».

كما أن الرحلة المغربية كما جاء في عرض الباحثة تشكّل «وثيقة حضارية ثقافية» ربطت بين الشرق والغرب من خلال تنقّلات الرّحالة في كتابه بين عوالم عاش فيها واندمج مع سكّانها وتأثر بهم وبعاداتهم، وبذلك سجّل الرحالة كل المعلومات وكل الدقائق التي عرفها في كتاباته ونقلها إلى مجتمعه ليربط بين شعوب وحضارات وثقافات في لحظات مختلفة وفي ظروف متمايزة، كما أنه، بطبيعة الحال، سينقل ثقافة مجتمعه وحضارته إلى كلّ البلاد التي أقام بها ورحل إليها، مبيّناً أوجه التقارب والاختلاف، معتزّاً بانتمائه إلى بلده، وبقدرته على ربط جسْرٍ للتفاعل والتلاقح بين الحضارات في المشرق والمغرب.

وذكرت الباحثة في آخر عرضها أنّها جعلت للأطروحة ذيلاً بأهم المصادر والمراجع التي عليها في هذا العمل من مطبوعات ومخطوطات ودوريات متعدّدة.

☆ ☆ ☆

* **ملحوظة :** ذكرت الباحثة أنها وضعت سرداً عاماً لمصادر الرحلة المغربية موزعاً حسب أنواع الرحلات وأصحابها مع الإشارة إلى كونها مطبوعة أو مخطوطة. وقد أشارت في عرضها إلى أنها اطلعت على ستّين رحلة ما بين مخطوط ومطبوع على امتداد قرون، من سنة 484 هـ إلى وقتنا هذا عند كتاب مغاربة اهتمّوا بتدوين رحلاتهم والكتابة عن ظروفها وملابساتها.

ورغبة في تقديم صورة واضحة عن السرد العام الذي وضعته الباحثة مستعينة ومتكئة في كثير من الأحيان على كتب البيبليوغرافيا والرحلات والطبقات، وكذلك على بعض البحوث الهامة في موضوع الرحلات والمنشورة في المجلات المتخصّصة، عمدت إلى إحصاء عدد الرّحلات بالنّسبة لكلّ نوع منها، وكانت كما يلي :

ـ الرحلة الحجازية : وتضم 86 رحلة.
ـ الرحلة السفارية : وتضم 14 رحلة.
ـ الرحلة السياسية : وتضم 14 رحلة.
ـ الرحلة السياسية الرسمية : وتضم 14 رحلة.
ـ الرحلة السياحية : وتضم 49 رحلة.

والواقع أن هذا السرد غنيّ، وفي حاجة إلى عناية الباحثين والطلاب كي يستفيدوا من هذه الرحلات كواجهة من واجهات الأدب العربي في المغرب الأقصى، فهي غنية من حيث مادّتها، ومن حيث اتّجاهاتها، ومن حيث قالبها، إن كتب الرحلة المغربية تضمّ ألواناً أدبية متعدّدة لا يمكن أن يستغني عنها الباحث في أي موضوع كان...

سلا : نجاة المريني

vement visant à la renaissance du patrimoine talmudique ;il fut le fondateur de la philologie hébraïque – Isaac, fils de Jacob Alkohen surnommé Al fassi », né en 1013 (404 de l'hégire) à Kalaât ben Ahmed, près de Fès, fut l'auteur d'un commentaire du Talmud en vingt volumes ; or, cet ouvrage est considéré jusqu'à présent, comme étant parmi les plus importants traités de législation hébraïque L'œuvre d'Alfassi comprend encore trois cent-vingt fetwa (interprétations jurisprudentielles) rédigées entièrement en arabe. C'est lui qui fonda en 1089 à Lucena (en Andalousie), un « Institut de hautes études talmudiques ». L'arabe est demeuré la langue véhiculaire de la pensée juridique en Espagne jusqu'en 1570 – Dans la région de Valence, des villages employèrent l'arabe pour langage jusqu'au XIX^eme^ siècle – Un professeur de l'Université Madrilène réunit 1151 contrats d'achat et de vente rédigés en arabe comme spéciments usités en Andalousie par les Espagnols[40] – L'arabe « présente l'avantage d'être le véhicule d'une civilisation universelle et de se prêter à l'expression d'une pensée religieuse ou politique »[41]. « C'est en arabe et à travers l'arabe, dans la civilisation occidentale – dit le Professeur Massignon – que la méthode scientifique a démaré ». L'arabe – dit-il encore – est un pur et désinteressé instrument linguistique de transmission internationale des découvertes de la pensée... ; la survie internationale de la langue arabe est un élément essentiel de la paix future entre les nations ». La loi islamique a fait aussi tache d'huile dans toute l'Afrique, même dans les zones berbérisantes, car l'Islam, souple et coulant, donne force de loi à toute coutume judicieuse – « La coutume – dit Surdon – s'appelle orf ou chraâ ; le chraâ, c'est la coutume générale, le vieux fonds coutumier[42]. Dans le Sud du Maghreb, « dès le XVI^eme^ siècle, le droit religieux – c'est-à-dire le chraâ, se substitue peu à peu à la coutume berbère, à l'orf des tribus ».

L'étude comparée des texes juridiques des différents Codes occidentaux et islamique décèle donc le processus catalyseur de l'œuvre du législateur dans une symbiose vivante où la pensée juridique a été hautement normalisée.

Références

La Judicature, la procédure, les preuves dans l'Islam Malékite, O. Pesles, Impr. Réunies, Casablanca 1942 p. 2.

La femme Musulmane dans le Droit, la Religion et les Mœurs, O. Pesles, les Ed. la porte, Rabat 1946 p. 30 et suite.

Exposé pratique des successions dans le rite Malékite – O. Pesles, Imp. reunies – Casa, 1940 p. 11.

Le testament dans le rite malékite, O. Pesle, Edition Moncho, Rabat, 1932 p. 47.

Les contrats de louage, O. Pesles, Moncho, Rabat, 1938 (p. 39) Code Civil français (art. 1118).

« Le crédit dans l'Islam Malékite », par O. Pesle, Imp. réunies, Casablanca 1942, p. 27.

Massignon. « Etudes et Conférences » – Congrès de l'Académie de langue arabe du Caire », 1959-1960 (p. 218).

(40) Les Berbères et le Makhzen, Robert Montagne p. 52.

(41) Sourdon, Institutions p. 281.

(42) R. Montagne, les Berbères et le Makhzen p. 98.

leur accordaient une large liberté d'action et leur assuraient de solides garanties – Les étrangers étaient placés, ainsi que leurs biens, « sous cette haute main royale qu'exprimait – comme dit Latrie – le mot sauvegarde chez les chrétiens et le mot d'aman chez les Arabes » – Le même auteur précise que « les méfaits des musulmans vis-àvis d'eux étaient passibles des sévérités de la loi » – La nation alliée était représentée par un consul partout où ses ressortissants entretenaient des établissements de commerce – là, le Code international de commerce fut étayé par le Code du Droit des gens ; car le consul qui résidait avec ses nationaux en un quartier « dont la haute surveillance leur appartenait », s'érigeait en administrateur de la colonie dont il défendait les intérêts – Le principe d'exterritorialité est alors expressément formulé ; les musulmans qui avait été-reconnaît André Julien – les premiers à organiser les formes de leur commerce selon les nécessités du trafic international, avaient perfectionné leurs méthodes dont les chrétiens s'inspiraient. Une politique tolérante jointe à un système de sécurité aussi solide que généralisé, ne firent que développer, de plus en plus, les rapports etles échanges entre chrétiens et musulmans. Les sultans almohades entretenaient même une milice, spécialement affectée à réprimer les courses des chrétiens et des Arabes à la fois. Le Maroc, terre de liberté régie par une loi respectant la personne humaine quelle que soit sa race ou sa confession, fut une terre de refuge pour les chrétiens opprimés par les grands seigneurs de l'Europe féodale. « Des chevaliers ou des princes européens, mécontents de leurs suzerains, purent abondonner leurs fiefs et venir en Afrique servir les rois musulmans ». (Latrie). Le Sultan Alaouite Moulay Ismael, qualifié par les chroniqueurs chrétiens comme « le plus grand protecteur des Franciscains », promulga deux dahirs (en date du 20 décembre 1711 et Juillet 1714), dans lesquels la peine de mort était formellement décrétée contre tous ceux qui « s'aviseraient de molester les chrétiens ou de les insulter ». La majeure partie des Juifs du Maroc descend des Juifs exilés d'Europe au Moyen-Age : Angleterre (en 1290), France (1395), Espagne (1492)[33] Italie (1242) les Pays-Bas (1350) et le Portugal (1476)[34] – En 1492, alors que les persécuteurs castillans s'acharnaient en Andalousie contre les Juifs et les musulmans, le prédicateur Al Maghili, un des grands cadis de l'Empire, a été exilé de Fès, pour avoir entrepris une campagne antisémite. Le Maroc a réalisé le plan bancaire, une rénovation qui est l'institution du « virement par chèque », dès le IX^{eme} siècle (III^{eme} siècle de l'hegire) – En effet, à Sijelmassa, porte du Sahara marocain – vivaient des négociants aisés dont les plus riches entretenaient avec le Soudan un troc fructueux. Ibn Haouqal[35] dit avoir vu un chèque de 40.000 dinars émis par un négociant de la cité au profit d'un collègue de la même cité – D'ailleurs, dans le contexte du Droit financier, André Julien remarque que les Almohades qui avaient apporté de l'ordre en Andalousie, mirent fin à la gabegie financière des roitelets Andalous. Pour relancer l'économie arabe, le Cheikh Mohammed Abdou, mort en 1905, a trouvé le moyen, dans une savante fetwa, de présenter comme licites la caise d'épargne et le gain de dividende de même avant lui, ses collègues de Constantinople avaient rédité des fetwa pour liciter l'émission d'obligations d'Etat productives d'intérêts.[36].

Le Droit allemand puise ses heureuses réalisations sur le plan de « la banque sans intérêts », dans la notion de commandite du Droit Islamique. Parlant du Mohtassib, sorte de prévôt des marchands, Surdon précise que « toute la vie économique de la cité où il existe est entre ses mains : il était le chef des corporations, le contrôleur des poids et mesures, le contrôleur du marché »[37]. Le Mohtassib a surveillance et juridiction sur tout ce qui concerne le commerce et l'industrie[38]. C'est le véritable juge, chargé de superviser l'exécution de la législation islamique dans le domaine économique. L'Académie hébraïque des Fès a joué un rôle considérable dans la cristallisation de la loi talmudique, à partir de la Chariâ. A propos de la loi mosaïque et talmudique, l'influence du fiqh Malékite qui délogea à Fès le hanafisme et le châfiisme se fit sentir dès le X^{eme} siècle, d'abord au Maghreb, ensuite parmi toutes les colonies Juives éparpillées dans le monde. Abou Saïd Ibn Youssef, considéré comme ayant été le promoteur de la philosophie Juive au Moyen Age, perfectionna la loi hebraïque relative au droit d'héritage, en s'inspirant de la légisslation islamique. L'emprunt Juif a englobé tout le patrimoine de l'Islam. A Fès, le Traité de grammaire de Sibawaïh devient la source d'inspiration des Juifs pour la rénovation de la grammaire hébraïque depuis le X^{eme}[39] Abou Zakaria Yahia – Ibn Daoud Hayon de Fès s'érigea alors en promoteur du mou-

(33) Revue du Monde Musulman p. 428.

(34) Godard – Histoire du Maroc p. 15.

(35) Etudes sur l'hygiène et la médecine au Maroc par Raynaud p. 6.

(36) La France en Afrique du Nord p. 232.

(37) Archives marocaines T. I p. 13, 51.

(38) Massignon 1959-1960 p. 218.

(39) Los Mozarabes de Toledo en los siglos XII, XIII.

Européens furent contraints à se soumettre dans d'autres pays » où chaque soir des agents fermaient les portes des rues et des quartiers francs pour ne les ouvrir qu'aux heures fixées par l'autorité du pays. S'imposant le respect du domicile, les autorités marocaines se défendirent de faire aucune perquisition au sein de ces cités. Quand il y avait lieu d'agir contre un membre de la colonie, les autorités s'entendaient préalablement avec le consul et n'entreprenaient rien sans sa participation, « à moins d'un refus formel de justice et de concours ». La loi maghrébine reconnaissait « la responsabilité individuelle et dégageait les compatriotes du délinquant de toute responsabilité collective – ... ce fut là un principe de haute portée pratique et d'autant plus précieux qu'il fut rarement respecté et appliqué hors du Maroc. Dans toute l'histoire du Maghreb, « on ne signale qu'un seul cas de responsabilité collective limitée (civile), à propos du privilège accordé par le Sultan mérinide Abou Inân aux Pisans en 1358, avec leur assentiment. Le traité conclu en 1489 entre l'Egypte mamelukide et Florence posa les règles de protection des commerçants étrangers, la garantie de leurs droits, l'institution d'un consulat, les moyens appropriés pour le transfert des crédits et l'arbitrage éventuel du Sultan entre les commerçants de Florence et leurs collègues européens, à l'intérieur des territoires ou eaux mameloukides, dans le contexte de la loi islamique. Mais, l'Andalousie et le Maghreb avant elle, avaient déjà pris le pas dans ce domaine, depuis l'an 1340 ou fut instauré en Occident Musulman un consulat pour les affaires de la mer, régi par un Code réunissant les traditions et les mœurs déjà établies sous les Almohades, au XII^{eme} sicèle. Alphonse X le Sage, Roi de Castille né à Tolède (1221-1284) a puisé dans ce compendium en 1272 quand il réforma l'Université de Salamanque qui joua un rôle prépondérant dans la rédaction du premier code (Las Siete partidas) pulié en 1329 qui a abouti à l'élaboration du Droit International Moderne. Frédéric II, Roi de Sicile, empereur germanique, fonda en 1224 l'Université de Naples, la dota de manuscrits arabes où il puisa les éléments essentiels de la pensée juridique islamique. Son disciple Thomas d'Aquin (décédé en 1274) a pu cristalliser les données de cette pensée, en instituant sur le modèle islamique, les structures militaires douanières et financières du Droit. Louis IX ou Saint Louis, Roi de France (1226-1270) qui vécut en Palestine et ailleurs, au milieu de théologiens célèbres comme Thomas D'Aquin, a eu l'heureuse occasion de puiser dans des sources islamiques vivantes, notamment en Egypte où Joinville qui l'a accompagné en 1248, a réuni tous ces renseignements dans ses célèbres « Mémoires ». Dans la jurisprudence diplomatique, les Souverains du Maroc s'inspiraient du seul principe de l'équité internationale, ne se souciant que de la souvegarde de leur souveraineté. La lettre de Grégore VII à En-Nacer le Hammadite en 1076 est « le plus précieux monument de cetemps et le plus curieux échantillon de la correspondance facile et amicale qui a existé entre les papes et quelques sultans d'Afrique ». S'adressant au Sultan, le Pape lui dit notamment : « Les nobles de la ville de Rome ayant appris, par Nous, l'acte que Dieu vous a inspiré admirent l'élévation de votre cœur et publient vos louanges ». Plus tard, une lettre datée de Lyon, le 31 Octobre 1246, est adressée par Innocent IV à l'illustre roi du Maroc. « Nous nous félicitons beaucoup – dit le Pape – de ce qu'à l'exemple des princes chrétiens, et en conformité de tes propres actes et des actes de tes prédécesseurs qui ont conféré à l'Eglise du Maroc des possessions et de nombreux privilèges, tu as, non seulement défendu cette Eglise contre les attaques des gens mal intentionnés et opposés à la foi chrétienne, mais encore augmenté ses immunités et ses privilèges et accordé aux chrétiens, appelés par tes prédécesseurs, des faveurs nouvelles et des bienfaits considérables ». « Le Sultan Sidi Mohamed Ben Abdellah imprima à la politique extérieure du Maroc un cachet international nouveau qui fut considéré comme une initiative appréciable dans le droit contemporain – « Ce souverain devança les Occidentaux – affirme J. Caillé –[32] en ce qui concerne certains principes du droit international et l'établissement de nouvelles lois : l'ensemble était devenu au XX^{eme} siècle une base pour les relations entre les nations ». Le Maroc avait au siècle dernier un consul général à Gibraltar qui délivrait des passeports aux étrangers désirant visiter le Maroc. Des éléments essentiels du Code du commerce ont été élaborés et mis en vigueur au Maroc, dès le XII siècle de l'ère chrétienne ; des comptoirs furent établis au Maroc oỳ se posa pour la première fois des questions dont celle de savoir comment devaient être sauvegardés les intérêts légitimement acquis par les ressortissants étrangers. Nos souverains ne firent aucune difficulté pour la reconnaissance de ces intérêts ; bien mieux, animés par une haute morale internationale, ils traitèrent ces étrangers avec une extrême sollicitude ; des Edits Royaux, empreints d'une paternelle bienviellance,

(31) Les accords internationaux. (1757-1790).

(32) Al Massâlik p. 70 – Ibn Saïd affirme en avoir vu lui aussi.

masses héréditaires, le patrimoine est un et la dévolution une chez les Malékites.[20]

Quant à la propriété individuelle dont l'intégration formelle dans le Droit des gens remonte au XIeme siècle, les Souverains marocains, gardiens de la Chariâ, ne s'étaient jamais arrogés le droit d'aubaine en vertu duquel les biens de l'étranger décédé étaient dévolus, comme c'est le cas ailleurs – au seigneur local. Le gouvernement chérifien donnait ainsi le suprême exemple du respect du droit de propriété. Même au cas où il n'y avait ni consul ni compatriotes de l'étranger décédé, ses biens étaient placés sous la garde de l'autorité chérifienne, en attendant leur livraison aux ayants-droit. Le magistrat en faisait dresser, par-devant témoins, un état sommaire (traité Pise-Maroc, 1358, art. 4, alinéa 14). La loi musulmane autorise les testaments au profit de personnes non conçues, à la différence de la loi fançaise – En ce faisant-dit O. Pesles – Le législateur français a apporté une entrave à la liberté du testateur[21]. Le testament par acte privé est prohibé par Justinien, alors que les formes de testament en usage dans le Bas Empire Romain sont les mêmes que celles actuellement usitées par les Musulmans – Est-ce là de simples coïncidences – comme les appelle O. Pesles[22]ou de véritables emprunts ? Les Malékites ont règlementé les contrats commutatifs avec un esprit d'équité très manifeste – « On ne trouve qu'une trace légère d'un pareil souci chez le législateur français ».[23]

Il y a d'autre part analogie entre l'action en nullité accordée aux créanciers de l'héritier par la loi musulmane et l'action paulienne du droit romain – Les deux actions sont accordées à des créanciers pour leur permettre de faire annuler des actes de leur débiteur qui leur sont préjudiciables –[24] Une récolte déficitaire entraîne une réduction proportionnelle du prix de location aussi bien dans le rite Malékite qu'en Droit français[25] – En Islam, la remise devient parfois intégrale – Le prêt de consommation suppose que les choses sont prêtées pour être consommées, sinon il y a prêt à usage. « Il y a symétrie absolue sur ce point entre le rite Malékite et le Code civil français (art. 1894).[26]

Le Maroc a toujours été une pépinière de juristes – Pline le signalait déjà pour les Temps Antiques.

L'Université Karaouyène, institution suprême du Fiqh Malékite en Afrique a été, de tous temps, une pépinière des jurisconsultes les plus célèbres du Monde Musulman. Le centre intellectuel attira par sa ronommée mondiale sur le plan jurisprudentiel le fameux Gerbert d'Aurillac devenu Pape Sylvestre II en (999/1003 ap. J.)[27]. La Karaouyène était considérée comme « La première école du Monde[28]. Une réelle civilisation, fruit des préceptes coraniques, une culture intellectuelle surprenante régnait jusqu'au fond des montagnes marocaines[29]. L'influence de Fès sur Ifriqya se développa.. « Ainsi – dit G. Marçais, La vieille patrie des docteurs de l'Islam se mettait à l'école des Berbères de l'Ouest.[30] Le législateur marocain était très pointilleux. Le citoyen moyen fut empreint du sens de l'équité ; jaloux de sa souveraineté, il savait respecter les droits, la liberté et la dignité d'autrui. Latrie constate que tant que les Européens « évitèrent de provoquer la susceptibilité des Musulmans, tant qu'ils respectèrent l'esprit et la lettre des traités acceptés par leurs souverains, ils trouvèrent dans la population et dans les gouvernements du Maghreb, les égards et la protection la plus équitable » En témoigne – d'après Latrie – « l'esprit de bonne foi et de tolérance religieuse qui régna de part et d'autre, pendant plus de cinq cents ans (du XIeme siècle), dans les rapports des chrétiens et des Arabes ».

Par la nature juridique du consulat celui-ci symbolisait vis-à-vis des membres de cette colonie entre lesquels il rendait justice, la souverainté de leur patrie. Le centre citadin réservé à l'habitation des étrangers constituait – dit-Latrie « une sorte de cité » dans le sens moderne et municipal de ce mot... La police de la cité appartenait au consul et à ses délégués. « Nous n'avons vu nulle part – affirme Latrie – qu'on ait pris, vis-à-vis de ces cités chrétiennes enclavées dans les villes du Maghreb, les mesures de méfiance humiliante auxquelles les

---

(20) Le testament p. 47.
(21) Le testament p. 99.
(22) Les contrats de louanges, O. Pesles. 1938 p. 39.
(23) Le testament p. 78.
(24) Code civil, articles 1.769 et 1.770.
(25) « Le crédit dans l'Islam Malékite », p. 27.
(26) Se référer à « l'Encyclopédie du Fiqh malékite » – A. Benabdellah, en arabe, éditée à Beyrouth.

(27) Gustave le Bon, civilisation des Arabes p. 17.
– Berque, Revue historique de Droit, 1949.
– Gisele Charri, Hespéris 1957 p. 265.
(28) Delphin, « Fas, son Université », 1889.
(29) Le Maroc inconnu, Moulieras T. 1 p. 28.
(30) Manuel d'Art musulman T. II p. 469.

entre autres à la femme occidentale que bien tardivement. Bien plus, la femme musulmane a le droit exclusif dans certains secteurs afférant à la vie conjugale, ménagère et familiale dont la maternité.

Le rite hanéfite autorise la femme à juger en matière immobilière et Tabari l'a autorisée à juger en toute matière – En droit public français, l'incapacité de la femme a persisté à travers tout l'Ancien Droit – Aussi, est-il admis qu'elle n'a point accès aux fonctions publiques – Le Droit de la Bretagne (art. 88) déclare que « nulle femme ne sera tuteresse, curateresse, ni juge ».

L'Andalous Mohammed Ben Abderrafii (mort en 1642), après la chute des derniers bastions musulmans en Andalousie, nota que le cachet juridico-éthique islamique imprégnait toujours la jurisprudence dans la cité de Tolède, cinq siècles après sa reprise par les chrétiens. C'est aux Arabes... « que les habitants de l'Europe empruntèrent, avec les lois de la chevalerie, le respect galant des femmes qui imposaient ces lois... ; l'islamisme a relevé la condition de la femme et nous pouvons ajouter que c'est la première religion qui l'ait relevée... ; tous les législateurs antiques ont montré la même dureté pour les femmes ». L'esprit chevaleresque des Arabes, leur respect pour la femme sont très connus. Le Wali de Cordoue ayant, en 1139, assiégé Tolède, appartenant alors aux chrétiens, la reine Bérengère, qui y était enfermée, lui envoya un Rénaut pour lui présenter qu'il n'était pas digne d'un chevalier brave, gallant et généreux, d'attaquer une femme. Le général arabe se retira aussitôt, demandant pour toute faveur l'honneur de saluer la reine »(11). L'époux a une part double de celle de l'épouse : il y a là un privilège de masculinité, mais combien plus réduit que celui existant entre collatéraux de la succession « noble » dans l'ancien Droit français...; combien plus favorable est encore à l'homme le droit d'aînesse ou privilège du fils aîné, au regard de ses frères et sœurs.(12)

En Islam, la double part reconnue à l'homme, dans l'héritage, s'explique par les obligations exceptionnelles auxquelles l'homme est astreint, alors que l'exemption de la femme est totale, quel que soit son degré d'opulence. Le mariage impose au mari l'entretien de son épouse, cet entretien comporte, d'après le rite Malékite, son habillement, son hébergement, son alimentation et jusqu'à la fourniture du nécessaire de toilette et d'une domestique pour l'aider dans le ménage – Si la capacité de la femme se trouve quelque peu limitée dans certaines activités, selon le rite Malékite, telle la magistrature, c'est que la femme est, en général, plus dominée par le sentiment (je ne dis pas passion) que l'homme ; elle est moins disposée à s'adapter aux rigueurs que nécessitent parfois les circonstances judiciaires, comme le fait de décrèter la peine capitale. « La peine applicable à l'adultère est la plus sévère des peines édictées par le Coran, à savoir la lapidation. Ce n'est pas particulier à l'Islam(13) – Dans toutes les législations un peu anciennes, la repression de l'adultère est particulièrement dure – A Rome, la femme est chassée à coups de fouet à travers les rues de la ville (Tracite). Dans la vieille France, on applique aux coupables les supplices les plus horrifiants (lire le supplice de Mortimer dans Froissard). En compensation, la loi se montre extrêmement exigeante pour l'établissement de la preuve... C'est ainsi qu'à Agen, les coupables devaient être pris en flagrant délit par le bailli et deux consuls(14) – De là aussi les quatre témoins en Islam ; finalement, la preuve est tellement difficile à faire que le peine est rarement appliquée, ce qui est le vœu secret du législateur – La législation islamique s'inspira des impératifs catégoriques des données sociales dont l'Islam avait structuré les moindres détails dans le processus social de l'individu au sein de la collectivité. Un noyau de registre d'état civil (notamment registre des naissances) a été institué dès le milieu du premier siècle de l'hégire, sous le 1er Oméïade Moa'Wya(15) ainsi qu'un bureau d'enregistrement des décès en Egypte(16). L'Islam se souciait même du bien-être des animaux à propos desquels il codifia et normalisa le comportement de l'homme – « Jamais on ne voit un Arabe – dit Gustave Le Bon(17) Maltraiter un animal, ainsi que cela est généralement la règle, chez nos charretiers et cochers européens. Une société protectrice des animaux serait tout à fait inutile chez eux. L'Orient est le véritable paradis des bêtes. « Selon Morand(18), les établissements du culte ou d'utilité publique, comme les mosquées et les hôpitaux, ont la personnalité civile. Or, « ce sont là-affirme O. Pesles(19) – des notions abstraites... reprises au XIXeme seulement par les juristes des grandes nations modernes. A l'encontre de l'Ancien Droit coutumier français qui préconise la pluralité des

(11) Exposé pratique – O. Peslès, Imp. Réunies Casa, 1940 p. 11.
(12) La Judicature ... p. 125.
(13) Brissaud, Manuel d'histoire du Droit Privé p. 62.
(14) Assouyouti, Hosn Al-Mohadarah T.1 p. 68/Al-Maqrizi, Al-kitat T 1 p. 94.

(15) Sobh Al-Acha T. 3 p. 464.
(16) Civilisations p. 376.
(17) « Les Personnes Morales en Droit Musulman.
(18) Le testament ... p. 54.
(19) Exposé pratique des successions ... p. 12.

(1389-1402), Pologne et Hongrie (1448) et enfin Morie Serbie, Bosnie et autres... L'Andalousie islamisée avait élaboré des compendium dans tous les domaines de la vie, bien avant l'avènement Ottoman. Leur influence directe sur l'élaboration de la pensée juridique et son évolution se faisait sentir, d'abord dans les mœurs occidentales pour se traduire dans les textes législatifs, dès la période omeïade, puis sous les Almohades, grâce à une œuvre synthétisante créatrice – La Charia, législation souple, d'une mobilité agissante, englobait tout le processus éthico-juridico-social qui régissait à la fois l'individu et la collectivité, doté d'un potentiel initiateur dont le secret de viabilité réside parfois dans son éventuelle réversibilité. Montesquieu, dans « l'Esprit des Lois »[2] ne considère pas l'Etat théocratique de l'Islam comme une espèce distincte et semble la confondre avec l'Etat despotique, en faisant sans cesse allusion aux princes d'Orient, à leurs « visirs », à leurs « bachas », comme si, dans son esprit, théocratie et despotisme étaient synonymes. Octave Pesles[3], critiquant ce point de vue aberrant, affirme que Montesquieu ne pourrait guère dire des choses exactes sur la théocratie », alors qu'il en parle en termes si peu précis et qu'il n'en discerne même pas les principaux caractères ». D'autre part, « dans les gouvernements théocratiques qu'omet Montesquieu, on ne voit aucune bonne raison de séparer les pouvoirs. Leur réunion permet, en revanche, d'embrasser tous les problèmes dans une même vue et ainsi de mieux les dominer et de mieux les résoudre. Tout dépend, dès lors, du choix de l'Imam. L'Imam est-il juste ? La crainte de Dieu l'invitera à exercer les deux pouvoirs dans l'intérêt exclusif de la communauté[4] Montesquieu ne voit pas juste quand il dit : « qu'il faut unir les pouvoirs civils et militaires dans la république et les séparer dans la monarchie »[5]. La loi française sépare les deux, les découpe, les aère ; la loi musulmane les cimente, en faisant un bloc... ; la première qui se prête aux retouches est remaniable et partant, variable ; la 2ème, défendue contre les caprices des juristes ou leur versalité par sa masse lisse, tend à la constance.[6] « Il n'y a qu'une justice en Islam, celle de l'Imam et ses délégués » ; en France, ce n'est que depuis le décret de 1790[7] que « tous les citoyens sans distinction plaident en la même forme et devant les mêmes juges dans les mêmes cas ». « l'Imam, lui, n'a jamais distingué – dit encore O. Pesles –[8] entre les croyants – Ceux-ci sont égaux devant la justice – Par ce côté de ses institutions, l'Islam a des affinités avec le gouvernement républicain ».

Pour concrétiser, nous prenons comme exemple, la nature juridico-sociale du comportement du législateur vis-à-vis du beau sexe. L'émancipation de la femme en Europe a commencé en Germanie – La tendance de la femme en France a été de devenir maîtresse de son intérieur. Le progrès des sciences a précipité le mouvement féministe. Mais, ce n'est qu'en 1903 (loi du 13 Juillet) que la femme mariée a eu droit au libre salaire. Plus tard, en 1938 (la loi du 18 Février) lui a reconnu une certaine capacité – O. Pesles a critiqué fortement les énormes bévues de la rubrique réservée à la femme musulmane dans le Grand Dictionnaire Universel du XIXème siècle par P. Larousse – « Toute sa vie (la vie de Sidna Mohamed) le montre – dit O. Pesles – plein d'égards, d'attentions délicates, pour ses compagnes – « l'eugénie présentée comme une idée nouvelle en Amérique et en Allemagne, est un article de loi ancien en Islam » – Dès le début, l'Islam Malékite a fait de la consommation du mariage un élément essentiel, avec la plupart des législations modernes.[9] L'Islam interdit les pratiques malthusiennes ; la femme a droit à la maternité et le mari ne saurait l'en priver. Le positivisme d'Auguste Comte (décédé en 1857) interdit à la femme l'héritage qui permet à celle-ci d'avoir un patrimoine distinct. « Du moment que toute l'activité matériellle incombe au mari, que la femme en est exclue, tous les moyens permettant au mari d'exercer cette activité doivent lui revenir. Représentant seul le travail, il doit seul avoir le capital »[10] – Pour Proudhon, la femme est inférieure de l'homme au triple point de vue physique, intellectuel et moral ; elle n'a ni la force, ni l'imagination créatrice, ni le don du gouvernement, mais elle a la beauté – le Coran a reconnu à la femme des capacités et des droits inconditionnels, dans toute gestion d'ordre civil, économique ou personnel ; elle jouit ainsi de la capacité et du droit d'hériter de donner, de léguer, d'acquérir, de posséder en propre, de passer un contrat, d'attaquer en justice et d'administrer ses biens ; elle a aussi le droit de choisir librement le compagnon de sa vie ou d'acquiescer à un tel choix, de convoler en secondes noces, après veuvage, droit qui n'a été reconnu

(2) Esprit des Lois, Livre II, chap. V livre III, chap. IX
(3) Judicature..., O. Pesles p. 5
(4) Ibid p. 17.
(5) Esprit des Lois, Livre V, Chap. XIX.

(6) « La judicature, 1942 p. 2.
(7) Décret de 16-24 août, titre III, article 16.
(8) La Judicature ... p. 28 et 75, 88 et 108.
(9) La femme Musulmane p. 30.
(10) Civilis. des Arabes p. 286, 428.

Efficience du rite Malékite sur l'Occident, à travers le Maghreb

Abdelaziz Benabdellah
Membre de l'Académie du Royaume du Maroc

« Le centre universel d'orientation se déplacera dans les siècles futurs – dit Bernard Shaw – de l'Occident en Orient » ; la Charia, Droit musulman, deviendra, alors, le Code Unique de la vie civilisationnelle, apte à remodeler et à régulariser la vie de l'homme sur terre dans tout processus futuriste. Les Musulmans sont convaincus de la portée universelle du Droit musulman, adaptable à toutes les conjonctures et à toutes les époques, comme en fait foi le vœu adopté à l'unanimité au cours de la séance finale du 7 Juillet 1951, lors du Congrès International de Droit Comparé : « ...il est résulté clairement que les principes du Droit musulman ont une valeur inddiscutable et que la variété des écoles, à l'intérieur de ce grand système juridique, implique une richesse de notions juridiques et de techniques remarquables, qui permet à ce Droit de répondre à tous les besoins d'adaptation exigés par la vie moderne ». La morale internationale telle qu'elle a été instituée par l'Islam, a marqué le processus d'élaboration et d'évolution de la pensée juridique, de par le Monde. Le travail magistral de mon cher ami et collègue Marcel Boisard, dans son célèbre ouvrage « l'humanisme de l'Islam », constitue une référence digne d'estime. L'Islam, religion universelle, s'indentifie à la Charia, loi universelle. Néanmoins, les doctes de la loi musulmane ont toujours été réfractaires à l'idée de « l'Islam religion d'Etat » – Quand, au Moyen Age, le Sultan Ottoman Sélim voulut en appliquer le principe dans l'Empire musulman, le « Cheikh el-Islam » gardien de la « Charia » (loi organique) s'y opposa catégoriquement, invoquant le respect reconnu par l'Islam à la liberté de conscience.

La loi musulmane est bien ancrée dans l'esprit des masses : le musulman connaît les grandes lignes de la loi parce qu'elle est populaire.[1] – Mais, il a besoin de l'aide des juristes pour l'éclairer sur les limites de ses droits et l'aider à exprimer clairement sa volonté, dans le domaine testamentaire, par exemple.

Nous allons essayer d'exemplifier ces influx sur le processus de la pensée juridique, dans tous les domaines du Droit, aussi bien civil que pénal, commercial, financier, constitutionnel etc... Quand on relève une similitude intégrale, marquant à la fois notion et expression, l'emprunt ne laisse nul doute. Toute une gamme d'élaborations juridiques, dans toutes les branches du Droit, cristallisent l'apport de la Charia et ses effets sur les options du législateur, notamment dans le secteur méditerrano-occidentalo-américain –. Le Code Civil française, Contrats et engagements en particulier, comporte des dispositions dont le moins qu'on puisse dire est qu'elles sont curieusement similaires même dans leurs formulations du Droit musulman ; indéniable est l'influence du Fiqh, sur les territoires intégrés à l'Empire Ottoman, bien avant la chute de Constantinople, en 1453 (Macédoine, Bulgarie, Thessalie

(1) Le Testament p. 99.

فهرس



